البعد الضائع

في عالم صوفي

إيمان ويقظان يكتشفان الحكمة المتعالية

رواية

رحلة في عمان

محمد رضا اللواتي

دار المحجة البيضاء



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

البُعْد الضَائِع

في «عَالَم صوفي»


بسم الله الرحمن الرحيم

محمّد رضا اللواتيّ

البُعْد الضَائِع في «عَالَم صوفي»

إيمان ويَقظَان يَكْتَشِفَان الحِكْمَةَ المُتَعَالِيَةَ

رواية في الفلسفة الإسلاميّة

دار المحجّة البيضاء

دعوة

ببالغ السرور يتشرف كلٌّ من

إيمان ويقظان

بدعوة

المايجور ألبرت كناغ وابنته هيلد موللر كناغ

للاطّلاع على دروس في الحكمة المتعالية من الفلسفة الإسلاميَّة

مع خالص تحياتنا

للعزيزة صوفي أمندسون
وأستاذها الفيلسوف ألبرتو كنوكس

نرجو لكم أسعد الأوقات أثناء السفر في

البعد الضائع

شكر وتقدير

قد يكون من صدق الوفاء عليَّ أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من تدين لجهودهم هذه الرواية بالفضل العميم، وأخص بالذكر هنا كل من: ـ

١ ـ حسين بن علي بن داود على المجهود الذي بذله لأجل مراجعة البيان اللغوي لبعض فصول الرواية.

٢ ـ علي بن أحمد بن جواد، الذي تحمل مشقة مراجعة وتصحيح البيان اللغوي في سائر فصول الرواية، وعاين ألفاظها ومعانيها، ولولا المجهود الذي بذله لما كان ممكناً إخراج الرواية في شكلها الحالي.

إهداء

إلى «مسقط» بمناسبة ارتدائها حلة «عاصمة الثقافة العربية لعام ٢٠٠٦»

المقدّمة

من أين جاء العالم؟

هل أن لكل شيء بدايةً؟

لماذا تحتاج الكائنات إلى مُوجد؟

ولماذا استغنى المُوجد عن الحاجة؟

هل صفحة الكون سراب بقيعة يحسبها الظمآن ماءً؟

أم هي مرآة تتجلى فيها الذات الإلهيّة المقدّسة؟

هل الوجود محصور في هذا العالم؟ أم أنّ له مراتب؟

وهل فعلاً العالم نهر عظيم يأخذ بكائناته عبر الموت من ضفة الدنيا ليلقي بها إلى ضفة الحياة الأخرى؟

وهل بلوغ القرب الإلهي متاح؟

كيف تسللت الشرور والمصائب في صناعة هذا الكون؟

ما القضاء؟ وما القدر؟

وهل للإنسان الكامل وجود؟

ظلت هذه الأسئلة تجتاح ذهن إيمان ردحاً من الزمن،

إلى أن وقع بصرها على عالَم صوفي، فاقتنته، علَّها تروي غليلها بالسفر فيه، والتزود منه. وكم أسعدها السفر في ذلك العالم البديع، ولكنَّها، حين العود، لم تجد ما تتشبث به، لتردع عن تفكيرها هجوم تلك الأسئلة الغامضة مجدَّداً، إلاَّ أن تقول «إنّ الفيلسوف الحقيقيَّ لا يعترف بالفشل أبداً».

وشاء لها القدر أن تكتشف البعد المفقود في عالم صوفي؛ ذلك البعد الذي تكمن فيه الأجوبة لكافة أسئلتها الصعبة. فلقد دلَّها رجل ذات يوم، في معرض مسقط الدولي الحادي عشر للكتاب، إلى الفلسفة الإسلاميَّة، باعتبارها تحوي ما تبحث عنه، وبالتحديد: الحكمة المتعالية منها. تلك الحكمة العظيمة التي، لسبب ما، خلا منها عالم صوفي. في الواقع، لقد خلا كلِّيّاً من الفلسفة الإسلاميَّة.

هي ذي آنية، وقد صمّمت على اكتشاف البعد الضائع في ربوع سلطنةِ عُمانَ.

نرجو لها سفراً موفقاً.

م.ر.

الفصل الأوّل

أسْئِلَةٌ مُحَيِّرَةٌ

ـ ١ ـ

رسالة شكر وتقدير إلى السيد غاردر

الساعة تشير إلى العاشرة والربع مساءً، آخر يوم سبت في العام ٢٠٠٥م. إنّه مساء اليوم الحادي والثلاثين من شهر ديسمبر/كانون الأوّل. تنهّدت إيمان وهي تقول في نفسها:

لم تبقَ إلا لحظات على انصرام هذا العام. كم كان مريعاً؟ لقد خلّف محناً ومآسيَ عديدة. وها هو ذا يستعدّ للتملص من مسؤوليّاته والهروب إلى جهة العدم! ألا يوجد من يحاسبه على أفعاله؟ ولكن...تساءلت إيمان في نفسها:

ما ذنب الزمن في المآسي التي اقترفها البشر؟ هل الزمن هو المسؤول عن مآسي البشر في العراق، وفي سجن «أبو غريب»، وفي فلسطين، وفي دارفور؟ بالطبع لا! المسؤولون هم البشر أنفسهم.

ولكن ماذا عن المآسي التي تخلفها الفيضانات والزلازل؟ هذه على الأقل لا ذنب للبشر فيها. إنها الطبيعة التي يجب أن يحاسبها أحدهم على جريمتها.

ولكن... تساءلت إيمان للمرة الثانية في نفسها:

هل هناك يوم حساب وتوجيه أسئلة للطبيعة؟ إنها تعتقد بأن الطبيعة أداة تنفيذية عمياء في قبضة خالق الطبيعة فما ذنبها هي أيضاً؟ وإذن، التساؤل يجب أن يتوجه جهة الأفق الأعلى، وهذا غير متيسّر.

تذكّرت إيمان أنّ عليها أن تقوم بعمل، فتوجّهت نحو طاولتها الدراسية والتقطت قلمها وسحبت ورقة من مجموعة أوراق الرسائل ذات الألوان الورديّة والبنفسجيّة، وقبل أن تكتب شيئاً، ألقت نظرة إعجاب كبيرة على كتاب ضخم يقبع في الجانب الأيمن من طاولتها الأنيقة، عليه عنوان «عالم صوفي» بخط أصفر كبير، وتحته بخط أبيض أقل حجماً: «رواية حول تاريخ الفلسفة». لقد أنهت إيمان قراءة الكتاب بأكمله قبل أشهر وعاودت قراءة بعض فصوله الممتعة عدة مرات وقررت عدم الخروج من المنزل هذه الليلة لتناول العشاء في مطعم «كارجين»، حتى تتمكن من كتابة رسالة شكر وتقدير لمؤلّف كتاب عالم صوفي: جوستاين غاردر. لقد أعجبها كتاب عالم صوفي إلى درجة أنها كانت تتخيل وهي تقرأ فصوله الجميلة أنّها هي صوفي نفسها! لقد وجدت إيمان شبهاً كبيراً بينها وبين صوفي من جهة توقها لمعرفة أصل الكون وسبب وجوده ووجود الإنسان في الأرض ومصيره. وهذا هو الدافع الذي جعلها تقتني كتاب عالم صوفي، الذي يستعرض محاولات الفلاسفة عبر

التاريخ للإجابة عن هذه الأسئلة بأسلوب روائي شيق جداً.

ها هي إيمان وقد انحنت على الورقة بقلمها وسطرت....

حضرة السيد / جوستاين غاردر.... المحترم

يُسعدني ـ سيدي ـ ويشرّفني أن أبلغك أحرّ التهاني القلبيّة للنجاح الساحق الذي حققه كتابك عالم صوفي، الذي وضعتَه على لسان المايجور/ ألبرت كناغ لكي يهديه لابنته «هيلد موللر كناغ» يوم عيد ميلادها الخامس عشر المصادف ليوم الجمعة الخامس عشر من حزيران في العام ١٩٩٠م. لقد نجحت ـ سيِّدي ـ في تقديم تاريخ مسلٍّ ورائعٍ للفلسفة إذ أنزلتها بذلك من برجها العاجيِّ وأزلت عنها غبارَ النسيان الذي ألتصق بها جرّاء هجرة الشباب لها ومقتهم إيَّاها. ولقد استطعتَ بمخيّلتك الواسعة والخلاقة أن تتحدَّى الملل أن يتسرَّب إلى نفوس قرّاء كتابك الفذِّ، وذلك بجعلك المايجور يبتكر «صوفي أمندسون» وأستاذها الفيلسوف «ألبرتو كنوكس» ضمن رواية مليئة بأحداث جميلة وجذابَّة. ولا عجب بعد ذلك أن يشهد عالم صوفي كل هذا الإقبال ويترجم إلى كل تلك اللغات. هنيئاً لك سيِّدي، فلقد نجحت.

ومن المحال ـ كما تعلم سيدي ـ أن يخلوَ عمل، مهما كان شأنه، من خدش، مادامت العقلية التي وراءها تتسم بالمحدوديَّة، لذا فمن القبيح أن يحاول المرء تقنّص خدشات عمل، سيما إذا كان ـ كعملكم ـ مبدعاً، لأنّ ذلك سيدلّ على قلّة

ذوق ذلك الباحث، الذي شغف بتقصّي العثرات، وقد أعماه شغفه عن مشاهدة روعة العمل وشدّة جاذبيّته وجماله. لهذا ـ سيِّدي ـ سوف أمنع قلمي من أن يُصاب بهذه الآفة الخبيثة، وتأكّد إنّ جمال عالم صوفي الأخّاذ سيمنعني من ذلك وإن حاولت.

نعم، إنّ ما يجب أن أصارحكم به هو أنّ الأسئلة التي بدأ بها الكتاب، أعني:

- من أنت ومن أين جاء العالم؟
- وهل يمكن لأيّ شيء أن يكون موجوداً منذ الأزل أم يجب أن يكون لكلِّ شيء بدايةً؟
- إذا كان الله خالقَ العالم فهل هو الآخر مخلوق؟
- من نحن؟ ولماذا نعيش؟
- كيف خُلق الكون؟
- هل وراء ما يحدث إرادةٌ أم حسٌّ؟
- هل توجد حياة أخرى بعد الموت؟
- كيف يجب أن نعيش؟

تلك الأسئلة، والسؤالان الأخيران في الرواية:

- ما الذي تفجَّر يوماً قبل عدة مليارات من السنين؟
- من أين جاءت هذه المادة؟

لم أعثر على أجوبتهم النهائيّة! لقد خرجت من القراءة

بمتعة كبيرة، وبمعلومات جمّة فعلاً عن تاريخ الفلسفة والفلاسفة، خرجت وأنا أحفظ آخر جملة نطقتها صوفي عندما قالت «إنّ الفيلسوف الحقيقيّ لا يعترف بالفشل النهائي أبداً».

ختاماً تقبّل عظيم شكري لعملك المبدع، على أمل اللقاء بالمايجور ألبرت مرّة أخرى في مؤلّفات جديدة ولكن مع أجوبة شافية ونهائيّة هذه المرّة إن أمكن ذلك.

المعجبة: إيمان
مسقط ـ سلطنة عُمان

أعادت إيمان قراءة رسالتها عدّة مرات قبل أن تضعها داخل كتاب عالم صوفي وصمّمت أن ترسلها إلى السيِّد غاردر في أوّل فرصة تسنح لها. قامت إيمان بعد ذلك بترتيب جدول قراءاتها للأسابيع القادمة فترة إجازة ميلاد المسيح عليه السلام. تدرس إيمان في جامعة «لاتروب» الاستراليّة، منذ حوالى سنة. فبعد أن اجتازت امتحانات شهادة الثانويّة العامّة، وظفرت بمجموع جيِّد جدّاً يُؤَهِّلها لأن تحصل على منحة دراسيّة على حساب حكومة بلدها، سلطنة عُمان، اختارت ملبورن لأسباب عدّة. وبتشجيع من أهلها سافرت بداية العام الدراسيّ، وها هي الآن قد عادت قبيل أيام إلى مسقط في عطلة الكرسمس.

ـ ٢ ـ

كوارث العام ...

إلى أين تتّجه مسيرة الحياة؟

غداً هو أوّل يوم في السنة الميلاديّة الجديدة، وقد خطّطت إيمان لتقضي يوم غد في مطالعة إحدى الكتب التالية:

تسع طرق للنجاح لرينيه بارون وإليزابيث واغيليه

سامية لعالية محمد صادق

وكان تقياً لكمال السيد

تذكرة سفر لعلياء الأنصاري

سيّدات وآنسات لخولة القزويني

عابرة سبيل لمنصور جعفر ونجيبة السيد علي

شباب الجامعة يسألون لعباس نور الدين

وتنوي قراءة هذه المجموعة خلال فترة الإجازة هذه. قامت بترتيب كتبها بسرعة وانطلقت إلى غرفة المعيشة لتشاهد

برنامجاً هاماً يُذاع في تمام الساعة الثانية عشرة، ويلقي أضواءً على أهمّ وأشهر أحداث العام الذي باتت أنفاسه معدودةً.

رحّب المذيع بالمشاهدين قبل أوان البرنامج بلحظات، ولفت انتباههم إلى أن البرنامج سيعمد أولاً إلى سرد أهمّ أحداث عام ٢٠٠٤، هذا قبل أن يسرد أحداث العام الحالي الذي لم يبق من عمره غير دقائق معدودة فقط. بدأ البرنامج ينقل مشاهد الدمار الفظيع الذي خلفه الطوفان تسونامي، كونه أبرز حدث مأساوي في العام ٢٠٠٤م، وخلّف محناً لا زالت قائمة إلى يومنا هذا. تحدث المعلّق فقال:

سيّداتي وسادتي...

سوف ننقلكم الآن، وقبل أن يلفظ هذا العام آخر أنفاسه، إلى أسوأ حدث شهده العالم في العام ٢٠٠٤م. ونلفت عنايتكم إلى أن الفيلم يحوي صوراً قد لا تكون مناسبة للأطفال أو مرضى القلب ومرضى الاكتئاب النفسي...

في أعماق المحيط غرب شاطئ جزيرة سومطرة، سطحان من القشرة الأرضية، يدفع أحدهما الآخر منذ آلاف السنين، وشاء القدر أن تنتهي عملية الدفع بنجاح. تبادل الموقعان مكانيهما، ونتج عن ذلك تحرك كميات هائلة من المياه خلال بضع ثوان فقط مندفعة نحو الأعلى بسرعة طائرة نفاثة تقذف اليخوت والقوارب وكل شيء وكأنها لعب. لقد زفرت الأرض فمات ١٠٠ ألف إنسان! فهل هذا عقاب من الربّ كما قال

رجل شوهد هناك يعتمر قبعة سوداء ويتكئ على عصا، يتأمل الجثث والدمار؟

سكت المذيع...وبدأت الصور تروي القصة...

فعلا، لم تكن لتناسب الصبيان، بل وربما بعض الكبار أيضاً.

ثم انتقل المذيع إلى بدايات عام ٢٠٠٤م، معلقاً على صور تحطّم طائرة فرنسيّة فوق النيجر راح ضحيتَها ١٧٠ قتيلا. قال المذيع إنّ الحكومة الليبية وافقت على دفع تعويضات بقيمة ١٧٠ مليون دولار أمريكي لعائلات الضحايا. وانتقل بعد ذلك إلى أحداث شهر فبراير حيث تم إعدام عدة ملايين من الدواجن في منطقة الشرق الأقصى التي انتشر فيها فيروس أنفلونزا الطيور! وفي مارس، تقتل الهجمات الانتحاريّة ١٤٠ شخصاً يؤدون شعائر يوم عاشوراء في مدينة كربلاء من العراق، وسلسلة هجمات إرهابيّة تقع على قطارات محطّة مدريد لتفتك بأكثر من ١٩١ شخصاً.

وفي أبريل، أخبار فضائح الجنود الأمريكان في سجن «أبو غريب» تُذاع بالصور! يا لها من صور مخزية لبلد ينادي للديمقراطية والحرية. وفي أغسطس هبوب أسراب من الجراد على عدد من دول أفريقيا والعلماء يحذرون من وقوع أوبئة خطيرة ربما لم يشهد العالم لها مثيلا منذ ١٥ عاماً. وفي الشهر ذاته، ينقل التلفاز صوراً لمأساة دارفور السودانية، إذ تعرض

أكثر من ١,٠٠٠,٠٠٠ شخص للتشرد والنزوح من بيوتهم، بينما لقي أكثر من ٥٠ ألفاً آخرين مقتلهم على يد مجموعة تمارس التطهير العرقي بين الأفارقة السود. ألا يوجد من يوقفهم عند حد؟ هل ستكتفي البشرية بالمشاهدة والتفرج فحسب؟

وفي سبتمبر، ينقل البرنامج الحادث المؤلم الذي وقع في مدرسة للأطفال في مدينة بيسلان. فقد اقتحم المدرسة عناصر من الشيشان في عملية إرهابيّة انتهت بمقتل ٣٣٠ طفلاً. تنهّدت إيمان وقالت في نفسها «أيّ قلب هو ذاك الذي طاوع صاحبه لقتل أطفال؟ لا يمكن أن يكون منتمياً إلى أسرة البشر».

وها هي قصة العواصف تعود مرة أخرى. ٤ منها تهب على ساحل الكاريبي وسواحل الولايات المتّحدة الأمريكيّة لتحصد ٣ آلاف قتيل وتخلّف خسائر تُقدر بأكثر من ٤٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار! هل عزمت الطبيعة أيضاً على مسايرة البشر في القتل والفتك؟

«يا له من عام»... قالت إيمان ذلك في نفسها. «كان ورحل! دون أن يرحل معه ما خلفه من كوارث وأهوال».

لننتقل الآن إلى أشهر أحداث هذا العام، بل يمكنني القول الآن ـ والكلام للمذيع ـ ، وقد دقت الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، أن عام ٢٠٠٥م أيضاً قد رحل. أخذت صور مأساوية بالظهور تباعاً على الشاشة، بينما علق المذيع وهو يقول: في ٢٢ فبراير/شباط من العام المنصرم قبل ثوان، شاهد

العالم كارثة إنسانية في غرب إيران. فلقد قضى زلزال بقوة ٦,٤ درجات على مقياس رختر على حياة ٦١٢ شخصاً، وأصاب ١,٤١١ آخرين بمختلف الأضرار. كانت عينا إيمان تدمعان وهي تشاهد بكاء النساء وذعر الأطفال من هول الكارثة.

انتقلت كاميرا البرنامج إلى لبنان، لينقل صور الانفجار الهائل الذي أودى بحياة رئيس وزراء لبنان السابق «رفيق الحريري» مع ٢٠ شخصاً آخرين كانوا في موكبه. علّق المذيع على المأساة الفادحة قليلاً، ثم نقلته الكاميرا إلى ساحل سومطرة التعس، حيث قضى زلزالٌ بقوة ٨,٧ درجات على مقياس رختر على قرابة ١٠٠٠ شخص، وذلك في ٢٨ مارس/آذار من العام الذي رحل قبل دقائق.

صاحت إيمان وهي تقول:

ـ يا إلهي...هذه الأرض التي شهدت أسوأ مأساة إنسانية قبل فترة وجيزة، وإذا بها مرة أخرى، تصاب بكارثة جديدة. قالت ذلك إيمان بكل ذهول وألم.

مرة أخرى، تنتقل الكاميرا إلى لبنان، وصور لمظاهرات عارمة في أبريل/نيسان، تطالب برحيل الجيش السوري من الأراضي اللبنانيّة، في ظل ضغوط دوليّةٌ خطيرة، بعد أن ألقت تهمة مقتل الرئيس رفيق الحريري بظلالها.

وها نحن الآن في مايو/أيّار، والصور تنقل مشاهد مظاهرات عارمة تجتاح العالم الإسلاميّ، على أثر شائعات أنّ

الجنود الأمريكان قاموا بتدنيس كتاب المسلمين المجيد، القرآن الكريم، إمعاناً منهم في إذلال سجناء معتقل غوانتانامو من المسلمين.

- ألم يبقَ للمقدّسات احترام في هذا الزمن؟ تأسفت إيمان وهي تقول ذلك في نفسها.

عادت صور المآسي مجدداً، ففي نهاية يونيو/حزيران، فيضانات تقتل ٥٦٧ شخصاً، وتصيب ١٦٥ آخرين، وتجبر مليوني شخص إلى إعادة التوطين في شتى أنحاء البلاد في الصين.

وفي يوليو/تموز، وقعت تفجيرات انتحاريّة في لندن، استهدفت قطارات الأنفاق، وحافلة ركاب، ما أسفر عن مقتل ٥٢ شخصاً، والتحقيقات تقول إنّ المنفذين كانوا بريطانيّين من أصل آسيويّ. وفي الشهر نفسه، ٣ تفجيرات تهز منتجع شرم الشيخ في مصر المطلّ على البحر الأحمر، وتسفر عن مقتل ٨٨ شخصاً وإصابة عديد آخرين.

مرة تلو الأخرى، نعود إلى الكوارث الطبيعية، وهذه المرّة في الهند، وبالتحديد في ولاية مهاراشترا، تودي الأمطار الغزيرة بحياة ١٠٠٠ شخص هناك. بعد ذلك، أخذت الشاشة تبث صوراً لدمار فظيع، وقع في أعقاب إعصار كاترينا الذي ضرب ولاية لويزيانا الأمريكيّة. لقد بلغت سرعة الرياح ٢٢٤ كم في الساعة، أدت إلى مقتل ١٢٢٨ شخصاً، وخسائر مادية

قيمتها ثمانون مليار دولار أمريكي. علق المذيع قائلا إنّ هذه أكبر كارثة تتعرض لها الولايات المتّحدة الأمريكيّة. ويبدو أن نصيب أمريكا من الكوارث الطبيعية لم ينتهِ إلى ذلك الحد، ففي سبتمبر/أيلول، ضربها إعصار مدمّر آخر اسمه ريتا.

قال المذيع: «من الواضح أن الطبيعة غير راضية عن البشر، فمسلسل كوارثها لا يرضى أن يقف عند حد. ففي ٨ أكتوبر/تشرين الأوّل، قُتل الألوف من الأشخاص في زلزال ضرب شمال شرق العاصمة الباكستانيّة، إسلام آباد، بقوة ٧,٦ درجات على مقياس رختر، ثم ضرب إعصار هائج واتيمالا والسلفادور مدمراً العديد من المناطق الفقيرة».

«سيداتي وسادتي: إنّ للعام الفائت وجهاً إيجابيّاً أيضاً، يتمثل في بعض الاكتشافات الطبيّة المهمّة، سنتلو أخبارها عليكم بعد هذا الفاصل»...قال المذيع ذلك، ولكن لم يكن يبدو على حدقتي إيمان القدرة على الاستمرار في التسمر أمام الشاشة الفضية، فأغلقت الجهاز، وتوجّهت إلى غرفتها وذهنها تعصف به أسئلة خطيرة:

ـ لماذا هبّ طوفان آسيا ليبتلع الآلاف من الأبرياء ويقوّض حياة أسر عديدة ويزرع الألم والدمار؟ هذا السؤال لا معنى له عند من يعتقد أنّ الطبيعة جهاز أعمى يعمل بلا وعي! أما إيمان فمؤمنة بالله ـ تعالى ـ وتعتقد جزماً أنّ الأحداث تقع بإرادته ومشيئته. وهنا مكمن المشكلة، إذ كيف

ترضى إرادته ـ سبحانه ـ أن يقع هذا الدمار ويذهب ضحيته العديد من الأبرياء؟ الأطفال تشردوا، الأسر تفككت، بل زالت عن قيد الحياة.

ـ هل ثمّة علاقة بين الطبيعة وغضبها وبين أفعال البشر؟ إذا كانت العلاقة موجودة وكانت الطبيعة تثور لأفعال البشر السيّئة، فلماذا تلتهم الأبرياء وتترك الظالمين والجبابرة؟

ـ إلى أين تذهب مسيرة الحياة وأي اتجاه تسلك؟ اتجاه السعادة أم الشقاء؟ الاحتمال الأوّل ضعيف بل لا يرد أصلاً ونحن نرى الحروب والدمار والكوارث والبؤس والحرمان في كلّ مكان تقريباً على وجه الأرض! إذن مسيرة الحياة تمشي مسرعة في خط الشقاء. ولكن لماذا؟ هل خلق خالق العالِم العالمَ ليكون الإنسان فيه شقيّاً مُهاناً؟ وما غرضه؟ ولماذا فضّلَ لهذا العالم ومن فيه، هذا القدرَ في الوقت الذي كان بإمكانه أن يجعل مصيره أفضل من هذا؟

ـ الخالق! لقد قرأت إيمان «عَالَم صوفي» وخرجت بنتيجة مروّعة حقاً! إذْ إنّ الفلاسفة الأذكياء لم يتمكنوا من تقديم برهان واحد يثبت وجود الصانع دون أن يكون في ذلك البرهان شائبة نقص! لماذا؟ ألم يكن الأولى أن يكتشف الإنسان وجوده ـ تعالى ـ بمنتهى السهولة واليسر؟ يبدو أن هذا غير متحقّق مع الأسف.

نهضت إيمان من فراشها، متوجّهة صوب طاولتها

البنفسجيّة الأنيقة فأخرجت رسالتها التي كتبتها إلى السيد غاردر وبدأت تعيد قراءتها مجدّداً مقرّرة تغيير خاتمة الرسالة.

السيد غاردر...لديّ أسئلة أخرى، لست أدري جوابها. إنّها تتعلّق بالمآسي التي تشهدها البشريّة يوميّاً على هذه المعمورة؛ طوفان آسيا المدمّر، الحروب، الآفات، القتل والتشريد اليوميّ، الدمار، التهديدات وأسلحة الدمار الشامل، وغير ذلك. لماذا شاء الله أن يكون هذا العالم مليئاً بهذه المصيبات؟ هل كتب لنا الشقاء أم السعادة؟ أرجو سيدي أن لا تنساها في تأليفاتك المستقبلية، وهذه المرة أرجو أن أجد فيها أجوبة شافية. شكراً لك.

- ٣ -

بين المشي على الجمر والنوم على الشوك

كان يقظان قد أنهى قراءة رسالة إيمان للسيد غاردر، بينما كانت هي تتأمّل بروشوراً من ورقتين يدعو للانضمام إلى دورة اكتشاف الذات. كان العنوان مثيراً فعلا: **المشي حافياً على بساط من الجمرات الملتهبة بدون ألم!**

- هل ستأتين؟، سأل يقظان إيمان مبتسماً.

- إذا حصلت على أجوبة عن تساؤلاتي فسوف أحضر، ردت إيمان باقتضاب.

- يقظان: لا علاقة لهذه الدورة بتساؤلاتك الفلسفية. هذه الدورة توقظ قوانا الباطنية وتفجر فينا طاقاتنا.

- إيمان: وأسئلتي؟

- اتركيها جانباً. دعي شؤون الخلق للخالق. لماذا كل هذا الاهتمام بها؟، سألها يقظان بكلّ جدّيّة.

- إيمان: لا أستطيع يا يقظان. بالنسبة لي، سأظلّ أتألّم وإن مشيت على الجمر دون ألم. روحي تتألم وعلي أن أريحها

بالأجوبة الشافية عن هذه الأسئلة.

- يقظان: أمّا أنا فلا أهتم بهذه الأسئلة على الإطلاق. سوف أذهب لوحدي إلى هذه الدورة.

بعد أسابيع سيُقام معرض مسقط الدولي الحادي عشر للكتاب. لعلك تحصلين فيه على كتاب يجيبك عن أسئلتك.

- إيمان: فكرة طيّبة.

ولكن ألا توجد دورات تعلّم الناس كيف يواجهون مثل هذه الأسئلة ويجيبون عنها؟

عندما سيجيبني أحدهم عن سبب وجود المصيبات والبلايا في الكون، ألا تعتقد أن ذلك سيحرر عقدتي ويفجر طاقتي؟

- يقظان: إذا كان الجواب إيجابياً.

- إيمان: لقد تحولت أسئلتي إلى أشواك أنام عليها كل ليلة ولن يجديني المشي على الجمر أبداً يا يقظان، صدقني.

- يقظان: لقد تأثرت بصوفي أمندسون كثيراً يا آنية.

- إيمان: فعلاً. إنّني أبحث عن ألبرتو كنوكس يظهر في حياتي ليساعدني على النوم بلا أشواك وليس على المشي فوق الجمرات الحارة.

- يقظان (مبتسماً): وربما يساعدك على النوم فوق الشوك

ولكن دون ألم، كما فعل البرتو كنوكس مع صوفي.

صوفي لم تحصل على أجوبة عن استفساراتها المتعددة. لقد تعلمت فقط أن المحاولة للبحث عن الأجوبة أمر جيد.

- أتّفق معك، ردّت إيمان بهدوء تام.

رجع إيمان ويقظان في وقت متأخر من الليل بعد أن استمتعا كثيراً بالمشي على الجمرات الحارة، فلقد تمكّن يقظان أخيراً من إقناعها بحضور الدورة. انشغلت إيمان بعد ذلك عدة أيام في ما تعلّمته من الدورة، وكانت تنتظر افتتاح معرض مسقط الدولي الحادي عشر للكتاب بفارغ الصبر، فلعلّ أمنيتها تتحقق بالحصول على كتاب يجيب على معظم أسئلتها أو بعضها. زارت إيمان مع شقيقها يقظان المعرض في اليوم الثاني من افتتاحه، وتوجهت إلى منصات الكتب الفلسفيّة. كانت تقضي وقتاً طويلاً تتأمل في الفهارس وعناوين المواضيع. وفي الجناح اللبناني، وقعت عيناها على كتاب «عالم صوفي» فاقتربت منه ولمسته بإعجاب ثم أرجعته مكانه. لفتت حركتُها تلك أحد البائعين في ذلك الجناح فتوجه بالحديث نحوها قائلاً:

- إنه كتاب رائع جداً.

- إيمان: نعم... لقد قرأته وأعدت قراءة بعض فصوله لأكثر من مرة.

وهنا، تكلم رجل كان يجلس إلى جوار البائع وقال:

- ولكنّه ـ مع الأسف ـ ناقص.

- ناقص! كيف؟ سألته إيمان متعجبة.

- الرجل: ألم تلحظي أنّه لا يقدم أجوبة نهائية عن أسئلة صوفي؟

- بلى. ولكنّ الكتاب يستعرض تاريخ الفلسفة ولم يكن غرضه تقديم الأجوبة.

- الرجل (مبتسماً): صحيح، وحتى لو حاول، فلن يتمكن.

- إيمان (مندهشة): لماذا؟.

- لأنه لا توجد أجوبة نهائية لدى حكماء أوروبا عن أسئلة صوفي، فمن أين سيأتي الكتاب بها؟ قال الرجل بكلّ هدوء.

- !!..يبدو أنّ مثل هذه الأسئلة لا توجد لها أجوبة شافية، وأنا كنت أعتقد أنّني أنا التي لا أعرف هذه الأجوبة.

- بلى توجد. قالها الرجل بابتسامة لطيفة.

- توجد! أين؟ سألته إيمان بكلّ جدّ.

- في الفلسفة الإسلاميّة... هذه الفلسفة العظيمة التي جهلها أو تجاهلها عالم صوفي كلّيّاً وأهملها فلم يتعرض لها شارحاً، قال الرجل بنبرة صوت جادّة جدّاً.

- كلا، بل لقد تحدّث عن ابن رشد والإمام الغزاليّ. لقد

كانت ثمّة أسماء أخرى لا أتذكرها الآن. ردّت إيمان بكلّ ثبات.

- الرجل: حقاً؟ ثم وقف واستطرد قائلاً: الشيخ الرئيس ابن سينا الذي كان له الدور الهائل في تطور العلوم شرقاً وغرباً، الرجل الذي ظلّت أوروبا منهمكة على ترجمة كتبه وتدرّسها في جامعاتها، الرجل الذي استشهد به القديس توما الأكويني في خلاصته اللاهوتيّة أكثر من مائتي مرة... تُرى كيف تحدّث عنه «عالم صوفي»؟ تحدث عنه في صفحة، بل بضعة أسطر فقط!

وبالمقابل، قومي بعد الصفحات التي تتحدث عن توما الأكويني!

...سكتت إيمان ولم تحر جواباً! بينما استرسل السيد ماهر - هذا هو اسمه - :

- وأين صدر المتألهين الشيرازي في عالم صوفي؟

هذا الفيلسوف الكبير الذي أسّس الحكمة المتعالية وتمكّن من دمج الخطّ الفلسفيّ بالخطّ العرفانيّ في بوتقة واحدة تتوافق مع تعاليم الشريعة؟ الرجل الذي تمكن من تقديم إجابات نهائية للعديد من المشكلات العقليّة؛ من قبيل علاقة القديم بالحادث، وعلاقة الروح بالبدن، واكتشف الحركة الجوهرية وحقيقة الزمان...

هذا الرجل أيضاً لا أثر له في عالم صوفي. من أين ستنال

صوفي أجوبتها الشافية وقد اختزل لها أستاذها ألبرتو كنوكس درسه عن ابن رشد في أسطر فضلاً عن إهماله لصدر المتألهين.

- هذا مريع فعلاً، ردّت إيمان بذهول كبير!

- يا للعجب!! كتاب يستعرض تاريخ الفلاسفة ويتحدث عن مشكلة إثبات وجود الله ـ تعالى ـ لا يتناول برهان واجب الوجود الذي أسّسه الفارابيّ وطوّره ابن سينا والشيرازي ليصبح أعظم برهان في تاريخ الألوهيّة على وجود الله ـ تعالى ـ.

- برهان واجب الوجود؟ سألته إيمان مندهشة.

- نعم. يبدو أنّك اقتحمت الفلسفة عن قريب. هل هذا صحيح؟ سألها السيد ماهر.

- نعم، بل قل إنّني اقتحمت الفلسفة من خلال السفر في عالم صوفي فقط.

- إذن لقد اقتحمت عالَماً فاقداً لبعد أساسيٍّ فيه، قال السيد ماهر.

- والحل؟ أتقترح كتاباً بعينه للقراءة ياسيِّدي؟

- إنّ مثل هذه الكتب ـ مع الأسف ـ، تكون عسيرة الفهم عادة.

- ألا يوجد حلّ آخر يا سيّدي؟، سألته إيمان وكأنها تتوسل إليه.

- السيِّد ماهر: إنّ جدّيتك تشجعني أن اقترح عليك أمراً.
- إيمان: تفضّل عليّ به مشكوراً.
- يُمكنني تدريسك شيئاً من الفلسفة الإسلامية إن شئت.
- ماذا؟، (لم تصدق إيمان أذنيها). أحقّاً تعني ذلك؟ وهل درستَ ـ أنت ـ الفلسفة الإسلاميّة؟
- السيّد ماهر: بلى، ودرستُ الحكمةَ المتعاليةَ أيضاً. إنني متواجد في سلطنة عُمان في هذه الفترة فقط، وسوف أعود إلى لبنان بعد انتهاء المعرض.
- إيمان: إنّها فترة قصيرة. هل سنصل خلالها إلى نتيجة؟
- السيّد ماهر: ممكن. سوف نخصِّص الفترة الصباحيّة من الثامنة صباحاً إلى الثانية عشرة والنصف ظهراً كل يوم. وإذا تطلّب الأمر، فسوف نُكمل بعد صلاة الظهر لمدى ساعة ونصف ساعة أخرى.
- إنّني عاجزة ـ يا سيدي ـ عن شكرك، اسمح لي فقط أن أبلّغ والدي وأستأذنه، قالت إيمان مسرورة.
- السيّد ماهر: لا شكر على واجب. أعلميني عندما تكونين جاهزة.

فرح يقظان لهذه الأخبار كثيراً. ووافق والد إيمان بشرط أن يقام الدرس في منزله بوجود يقظان. أما إيمان فلم تكن إلى الآن تصدّق نفسها. لقد ظهر ألبرتو كنوكس آخر في حياتها،

ليُسرد عليها نتاجُ الفلسفة الإسلاميّة هذه المرة. من جانبه، قدّم يقظان طلب إجازة لمدة ١٠ أيّام في مقرّ عمله ووافق له مديره. وهكذا سوف يرحل يقظان مع إيمان إلى عالم ثقافيٍّ جديد ومثير.

الفصل الثاني

الفَلاسِفَةُ المُسْلِمُونَ

ـ ١ ـ

الحياةُ الفلسفيّة

غرفة المكتبة في منزل السيّد ناصر ـ والدِ إيمان ـ جميلةٌ جداً. أرضيَّتها خشبيّة، وجدرانها مصبوغةٌ بلون الخشب المشمشيّ، يوحي بالجديّة والانتباه. كانت عقارب ساعة ضخمة على الحائط المواجه للسيِّد ماهر تشير إلى الساعة الثامنة وخمس دقائق. وقف السيِّد ماهر وخلفه لوحة بيضاء كبيرة، وأمامه منضدة وضع عليها جرَّة ماء مع مجموعة من الأكواب في صحنٍ فضيٍّ جميلٍ، بجانبه صحنٌ ذهبيّ اللون، به دلّة فضّيّة تحيط بها مجموعة من الفناجين الصغيرة. وفي ركن المنضدة، وضعت مجموعة من الأوراق والأقلام. قام يقظانُ بواجب الضيافة، فقدّم للسيِّد ماهر فنجاناً من القهوة العمانيَّة، بينما جلست إيمان على كرسيٍّ مقابل المنضدة وبجوارها كرسيُّ يقظانَ. احتسى السيِّد ماهر فنجانه، فعرض عليه يقظانُ المزيدَ. وافق السيد ماهر وهو يقول:

- ما نوع هذه القهوة؟ لست أذكر أنني تناولتها من قبل.
- لعلَّ هذه أوّلُ زيارةٍ لك لعمان؟، سأله يقظان.

- السيِّد ماهر: بلى، هذه أوّل مرة أزور فيها عُمان. لقد سمعت عنها الكثير، ومسقط جميلة جدّاً.

- يقظان: القهوة التي تحتسيها الآن عُمانية ١٠٠٪. أهل عمان يصنعونها ويشربونها بشغف. لقد أصبحت هذه القهوة من علامات ضيافة العمانيّين لزوارهم.

- السيِّد ماهر: وهل يقدّمونها في المقاهي كما تُقدّمون القهوة التركية؟.

- كلا مع الأسف، ردّت إيمان.

- السيِّد ماهر: ولم لا؟ لا أجد في القهوة التركيّة ما يجعلها أفضل وألذّ من القهوة العمانية هذه، حتى تصبح تلك شهيرة إلى ذلك الحدِّ، دون قهوتكم العمانية اللطيفة.

- يقظان: كلامك سليم يا سيِّد ماهر. رُبَّما كان على المسؤولين في وزارة السياحة أن يفكّروا في هذه النقطة

- ولماذا لا نفكّر نحن ونقدّم لهم اقتراحنا حول ذلك؟، تساءل السيد ماهر بكلّ جدٍّ.

- ممكنٌ فعلاً. أعدك يا سيِّد ماهر أن أفعل ذلك إن شاء الله ـ تعالى ـ ، ردّت إيمان وقامت بتسجيل ملاحظة في دفترها المخصّص لتسجيل أعمالها والتزاماتها.

- السيِّد ماهر: هل قلت «وزارة السياحة» يا يقظان؟ هل لديكم في عُمان وزارة مختصّة في السياحة؟.

- يقظان: بلى، إنّها وزارة فتيّة جداً، تأسّست قبل فترة قصيرة فقط.
- السيِّد ماهر: إنّ إنشاءَ جهةٍ حكوميّةٍ مستقلّةٍ في مستوى «وزارة» في بلدٍ تُعنى بالسياحة فيها لدليلٌ على وجود مقوّمات وعناصر السياحة في ذلك البلد....
- يقظان: صدقت ياسيِّد ماهر. إنّ عُمانَ زاخرةٌ بالعديد من المقوِّمات السياحيّة. فمسقط وحدها قد استقطبت ١,٧١٥,٤٣٥ زائراً خلال العام ٢٠٠٣م. لا شك أنّ وزارة السياحة ستسعى لجعل عُمان ضمن مصافِّ كبرى دول العالم من حيث السياحة.
- إيمان: إنّه رقم كبير يا يقظان. هل أنت متأكّد من معلوماتك؟.
- يقظان (مبتسما): كلَّ التأكد.
- إيمان: وهل تعتقد أنّ وزارة السياحة ستنجح يا يقظان؟ إنّ التحدِّي الماثل أمامها قويٌّ جدّاً.
- الأمر ليس ببالغ الصعوبة يا إيمان، علّق السيد ماهر واستطرد: مئات من محبِّي السياحة في الدول الغربية، وربَّما الألوف، يتوقون لمشاهدة الطبيعة التي تزخر بها البلدان العربية، لاسيما الخليجيّة. إنّ استثمار هذه الطبيعة لجذب السائحين أمرٌ ممكنٌ جدَّاً. وقبل قليل أكّد يقظان أنَّ أكثر من مليون ونصف المليون زائر كانوا متواجدين في مسقط في العام ٢٠٠٣م.

- هل اطلعت يا إيمان على المشاريع التي تنوي وزارة السياحة تنفيذها خلال الأعوام القادمة؟، سألها يقظان.

- كلَّا. ما هي؟.

- يقظان: إنّهم يريدون إقامة المدينة الزرقاء في شاطئ السوادي.

- المدينة الزرقاء؟، سألت إيمان باستغراب.

- يقظان: نعم. سيكون مشروعاً سياحيّاً عملاقاً يعدّ الأكبرَ من نوعه من جهة المساحة. وهناك مشروع بيئيّ صحراويّ سيتم إقامته في رمال الشرقيَّة لكي يجسِّد البيئةَ الصحراويّةَ للسلطنة.

- فكرة عظيمة، علّق السيِّد ماهر.

- أضاف يقظان: وهناك أيضاً مشروع سياحيّ يتمثل في إعادة بناء المدينة القديمة في عبري. إضافة إلى مشروع كهف الهوتة الأوّل من نوعه في الخليج الذي يقود السائحين إليه قطار يمرّ عبر نماذج للأحياء البحريّة في عُمان.

- وهذه أعظم، علّق السيِّد ماهر.

- لمعلوماتك يا سيِّد ماهر، يوجد في عُمان أكبر كهف في العالم، قال يقظان وهو يبتسم.

- لم أسمع به من قبل، علّق السيِّد ماهر متعجِّباً.

- نعم قرأت عنه. إنّهم يفكّرون في تجهيز طريق يقود السيارات إليه، علّقت إيمان.

- رائعٌ فعلاً. أرجو أن تنتشر هذه الأخبار لتصل إلى محبّي السياحة، علق السيد ماهر.

- يقظان: إنّهم يجهدون لتحقيق ذلك فعلاً. لقد عهدوا إلى شركة «فيوجي» القيام بتمثيل عُمان سياحيّاً لدى دول الخليج العربيّ. «فيوجي» شركة عالميّة ومتمرسة في العمل السياحيّ.

- إيمان (مبتسمةً): يظهر أنّ يقظانَ ينوي تحويل درس الفلسفة إلى درس سياحة.

- السيِّد ماهر: إنّني أتوق إلى اكتشاف عُمان وزيارة بعض مرافقها السياحيّة، ولكنّني مرتبط بالمعرض عصراً، وأصبح لديّ الآن برنامج لم يكن متوقّعاً سيشغلني في الفترة الصباحيّة أيضاً.

- لا بأس عليك يا سيِّد ماهر. يمكننا من الغد فصاعداً، أن نقوم بالتجوال في ضواحي مسقط، ونأخذك إلى بعض المرافق السياحيّة المهمّة خارج مسقط أيضا، بشرط أن لا تتوقف عن الدرس في أي مكان كنّا. قال يقظان ذلك وهو يضحك.

- هذا كرم عظيم يا يقظان. سأكون ممتنّاً لك وتأكّد تماماً أنّنا لن نتوقّف عن التحدّث في موضوعنا الأساسيّ، إلاّ

بالمقدار الذي يسمح لك أن تعطيني فكرة موجزة عن المرافق التي سنزورها.

- موافق، قال يقظانُ فرحاً.

- إيمان: سوف نطرح الفكرة على والدي هذا المساءَ يا سيِّد ماهر.

- حتما، علّق السيِّد ماهر ثم قال: حسناً، لننتقل الآن إلى الفلسفة الإسلاميّة. أمستعدانِ؟

- نعم، صاح يقظان.

بدأ السيِّد ماهر حديثه بذكر الله ـ تعالى ـ ، وصلّى على نبيّه الكريم وآله، وأثنى على أصحابه الكرام، ثم قال:

- ليس من شكّ في أن تغطيتنا لمسائل الفلسفة الإسلاميَّة ودراستها بشكل جدِّيٍّ لن يكون ممكناً أبداً في الأيام الستّة القادمة، ولكن ما لا يدرك كلّه لا يترك كلّه. اعتبرا هذه الدورة دورة تعريفيّة لأهمّ المواضيع التي تتناولها الفلسفة الإسلاميَّة عادةً. نريد لإيمان ويقظان أن يكتشفا الجانب المفقود في عالم صوفي. ذلك الجانب هو الفلسفة الإسلاميَّة، وأعظم إنتاج لهذه الفلسفة يتمثّل في **الحكمة المتعالية**. وسوف تتأكّدان بنفسيكما، يا إيمان ويا يقظان، أنّ الأجوبة عن أسئلة صوفي مبثوثة في ذلك البعد المفقود في عالمها. سوف نتناول اليوم مسائل العلم والمعرفة، وغداً نتحدث عن العلّيّة، وبعد غد عن الوجود. سنخصّص

صباح الثلاثاء للحديث عن وجود الله ـ تعالى ـ وصفاته، ونطرح صباح الأربعاء خلق العالم والأهداف من خلقه. وليكن موضوع القضاء والقدر مخصَّصا للخميس، أما آخر يوم الدورة فسوف نتناول فيه موضوع الإنسان الكامل وضرورة وجوده وظاهرة الوحي وحتميّتها. إليكما البرنامج: (وزع السيد ماهر جدول الدروس):

ت	الموعد المحدد	الموضوع
١	السبت	العلم والمعرفة
٢	الأحد	العلّية في الكون وشرائطها
٣	الاثنين	الوجود والتحقّق
٤	الثلاثاء	وجود الله وتوحيده
٥	الأربعاء	أهداف خلق العالم والنظام الأحسن
٦	الخميس	القضاء والقدر والجبر والاختيار
٧	الجمعة	الإنسان الكامل وحتميّة الوحي

- البداية يجب أن تكون بالإطلاع على مسائل العلم واكتشاف حقيقته وكيف يحدث، وقيمة المعرفة، قال السيِّد ماهر واستطرد: ولكنّني أريد أن أبدأ المشوار بمقدِّمة أُخصِّصها للحديث عن الفلسفة الإسلاميّة وأشهر رموزها وبعض أهمّ إنجازاتهم. لقد دخلت إيمان عالم صوفي فوجدت فيه أشهر فلاسفة الغرب، ولم تلقَ إلا أثراً طفيفاً لرمز أو رمزين من رموز الفلسفة الإسلاميّة. لذا، يجب أن

نُوجد في ذهنها توازناً. سنعرِّفها بالفلاسفة المسلمين وبعض نتاجاتهم. جاهزان؟

- تماماً، ردَّ يقظانُ.

- علم الاجتماع، علم النفس، علم الاقتصاد، علم السياسية، علم الفيزياء، علم الأحياء، علم الطب، وسائر العلوم بما فيها الفلسفة، ليس صحيحاً أن ننسبها إلى دين ما، فنقول مثلا: الطب الإسلامي، أو نقول علم الاجتماع المسيحيّ، إلاّ في الحالات التالية:

١ ـ أن يكون الدين الذي ننسب إليه أيّ علم هو المُوجدَ لذلك العلم بنحو لا يكون لهذا العلم أثر إلاّ بعد ظهور ذلك الدين.

٢ ـ أن تكون معظم المسائل التي يبحث فيها ذلك العلم أو أهمّها على الإطلاق هي ذات المسائل التي طرحها هذا الدين وحثّ على التحقيق فيها وتعلّمها.

٣ ـ أن تكون الأفكار العليا لدين ما، وأسسه التحتيّة، تتغذّى وتستند على ذلك العلم، ومنها تنال واقعيّتها وقيمتها.

٤ ـ أن تكون طريقة التحقيق والبحث ـ أعني المنهج في حدِّ ذاته وليس نوعيّة مسائله فحسب ـ قد عرضها الفكر الدينيّ وحثّ عليها.

بدأ السيِّد ماهر بكتابة النقاط الأربع التي تحدّث فيها على السبورة الكبيرة وأضاف قائلا:

فلو أنّ عمّالاً مسلمين قاموا برصف شارع، فهل يصح أن نطلق عليه الشارعَ الإسلاميَّ؟

- كلّا، ردَّ يقظان.

- ولكن لنفترضْ أنّ فكرة رصف الطرقات لم يعرفها البشر من قبل، ونادت بها لأوّل مرّة الثقافة الدينية والأفكار الإسلاميّة؟

- الموقف يختلف الآن، أجاب يقظان.

- بالضبط، قال السيّد ماهر وأضاف: أصبح لدينا اليوم علمٌ يُسمى بعلم الفلسفة الإسلاميّة، وليس ذاك لأنّ الفلسفة لم تكن معروفة قبل الإسلام، وأنّ الإسلام أوّلُ من دعا إليها، كلّا. ولكن لأنَّ مسائل الفلسفة تدور حول وجود الله ـ تعالى ـ ، وتتولّى إثباته، وتبحث في صفاته وأفعاله، وهذه المسائل هي نفسها المسائل التي طرحها الدين الإسلاميّ. الدين الإسلاميّ دعا إلى التفكّر في أمر الخالق وعلوِّ شأنه وحياته ووجوده وأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وأفعاله. وهكذا فالتحقيق في هذه المسائل سُمّي بالفلسفة الإسلاميّة.

- إيمان: عذراً على المقاطعة يا سيِّد ماهر... هل يمكنك الاستدلال على ما ذكرت من أنّ الدين الإسلاميّ دعا إلى التفكّر في ذلك؟.

- السيِّد ماهر: كثيرة جِدًّاً هي الآيات التي دعا فيها القرآنُ الكريمُ إلى التفكُّر يا إيمان. ففي القرآن يوجد ﴿أَفَلَا

تَتَفَكَّرُونَ﴾[1] ونظائره بكثرة. تأمَّلي قوله ـ تعالى ـ : ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[2] ومن التفكير في السماوات والأرض إلى التفكير في النفس: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾[3]. وحتى التفكير في خلق الإبل أيضاً، لم يهمله الكتاب المجيد: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾[4].

- إيمان: فعلاً. هناك تركيز واضح على ضرورة التفكُّر.

- السيِّد ماهر: وأمّا الإله وشؤونه، فذكرُهما كثيرٌ. تأمَّلا قوله ـ تعالى ـ : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[5]، ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾[6]، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾[7]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾[8]، ﴿يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[9].

- إيمان: واضح. إذن سبب تسميتنا الفلسفةَ لدى المسلمين بالفلسفة الإسلاميَّة إنّها تحقّق في المعارف نفسها التي دعا الدين الإسلاميّ إلى التحقيق فيها.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.
(٣) سورة الروم، الآية: ٨.
(٤) سورة الغاشية، الآية: ١٧.
(٥) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٦) سورة الحديد، الآية: ١٣١.
(٧) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٨) سورة الحديد، الآية: ٤.
(٩) سورة يس، الآية: ٢٨.

- أحسنتِ. هذا أحد الأسباب، قال السيِّد ماهر.

- وهل من أسباب أخرى؟، سأله يقظان.

- السيِّد ماهر: بلى. هنالك معارف تُسمَّى بـ **أصول الدين**. ومن هذه الأصول التوحيد، فهو الأصل الأهمّ والأساس الذي يستند الدين بسائر تشريعاته عليه. ومن تلك الأصول كذلك المعاد، فالاعتقاد باليوم الآخر مفهوم دينيٌّ يحتلّ مرتبة الأساس في المنظومة الدينيّة لدى المسلمين، لدرجة أنّ عدم الاعتقاد بالمعاد يُخرج المسلمَ من إسلامه وإن كان معتقداً بالتوحيد.

- إيمان: هذا صحيح.

- أضاف السيِّد ماهر: الفلسفة الإسلاميّة تحقّق في هذين الأصلين، فهي تُثبت التوحيد بأسلوب مُحْكَمٍ جِدّاً وتُثبت الحياة بعد الموت كذلك.

- يقظان: إذن، النقطة الثالثة من النقاط الأربع التي ذكرتَها، سيِّد ماهر، تنطبق أيضاً على موضوعنا.

- نعم، ردّ السيِّد ماهر واستطرد: ليس هذا فحسب، بل و النقطة الرابعة أيضاً تنطبق هنا.

- إيمان: كيف؟.

- السيِّد ماهر: لاحظتما التركيز الشديد على التفكير في شؤون الخلق في الآيات المارّة. لو لم يكن التفكير وسيلةً لبلوغ الحقيقة، لكان التركيزُ عليه وشِدَّةُ الحثِّ على

ممارسته بلا معنى. وسوف تكتشفان في الدروس القادمة أنَّ هناك طرازاً واحداً من التفكير يتعهَّد بإيصالنا إلى النتائج الواقعيَّة.

- يقظان: ما هو هذا الطراز من التفكير؟.

- السيِّد ماهر: إنَّه التفكير الذي يستند على البدهيَّات.

- إيمان: وما علاقة التفكير الذي يستند على البدهيَّات بالفلسفة؟.

- السيِّد ماهر: الفلسفة تحقّق في مواضيعها بالاستناد على البدهيّات.

- إيمان (مستفهمة): تقصد أوّلاً: إنّ أحد أسباب إطلاق الفلسفة الإسلاميّة على الفلسفة الموجودة لدى المسلمين هو أنّها تتبنى وسيلتها الخاصّة وأسلوبها الأمثل للوصول إلى الحقائق لأنّ الدين يريد أيضاً من الإنسان سلوك منهج في التفكير يوصله إلى اليقين. ثانياً: هذه الوسيلة وذلك الأسلوب الأمثل للوصول إلى الحقائق هو الاستناد على البدهيّات. هل هذا الفهم صحيح ياسيِّد ماهر؟.

- السيِّد ماهر: إنّه صحيح تماماً يا إيمان، وأشكرك على دقتك وتركيزك.

- شكراً، ردَّت إيمان بفرحٍ شديدٍ.

- سحب السيِّد ماهر كرسيّاً وجلس عليه، ثم قال: لا شكَّ أنّكما سمعتما شيئا عن الزخرفة الإسلاميّة. في الواقع، لم

يتحدث القرآن عن الزخرفة، ولم يدعُ أتباعه إلى منهج معيّن في صياغته. والمسلمون الأوائل لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الزخرفة على الإطلاق. إن دخول الفرس والترك والروم والهنود في المجتمعات الإسلاميّة أبان النصف الثاني من زمن الدولة الأموية، وسريان الثقافات المختلفة في المجتمع المسلم، فضلا عن إطلاع المسلمين على نمط حياة المجتمعات التي فتحوا بلدانها، أسهم في تعلّمهم العديد من الفنون، ومنها فن الزخرفة.

- إذن من أين جاءت هذه التسمية؟، سأله يقظان متعجّباً.

- السيِّد ماهر: تسمية «الزخرفة الإسلاميّة»؟... لقد جاءت من خلال إدخال الحكّام الأمويّين فنَّ الزخرفة إلى المساجد بعد عملها في قصورهم. هكذا نشأ ما يسمّى الآن بـ «الزخرفة الإسلاميّة»، وهو ممّا لا يمتُّ بصلة إلى أصول التفكير الدينيِّ الإسلاميِّ.

- ولكن بصراحة... إنّه فنّ رائع جِدّاً وبديعٌ ياسيِّد ماهر، قال يقظان مبتسماً.

- إنني أحبه أيضاً يا يقظان، قال السيِّد ماهر.

- إيمان: لا تنسَ يا يقظان أنّنا ننكر فقط نسبته إلى الفكر الدينيِّ الإسلاميِّ.

- يقظان: نعم..نعم.

- السيِّد ماهر: وُلد التفكير الفلسفيُّ عند المسلمين قبل ١٤

قرناً، وهذا العمر هو نفس عمر الحياة العقليَّة عند المسلمين. الواقع أنَّ العربَ لم يعرفوا التفكيرَ العقليَّ قبل الإسلام أبداً. وعندما بزغ الإسلامُ، الذي حثَّت تعاليمُه على التفكير في أكثر من ٣٠٠ آية، طالبَ الناسَ بالاعتقاد وفقاً للحججِ العقليَّة فقط، ورفضَ التقليدَ وعدم التحرِّيَ العلميَّ رفضاً قاطعاً، فتأثَّرَ المسلمون بهذه التعاليم، وبدأت الحياةُ العقليّةُ بالولادةِ والنشوءِ عندهم مع ولادةِ التعاليم الدينيَّةِ. ولأنَّ الحياةَ العقليّةَ تعني الحياةَ الفلسفيّةَ ـ على أَساسِ أنَّ التحقيقَ الفلسفيَّ يستند على البدهيّات ويريد لنتائجه اليقينَ من هذا الطريق، والعقل ما هو إلا أداة لبلوغ الحقيقة فالحياتان العقليّة والفلسفيّة مآلها واحد ـ لا ثمّة جدوى من محاولة التفكيك بين الحياة الدينية التي عاشها المسلمون وبين حياتهم الفلسفيّة. وكما علمتما فإن الجسر الرابط بين الحياتين هو العقل والتفكير العقليّ، حيث إنّ كلتا الحياتين ـ الدينية والفلسفية ـ تتغذّيان على العقل ومن وعائه تشربان، وبالتالي هما معاً تحييان بالحياة العقليّة.

مارس المسلمون التفكير العقليّ، وحاولوا الاستدلال على العديد من الأفكار الدينيّة، ومارسوا الترجمة والتأليف، وقاموا بتطوير علم الفلسفة تطويراً كبيراً جداً من ناحية الكمّ والكيف.

ـ يقظان: ولكنّني سمعت أن الفلسفة الإسلاميّة ما هي إلاّ

إعادة صياغة للفلسفة اليونانية بشكل يتناسب مع التفكير الإسلاميّ، هل هذا صحيح؟.

- السيِّد ماهر: ليس الأمر كذلك يا يقظانُ وإن كان البعض يحبُّ أن يدَّعيَ ذلك. لقد وصلت إلى المسلمين قرابة ٢٠٠ فقط من المسائل الفلسفيّة في التراث اليونانيِّ. ولكنّ تحقيقات المسلمين أنفسهم أضافت ٥٠٠ مسألة أخرى لا يوجد لها أثر في التراث اليونانيِّ، ليبلغ مجموع المسائل في الفلسفة الإسلاميَّة ٧٠٠ مسألة فلسفية. فهل يجوز أن يُقال، بعد ذلك، أنّ الفلسفةَ الإسلاميَّة تكرارٌ للفلسفة اليونانيَّة؟

- كلا، لا يجوز ذلك إطلاقاً، ردَّ يقظانُ مندهشاً.

- وحتى المسائل الـ ٢٠٠ التي وصلت إلى المسلمين من اليونان... لم يتركها المسلمون كما هي. بل طوَّروها وغيّروا في تركيبتها البرهانيَّة، وبذلك قد أوصلوها إلى مرحلة التكامل. أذكر من تلك المسائل مسألة امتناع تسلسل العلل إلى ما لانهاية. هذه المسألة تعرَّضت لتطوُّرٍ كبيرٍ عند المسلمين. بل إنَّ التراثَ اليونانيَّ حمل استدلالاً واحداً فقط على امتناع التسلسل، أمّا المسلمون فقد أضافوا على استدلال اليونان الوحيد ١٠ استدلالاتٍ أخرى رائعةٍ. ونفس الأمر ينطبق على مسألة تجرد النفس، وإثبات واجب الوجود، وتوحيده، وامتناع صدور الكثير عن الواحد، واتحاد العاقل والمعقول، وغير ذلك.

- لم أسمع من قبل عن هذه العناوين يا سيِّد ماهر، قالت

إيمان مستغربة.

- سوف تتعرّفان إليها عما قريب إن شاء الله ـ تعالى ـ . لقد وصل إلى المسلمين من التراث اليونانيِّ برهانٌ واحد فقط على إثبات وجود الله ـ تعالى ـ ، وهو برهان المحرِّك الأوَّل. وعندما حقّقت فيه الفلسفةُ الإسلاميَّة، وجدته عاجزاً عن إثبات موضوعه، لأنّ مفهوم الحركة عند أرسطو لم يكن صحيحاً، فكان برهانه ضعيفاً يعجز عن الاستدلال. فما كان من الفلسفة الإسلاميَّة إلاّ أنْ طوَّرته، إذْ غيَّرت مفهومَ الحركة من الانتقال الدفعيِّ إلى الخروج التدريجيِّ. وفضلاً عن ذلك، فقد عرضت الفلسفةُ الإسلاميَّةُ عشراتِ الأدلَّة على وجود الله ـ تعالى ـ ، كلُّها أمتنُ من برهان الحركة. أمّا في موضوع تجرُّد النفس عن المادة، فلم يصل من التراث اليونانيِّ شيءٌ يُذكر في هذا الجانب المهمّ على الإطلاق. الفلسفة الإسلاميَّة هي التي أوجدت هذه المسألة وحقّقتها وبرهنت على وجود النفس وتجرُّدها. أما تحقيقات الفلسفة الإسلاميَّة في الوجود، وإثبات أصالته، ووحدته، والوجود الذهنيّ، وسبب احتياج الموجود إلى علَّة، وأقسام الحدوث، والحركة الجوهريَّة، وقاعدة بسط الحقيقة، والبعد الرابع، وغيرها من المسائل العديدة ممّا لم يكن له أثر في التراث اليونانيِّ على الإطلاق... أقول كلُّ تلكم التحقيقاتِ من قِبَلِ الفلسفة الإسلاميَّة تدلُّ على استقلال الحياة العقليَّة في الإسلام عن اليونان استقلالاً تامَّاً. كم هو مؤسف أن يزعمَ البعض،

عن عدم تحقيق ولا اطّلاع، أنّ الفلسفة الإسلاميَّة ما هي إلا تراث يونانيٌّ في شكل مستحدث يتوافق مع الدين الإسلاميّ، قال السيِّد ماهر متألّماً.

- فعلاً. إنَّه ظلم فادح أن لا يعرفَ العالمُ عظمةَ الفلسفة الإسلاميّة، ردّت إيمان.

ـ ٢ ـ

الرؤية الكونيَّة

ـ لن يعرفَ الباحثُ اتِّجاهات الفلسفة الإسلاميّة وأنماطَها ما لم يفهم تعاليمَ القرآنِ الكريمِ المتعلِّقةَ بمعرفة الله ـ تعالى ـ وعالِم الغيب. إن الذين نَشأت الفلسفةُ الإسلاميَّة في حجورهم هم مسلمون. وهؤلاءِ تأثّروا بتوجيهات كتابهم المجيد، وأشربت تعليماتُه في أرواحهم. فليس صحيحاً إذن إرجاعُ ميولهم الفكريّةِ ونزعاتِهم دائماً إلى أصول أجنبيّة من إغريقيّة وهندوسيّة وفارسيّة وغيرها. إن هذه الثقافات وصلت العالم الإسلامي بكثافة في عهد الحاكم العباسيّ المأمون، ولكنّ المسلمين كانوا قد مارسوا التفكير العقليّ والبحث في شؤون الخلق والخالق قبل ذلك بكثير. لست أنكر تأثّرهم بتلك الثقافات بعد ترجمتها إلى العربيّة، ولكنّ منطلق التفكير لا يمكن أن يكون هذه المعارفَ الأجنبيّةَ. إنّ كتاباً يعدّه المسلمون دستورهم، يعكفون على دراسة آياته وفهم تعاليمه وحفظه، يدعوهم في أكثر من ٣٠٠ آية كريمة منه إلى التفكير، والبحث، والتحرِّي، والتحقّق في شتى المسائل لاسيما الألوهيّة،

ويمنعهم أشدَّ منع من أن يعتقدوا أمراً عن غير دليل أو برهان، أفلا يكون لهذا الكتاب أيّ توجيه ولا تأثير على اتباعه، حتى تأتي ثقافات أجنبية مترجمة بعد أكثر من قرن فتؤثر فيهم وتدعوهم إلى التفكير والبحث العقليّ؟، تساءل السيِّد ماهر مستغرباً.

- لا يمكن قبول ذلك، ردّ يقظان.

- إيمان: تفضّلت يا سيِّد ماهر وقلت إن الذين يذهبون إلى هذا الرأي ربما لم يطّلعوا على توجيهات القرآن الكريم في هذا المنحى. هلّا أسمعتنا بعض الآيات التي ترفض الاعتقاد بشيء عن غير دليل؟.

- السيِّد ماهر: تأمّلي هذه الآية ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[1]، وتأمّلي قوله ـ تعالى ـ ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[2]. وتأمّلي: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[3].

- إيمان: واضح جدّاً يا سيِّد ماهر. تفضّل أكملْ حديثَك.

- السيِّد ماهر: شكراً. عرض كتابُ المسلمين المجيدُ طرقاً ثلاثة للمعرفة؛ طريقَ الأدواتِ الحسِّيَّة، وطريقَ البحثِ

---

(1) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.
(2) سورة المائدة، الآية: ١٠٤.
(3) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

العقليّ، وطريقَ القلبِ والعِرْفَان. على إثر ذلك، تكوّنت بين المسلمين ثلاث طبقات من العلماء في طلب المعرفة والظفر بها؛ فطبقة انتهجت منهج الحسِّ، وطبقة انتهجت منهج البراهين العقليّة، وطبقة سعت إلى بلوغ طريق العِرْفَان.

بالطبع، كما سيمرّ عليكما لاحقاً، ليس للحسِّ وحدَه مستقلاً عن العقل، إمكانية بلوغ أدنى معرفة مهما تضاءلت. ولكنّ المقصود من المنهج الحسيّ عند الفلاسفة المسلمين هو الاستناد على المعطيات الحسيّة، كما أنّ المقصود عندهم من المنهج العقليّ هو اعتماد الدليل العقليّ دون الاستناد على المعطيات الحسيّة.

- يقظان: وهل كلّ هذه الطرق تُنتج معرفةً يقينيّةً؟.

- السيِّد ماهر: المعرفة عبر المسلك العرفانيّ أقوى وأشدّ، بينما تأتي المعرفة العقليّة الخالصة في المقام الثانيّ. ستعرفان كلّ ذلك في المسائل القادمة.

- إيمان (مبتسمة): ننتظرها إذن بفارغ الصبر.

- السيِّد ماهر: المهمّ هنا أن نعرف أنّه كان لكل مسلك رجاله وعلماؤه، حقّقوا إنجازاتٍ عظيمةً أثّرت بعضها في الحضارة الإسلاميّة تأثيراً بليغاً، وجعلتها تتقدّم إلى الأمام أشواطاً. فمثلاً، يُعدّ الكنديّ، والفارابيّ، وابن سينا، ونصير الدين الطوسيّ، وابن رشدٍ، من كبار رموز

الاتجاه العقليّ. وهذا لا يعني أنّهم لم يكونوا يعترفون بوجود الاتّجاه العرفانيّ، أو كانوا لا يرونه مسلكاً إلى المعرفة. غاية ما في الأمر أنّ هؤلاء الرجالَ عكفوا على طلب الحقيقة عبر البحث العقليّ فحسب. وفي المقابل، فإنّ من أشهر رموز الاتجاه الثاني - أعني الاتجاهَ القلبيّ أو العرفانيّ - إخوانَ الصفا، وابنَ عربيٍّ، وحيدراً الآمليّ.

....

وحتّى نعطيَ تاريخَ الفلسفةِ والحياة العقليّة عند المسلمين حقّه، يجدر بنا هنا أن نُشيرَ إلى مشكلة حدثت بين رِجال المسلك العرفانيّ وأتباعِ المنهجِ العقليّ.

- إيمان: وما هي تلك المشكلة؟.

- المشكلة كانت طغيانَ المسلك العقليّ - الفلسفيّ على المسلك العرفانيّ - القلبيّ.

؟!؟!؟!

أضاف السيِّد ماهر: إنّني أستطيع أن أرى علامات الإستفهام والتعجّب وأقرأ الدهشة في وجهيكما، وهذا متوقّع. دعاني أُكمل:

إنّ تقسيم مسالك المعرفة إلى عقليّ - فلسفيّ وعِرفانِيّ - قلبيّ تقسيم منطقيٌّ، نظريٌّ، ولا يمنع أتباع أحد المسلكين من سلوك المسلك الآخر. بل إنّ المسألة على العكس تماماً، فالعلاقة بين المسلكين علاقة تكامل، ولا يمكن

الوصول إلى تمام المعرفة بالاكتفاء بأحد المسلكين دون دمج الآخر معه.

- يقظان: أعتقد أنّني فهمت مشكلة طغيانِ المسلكِ العقليّ - الفلسفيّ على المسلك العرفانيّ - القلبيّ. فبدلاً من مزجهما ودمجهما ببعضهما، إكتفى رجال المسلكِ العقليّ - الفلسفيّ بالنظر والبرهان والاستدلال العقليّ عن السلوك العرفانيّ - القلبيّ. هل هذا صحيح.

- أحسنت يا يقظان. إنّه صحيح تماماً. لقد وفّرت علي الكثير كُنت سأقوله.

- إيمان (متفكّهةً): يبدو أنّ أخي قد أصبح فيلسوفاً...

ضَحِك الجميع، ثمّ تابع السيّد ماهر:

- الثابت تاريخاً أنّ طلاب التحصيل العلميّ قد هجروا المسلك العرفانِيّ - القلبيّ للشهرة التي حظي بها التفكير الفلسفيّ فأضحى المنهجَ الأوحدَ والأفضلَ لبلوغ الحقائق الدينيّة.

هذه المشكلة ارتدّت نكسةً في تاريخ المعرفة والفلسفة.

- إيمان: إلى هذا الحدّ؟

- السيّد ماهر: كانت هناك ردّةُ فعلٍ معاكسةٌ من أتباع المسلك العِرفانيّ - القلبيّ تجاه رِجال المسلك العقلي - الفلسفيّ تمثّل في انزعاج شديد تحوّل لاحقاً إلى عداءٍ بين رموز الجانبين.

أمّا النكسة الحقّة فتجسّدت في نفور أتباع المسلك العِرفانيّ ـ القلبيّ من ذات المسلك العقلي ـ الفلسفيّ، لا من رجالاته ورموزه فقط، ما أدّى إلى اتّساع الهوّة بين الطرفين.

- إيمان: إنّها حقّاً كارثة....

- كانت كارثة وكانت ستستفحل لولا أن رحمنا الله ـ تعالى ـ فوقانا شرّها....

- يقظان: هناك إذن أخبار سارّة؟، أكمل ياسيِّد ماهر أرجوك.

- نعم يا يقظان. نشأ اتجاه ثالث توسّط في إزالة الهوّة السابقة الذكر وذلك بدمج المسالك الثلاثة للمعرفة في بوتقة واحدة. فظهر هذا الدمج في أشكاله السطحيّة والأولى لدى الفارابي بادئ الأمر، ثم تلته في ابن سينا. وبالرغم من أن ابن سينا كان رجلاً عقليّاً جدّاً، إلاّ أنّه أشار في طيات بحوثه إلى وجود حكمة عليا، فوق الأسلوب البرهانيّ والتحقيق الفلسفيّ. بل إنّه تمنّى أن يكتب في الحكمة العليا شيئاً، لكنّ أمنيته لم تشهد النور.

يمكننا أن نعدّ ابن تركة واحداً ممن حاولوا الجمع بين الاتجاهين، وإزالة الفوارق بينهما، في كتابه «**تمهيد القواعد**». وأتى من بعده شيخ الإشراق شهاب الدين السهرورديّ، فأسَّسَ حكمةَ الإشراق، التي مارس فيها محاولات الجمع بصورة أدقّ وأوسع ممّا فعله ابن تركة. ومن بعد السهروردي ظهر محمد بن باقر الداماد ـ

المؤسس الحقيقي لمدرسة أصفهان الفلسفيّة ـ الذي قام بذات العمل أيضاً، ثمّ أخيراً انتهى المطاف إلى محمد بن إبراهيم الشيرازيّ، المعروف بصدر المتألهين، الذي تمكّن من إنشاء الحكمة المتعالية التي تجمع بين التفكير العقليّ الفلسفيّ والشهود القلبي العرفاني، وآيات القرآن وتعليمات الأولياء. تعد محاولة صدر المتألهين هي الأنضج، وسوف تطّلعان عن قريب إن شاء الله ـ تعالى ـ على إنجازاتها.

- إيمان: ما أروعَ أن تكون هناك حكمة بهذه الأوصاف، حقاً ستكون حكمة متعالية.

- إن هذه المناحيَ الثلاثةَ في طلب المعرفة أوجدت أنماطاً من الرؤى الكونية.

- إيمان: ما معنى «رؤية كونية»؟.

- الرؤية الكونية تطلق على نظرتنا إلى الكون من جهة المبدأ والغاية والمنتهى؛ من أين جاء الكون، ولماذا جاء، وإلى أين يذهب. هناك الرؤية الجغرافيّة للأرض، وهناك الرؤية الفيزيائيّة، ولكن أيّاً منها لا تتحدث عن جهة منشأ الكون ومآله الأخير. عندما تتكون عندنا فكرة عن هذا الموضوع، تصبح لدينا رؤية كونية.

- إيمان: فهمتُ.

- السيِّد ماهر: هناك أيضاً الرؤية الفلسفيّة عن الكون، التي تنهج منهج البحث العقليّ الصرف في الوجود، وهناك

الرؤية العرفانية عن الكون، وهي التي تنهج منهج التطهير الباطنيّ والطهارة القلبيّة، بالرياضات والمجاهدات. وهناك الرؤية الدينيّة عن الكون، التي تستند على بيانات الدين فحسب، وهنالك الرؤية المتعالية، وهي الجامعة بين هذه الاتجاهات جميعها.

- يقظان: وفقاً لما مرّ علينا، يجب أن تكون الرؤية المتعالية الجامعة هي الأنضج.

- نعم، لكنّ الريادة هي للعقل في تأسيس الحكمة المتعالية.

- إيمان: ولماذا؟.

- العرفان هو مشاهدة الحقائق مشاهدة شخصيّة. فلو أنّ عارفاً طرح عليكِ ـ يا إيمان ـ رأيَه حول مصدر الوجود، فهل ستقتنعين في رأيه لأنّه يقول إنّه استقى هذا الرأي من مشاهداته العرفانيّة؟

- سكتت إيمان ثم قالت مترددة: كلا.

- السيِّد ماهر: سوف تطالبينه بالبرهان، أليس كذلك؟

- بلى، قالت إيمان وقد عادت الثقة إلى صوتها.

- إذن، فالعارف أيضاً مطالب بتقديم أدلّة وبراهين على مشاهداته العرفانية.

- إيمان: فهمت الآن.

- يقظان: وماذا عن التعليمات الدينية؟.

- السيِّد ماهر: إنّها تلعب دور الإرشاد والتنبيه والتوجيه يا يقظان.

- يقظان: فقط؟.

- السيِّد ماهر: في المرحلة الأولى، علينا إثبات وجود الله - تعالى - ، هذا قبل الاعتقاد بالنبوّة. وبالتالي ليس صحيحا أن نستند على التعليمات الدينية لأجل إثبات وجود الله - تعالى - .

- يقظان: صحيح، لقد وضح الأمر.

- السيِّد ماهر: نحن في حاجة إلى الأدلة العقليّة أيضاً لإثبات ضرورة الوحي وظاهرة النبوّة. وبعد ذلك تصبح التعليمات الدينيّة لِما تبقّى من المسائل الكونيّة نافعة جداً، وتلعب دور توجيهنا إلى الوجهة الصحيحة.

ولكن أعود لأكرّر: يلزمنا دائماً تقديم الأدلة العقليّة.

- إيمان: واضح جدّاً.

- السيِّد ماهر: لنرجعْ إلى ما كنّا فيه. الاتجاهات الثلاثة في الفلسفة الإسلاميّة مارست جميعها دوراً ريادياً في تقدّم الفلسفة الإسلاميّة. الكلّ ساهم مساهمةً فعّالةً في دفعها إلى الأمام. علينا أن لا نبخس حق الأوائل في دورهم الرياديّ. ولكن لأن دروسنا هذه محدودة جدّاً، فلن نستطيع التحدّث عنهم جميعاً. سنذكر أشهرهم على الإطلاق، لأنّ «عالم صوفي» مع شديد الأسف، لم يفعل ذلك. ولنبدأ بأوّل رائدٍ في هذا الميدان.

قام السيد ماهر بإعطاء ورقة لكلٍّ من إيمان ويقظان، سجّل فيها موجز ما مر:

- √ أطلق على الفلسفة لدى المسلمين «الفلسفة الإسلاميّة» لأنّها تحقّق في المسائل التي يستند عليها الدين الإسلاميّ برمته من قبيل الوجود الإلهيّ وتوحيده وصفاته وأفعاله.
- √ ولأنّها، أيضاً، تحقّق في المسائل التي دعا الدين إلى الاعتقاد بها طبقاً للبرهان.
- √ ولأنّ الأسلوب المتّبع فيها، وهو المستند على البدهيّات، يضمن سلامة النتائج وواقعيّتها، وهذا المنهج بعينه هو الذي دعا الدين الإسلاميّ إلى انتهاجه عند التحقيق في مثل هذه المسائل.
- √ حركة التفكير في الإلهيّات لدى المسلمين لم تكن ناشئة من تأثير الثقافات المجاورة والمترجمة، وإنما ترجع نشأتها إلى دعوة الكتاب المجيد للتحقيق والبحث العلميّ قبل الاعتقاد.
- √ ليست الفلسفة الإسلاميّة تكراراً وإعادة صياغة للفلسفة اليونانيّة.
- √ من جرّاء دعوة الدين الإسلاميّ إلى البحث العلميّ بالمنهجين العقليّ والعرفانيّ نتجت تيارات بعضها تنتهج الأسلوب العقليّ وبعضها تتمسك بالأسلوب العرفانيّ، وبدأت الهوة بين المنهجين تزداد.
- √ الجمع بين المسلكين العقليّ والعرفانيّ كان نتيجة جهود جبّارة بُذلت تُوّجت بروعة الحكمة المتعالية.

ـ ٣ ـ

الإحاطة التامّة
والأمانة التامّة والالتزام التامّ

- يؤكّد المحققون أنّ الرجل الذي يستحقّ أن يقال عنه أول فيلسوف إسلامي هو يعقوب بن إسحاق الكنديُّ المتوفًّى السنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م، قال السيِّد ماهر.

- يقظان: ولماذا هو وحده دون غيره؟.

- لقد ظهر هذا الرجل النابغة في الفترة العلميّة الثقافيّة العظمى للدولة الإسلاميّة، مرحلة النهم الفكريِّ والجوع العلميّ الثقافي تجاه كلّ ما هو جديد في عالم المعرفة. ففي عهد المأمون العباسيِّ، عاشت الدولة الإسلاميّة مرحلةً انتقاليّةً كبرى على المستوى الفكريِّ والثقافيِّ. لقد أسَّسَ المأمون العام ٨٣٠م بيت الحكمة الذي كان مجمعاً علميّاً يحوي مكتبةً عامّةً ومرصداً فلكيّاً. لقد أنفق المأمون لإنشائه من الأموال ما يعادل ٩٥٠,٠٠٠ دولار أمريكيٍّ.

- في ذلك الزمان.... يا إلهي إنّه مبلغ هائل جداً، قالت إيمان مذهولة.

- يقظان: بل خياليّ.

- بلى. قام المترجمون القابعون في بيت الحكمة بترجمة المؤلّفات الإغريقيّة والهندوسيّة والفارسيّة، من السريانية والفهلويّة والسنسكريتيّة، ما بين العام ٧٥٠م والعام ٩٠٠م. فقام الكنديُّ بتعلُّم كل هذه العلوم، وأتقنها إتقاناً عجيباً، إلى الدرجة التي مكّنته أن يؤلِّف في كلٍّ هذه العلوم على اختلافها، وأن يمارسها عمليّاً. تخيّلا أن الرجل درس ظاهرة المد والجزر وأراد اكتشاف قوانينها، وقوانين الأجسام الساقطة في الهواء، وظاهرة الضوء. في الحقيقة كان أيضاً طبيباً، وفيلسوفاً، ومنجّماً، ورياضيّاً، وفلكيّاً، وطبيعيّاً.

- يقظان: ومع ذلك، فقد أطلقوا عليه «فيلسوف»؟.

- نعم، لأنّه ترجم الكتب الفلسفيّة، وشرحها وبسّط الصعوبات فيها، وهذّب العديد منها. ألّف قرابة ٢٦٥ كتاباً ورسالة؛ منها ٢٢ كتابا في الفلسفة، و١٩ في النجوم، و١٦ في الفلك، و١٧ في الجدال، و١١ في الحساب، و٢٣ في الهندسة، و١٢ في الطبّ، و١٢ في الطبيعيّات، و٧ في الموسيقى، و٥ في النفس، و٥ في المعرفة، و٩ في المنطق. ولم يترك حتى الرؤيا والأحلام، إذ كتب فيها رسالة يشرحها، وألّف في الغذاء والدواء، وكيفيّة صناعة العطور، واختيار الأيام، وجهة القبلة.

- إنه نابغة!!!، قال يقظان مندهشاً جداً.

- إنّه موسوعة!!!، علّقت إيمان مذهولة.

- لقد دفع الرجل بالحضارة الإسلاميّة أشواطاً إلى الأمام. يمتاز بشدّة التزامه الدينيّ، وانتمائه التامّ إلى عقيدته، بالرغم من انغماسه الشديد في العلوم المختلفة. ويمتاز بأمانته ودقّته العجيبة في النقل والترجمة.

- إيمان: ألم تهزّه مختلف هذه العلوم فتغيّر ولو يسيراً في قوّة انتمائه الديني؟.

- نعم لم يهتزّ على الإطلاق. لقد ألّف كتاباً يردّ فيه على الدهريين، والطبيعيين، والثنويّن، والملحدين. كما ألّف في التوحيد، والعدل الإلهيّ، وعرض البراهين على وجود الله ـ تعالى ـ. وألّف أيضاً في شروط استجابة الدعاء، وأن الكون يعبد الله ـ تعالى ـ ويُطيعه. وخالف أرسطو بشدّة، في رسالته التي يُثبت فيها تناهيَ العالم ومحدوديَّته وحاجته إلى مُوجدٍ وصانعٍ.

لعلّه تعرّض لوعكةٍ فكريّة خفيفةٍ؛ يُقال أنّه عكف على تأليف كتابٍ في متناقضات القرآن، ولكنّ الإمام العسكريَّ عليه السلام أقنعه بالرجوع عن ذلك، فرجع فعلاً وأحرق ما كان قد ألّف.

- يقظان: ومن هو الإمام العسكريّ هذا؟.

- الإمام أبو محمّد الحسنُ بن عليٍّ العسكريَّ عليه السلام من أئمة أهل بيت الرسول محمّدٍ صلى الله عليه وآله، ومن أبرز شخصيّات الإسلام في عصره. عاش زمن المعتمد العباسيِّ الذي اضطهده كثيراً. مرقده الشريف في سامرّاء بالعراق كان قد

تعرّض إلى هجوم بالعبوات الناسفة في الثاني والعشرين من الشهر الفائت.

- إيمان: آه..تذكّرت. قام بعضهم بتحطيم قبّة مرقده... كان لذلك صدى كبيرٌ في العالم الإسلاميّ.

- السيّد ماهر: نعم، لقد حطّموا مرقد إنسان لم يختلف أحدٌ على انتسابه إلى رسول الله ﷺ. حتّى إنّ ألدَّ أعدائه كانوا يعظِّمون جلالة قدره وعظم مقامه. يصفه «عبيد الله بن يحيى بن خاقان»، وزير المعتمد العباسيّ، قائلاً: **«ما رأيت ولا عرفت بسُرَّ مَنْ رَأى رجلاً من العلويّة مثل الحسنِ بنِ عليٍّ بنِ محمّدِ بنِ عليٍّ الرضا في هديه وسكونه وعفافه ونبله، وكبرته عند أهل بيته وبني هاشم كافّة، وتقديمهم على ذوي السنِّ منهم والخطر»**[1].

- يقظان: لم يعد لدى هؤلاء الإرهابيِّين التكفيريِّين أدنى احترام لمقدّسات الدين.

- إيمان: يا سيِّد ماهر، لقد جاء على المسلمين زمان أصبحوا أذلّاء مُهانين ومُشرّدين. أراضيهم تُغتصب، بُيوتهم تُهدم، وحتّى مقدّساتهم تتعرّض للإساءة. تذكرون تلك الرسوم الكاريكاتورية البذيئة المسيئة لنبي الإسلام محمّد ﷺ؟.

- تقصدين الرسوم الـ ١٢ التي نشرتها مجلّة Jyllands Posten الدانماركيّة وزميلتها في الجريمة البشعة مجلّة Magazinet

(١) المفيد، محمد بن محمد: الإرشاد ص٣١٨.

النروجيّة. لقد خالفت المجلّتان قوانين احترام المعتقد التي نشرتها الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة، وخالفتا إعلان حقوق الأشخاص المنتمين إلى أقلّيات دينيّة ولُغويّة أيضاً. أعني الأقليّة المسلمة التي تسكن الدانمارك، وإلّا فإنّ الإهانة قد بلغت المليار وربع المليار مسلم على وجه المعمورة.

- يقظان: يا سيِّد ماهر، رُبَّ ضارَّةٍ نافعةٌ. ألا ترى أنَّ هذا الفعل الشنيع قد وحَّد العالم الإسلاميَّ مرّة أخرى وأظهر غيرته على مقدَّساته؟ إنّ المقاطعة التي فرضها المسلمون على المنتجات الدانماركيّة قد أوقعت خسائر فادحة جداً بالاقتصاد الدانماركيّ.

- إيمان: فعلاً، لدرجة أنّ الهلع قد انتاب العديد من الشركات التي كانت تعرض إعلانات تؤكّد فيها عدم انتمائها إلى الدانمارك.

- السيِّد ماهر: إنّ بإمكان المسلمين في الواقع أن يفعلوا شيئا أكبر بكثير من المقاطعة. على أي حال، لنرجع إلى موضوعنا.

- إيمان: لنرجع إليه بهذا السؤال البسيط يا سيِّد ماهر، ممكن؟.

- السيِّد ماهر: بالطبع يا إيمان.

- إيمان: هل كان الكنديُّ من أصحاب الإمام العسكريِّ؟.

- السيِّد ماهر: قيل هكذا. واستدلّوا على ذلك بتوجيه الكنديّ أسئلة إلى الإمام العسكريّ عليه السلام، روى محمّد بنُ يعقوبَ الكلينيُّ واحدةً من تلك الأسئلة في كتابه الكافي.

- إيمان: قلتَ إنّ الكنديَّ قد ردّ على الدهريّين والثنويّين وغيرهم، فمن هم «الدهريّون» و«الثنويّون» يا سيد ماهر؟.

- السيِّد ماهر: الدهريّون فئة تُنكر وجود الله ـ تعالى ـ نظير الطبيعيّين والملحدين. أمّا الثنويّون فإنّهم القائلون بأن للكون مُوجِدين؛ أي جهتين تتحكّمان في وجوده.

- إيمان: لقد أُعْجِبْتُ بهذا الرجل العملاق.

- السيِّد ماهر: إنّه حقّاً عملاق من عمالقة الفكر والفلسفة الإسلاميّين. عربيٌّ من قبيلة كِندة. كان مولده في الكوفة، وسكنه في البصرة، وتحصيله العلمي في بغداد. عاش زهاء ثمانين عاماً. رحمه الله ـ تعالى ـ .

- رحمه الله. كان عِراقياً إذن، قال يقظان متألِّماً.

- السيِّد ماهر: نعم، كان عراقِيّاً بحسب التقسيم الجغرافيِّ الحاليِّ للدول العربية. ولكن كان عربيَّ اللسان، إسلاميَّ الانتماء، عالميَّ الثقافة، موسوعيَّ التفكير، جمِّ التأليف.

- إيمان: ذكرنا العراق. لنبتهل إلى الله ـ تعالى ـ أن يعيدها مزدهرة معطاءً كما كانت.

- السيِّد ماهر: أحسنت يا إيمان. فعلا لنتضرعْ إلى الله ـ تعالى ـ أن يخلِّصها مما تعانيه من محن ومآسيَ.

ـ ٤ ـ

الفيلسوف الصوفيّ

- قلّما يجتمع هذان الوصفان في شخص، بهذه الجملة بدأ السيِّد ماهر حديثه عن الفارابيّ.

- ولِمَ؟، سألته إيمان.

- التصوّف ـ كما تعلمان ـ أسلوب في العيش يميل إلى الزهد والابتعاد عن ملذّات الدنيا. والمتصوِّفة، عادة، ليسوا ممن يميلون إلى البحث الفلسفيّ، هذا إنْ لم يكونوا يكرهونه. التصوُّف في العادة منهج يدعو إلى الزهد، لا كنمط حياة فحسب، وإنّما كوسيلة لإدراك المعارف الإلهيّة أيضاً. إنّهم أناس لا يفضِّلون معرفة الإلهيّات بالبحث الفلسفيّ.

- إيمان: وهل هم محقّون في ذلك؟.

- لست أعتقد بصحّة ذلك، ردّ السيِّد ماهر واستطرد: الزهد أمر عظيم، ولكن ذلك ليس يعني أن نجعل منه الطريق الوحيد الحصريَّ للمعرفة. سوف نأتي لاحقاً على ذكر طرق المعرفة وربما نعود إلى هذا الموضوع من تلك الزاوية مجدداً.

الرائد الثاني في خطّ الفلسفة الإسلاميّة جمع بين التصوف كأسلوب يعيش به، وبين البحث الفلسفيّ كمنهج عقليٍّ يؤمن به. إنّه أبو النصر محمّدُ بنُ محمّدٍ الفارابيُّ، من مدينة فاراب بخراسان، ت٣٣٩هـ/ ٩٥٠م. ريادة الفارابيّ في هذا المنحى ترجع إلى تفوّقه التامّ في فهم التراث الفلسفيّ الإغريقيّ، وشرحه وتبسيطه للعالِم ذلك التراث، لاسيما آراء ونظريات الفيلسوفين الكبيرين أفلاطون وتلميذه أرسطو.

- إيمان: وهل هذا مبرِّرٌ كافٍ لجعل شخص ما رائداً للمنحى بأكمله؟.

- السيِّد ماهر: بلى يا إيمان. لم تتضح فلسفة أرسطو وأستاذه أفلاطون حتى ظهور الفارابيّ. يجب ألا ننسى أن هذين الرجلين كانا يُعَدَّان أعظم فلاسفة العالم، وأوائل الرواد في الخَطّ الفلسفيّ والتفكير العقليّ. وبالتالي فإنَّ الشارح لنظريَّاتهم وآرائهم سيُعَدُّ، جزماً، رائداً أيضاً للمنحى. إن ريادة الفارابيّ في الخطّ الفلسفيّ تفوق عند المحقِّقين ريادة الكنديّ، نظراً إلى سعة فهمه وإحاطته التامَّة بآراءِ أفلاطون وأرسطو. تصوّرا أنّ ابن سينا، ذلك الفيلسوفَ العملاق ذا الذهنيّة الوقّادة ـ كما ستعرفان ذلك عن قريب إن شاء الله ـ تعالى ـ عجز عن فهم كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو رغم أنّه قد قرأه ٤٠ مرة، إلى أن وجد للكتاب شرحاً للفارابيّ.

- يقظان: أكمل حديثك عن الفارابيّ يا سيِّد ماهر. لقد شوّقتني.

- السيِّد ماهر: رحل الفارابيُّ إلى بغداد لتحصيل العلم، فدرس المنطقَ والفلسفةَ. وفي وقت قصير تمكَّن من شرح أشهر أعمال أرسطو حتى غدا معروفاً في العالمين العربيِّ والإسلاميِّ بالشارح الأكبر لآراء كبير حكماء اليونان. أتعب الفارابيُّ نفسه لإزالة ما يبدو من اختلافات بين الحكيمين الكبيرين أفلاطون وأرسطو، إذ كان يعتقد أن العقول الكبيرة لا اختلاف بينها في تشخيص الحقائق، فكيف إذا كانت تلك العقول قد تغذَّت على المعارف الإلهيّة!.
- مذا تعني بـ «تغذَّت على المعارف الإلهيّة»؟، سألته إيمان.
- كان الفارابيُّ يعتقد أنّ مصادر معرفة أفلاطون وأرسطو تنتهي إلى الوحي.
- يقظان (مذهولاً): هل كان يعتقد بنبوَّتهما؟.
- السيِّد ماهر: كلّا، وإنّما كان يعتقد أنهما تلقيا معرفتهما من تراثٍ ينتهي إلى إرث النبوّة والوحي.
- كلام منطقيّ جدّاً، علّق يقظان متأملاً.
- السيِّد ماهر: كان الفارابيُّ فقيراً، يحبُّ حياة التقشّف والزهد. كان يدرسُ على ضوء قنديل لحارس ليليٍّ. وفي شيخوخته، عاش في كنف سيف الدولة الحمدانيِّ، الذي عرف مقامه وأكرمه وأغدق عليه، لكنَّ الفارابيَّ كان يصرف كلَّ ذلك في وجوه الخير، ويكتفي منه بأربعة دراهم لمعاشه.

- إيمان: حقّاً كان زاهداً.

- السيِّد ماهر: بالرغم من شدّة إعجابه بأرسطو وأفلاطون، إلّا احتفظ الفارابي لنفسه بشخصيَّته الفكريَّة المستقلَّة المتَّصلة بعقيدته الإسلاميَّة إلى أبعد الحدود. فأظهر آراءه التي يخالف فيها أرسطو في كلِّ موقعٍ وجد أن عقيدته الدينيَّة لا تتفق ونظريَّات أرسطو. في الواقع، يُعَدُّ الفارابيُّ أوَّلَ من ابتكر برهانَ «واجب الوجود» أو برهان «الواجب والممكن» فأحلّه محلّ برهان «المحرِّك الأوَّل» لأرسطو، وبذلك يكون قد استبدل مصطلح «الواجب» بالقديم، ومصطلح «الممكن» بالحادث. أمّا السبب الذي جعله يبتكر هذا البرهان الجديد، هو أنَّه كان يرى أنَّ الحقَّ - سبحانه وتعالى - يجب أن يُعرف بنفسه لا بغيره، وفقاً لمنطق القرآن القائل بأنّ الله - تعالى - أشدُّ ظهوراً ووجوداً من كلِّ شيءٍ. لقد كانت تهيمن عليه آية ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

- إذن عقيدته الدينيّة كانت تلعب دوراً كبيراً في توجيهه، وهذا هو ما وجدناه عند الكنديِّ أيضاً، قال يقظان.

- صحيح، قال السيِّد ماهر ثمّ أضاف: عرض الفارابيُّ آراءه الفلسفيَّة في كتبه فصوص الحكم، والمدينة الفاضلة، وآراء

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

أهل المدينة الفاضلة. وفي الكتابين اللاحقين بالذات أظهر اعتقاده التامَّ بالنبوَّة، والوحي الإلهيّ، وأن الحياة الاجتماعيّة والحياة السياسيّة والحياة الخُلقِيَّة لا تستقيم إلا بإرشاد النبوّة.

- إيمان: عَجَبٌ حقّاً.

- السيِّد ماهر: ومِمَّ العَجَب يا إيمان؟

- إيمان: العجب أن يظلَّ محتفظاً بآرائه تلك مع انخراطه التامّ في ترجمة وتنقيح فلسفة أرسطو.

- جانب بعضهم الصواب حين قال إنّ مدينته الفاضلة ليست إلّا نموذجا مصغرا لجمهورية أفلاطون، فالواقع إنَّ مدينته الفاضلة نسخةٌ من تعاليم القرآن الكريم والهدي النبويّ الشريف، وإنَّ آراء أهل المدينة الفاضلة مقتبسة كثيراً من تعاليم الدين الإسلاميّ الحنيف، وإنَّ رئيس المدينة الفاضلة ليس إلا شخصَ النبي الكريم ﷺ أو نائبه المتّصل بالوحي الربانيّ.

- يقظان: أعظمْ بالفارابيّ من فيلسوفٍ.

- تأثرت أوروبا به كثيراً، لاسيما فرنسا. فقد ترجمت كتبه بنهم العام ١٦٣٨م، وبرز هناك عدّة فلاسفة ورهبان، متأثّرين بآرائه. يُذكر أنّ الراهب الفيلسوف الفرنسيّ فنسان ده بوفيه (ت١٢٦٤م) كان قد ضمَّ أجزاءً من فلسفة الفارابيّ في صميم أعماله وتأليفاته. في الواقع، لقد اعتمد

المحقّقون فهم الفارابيّ لأرسطو عندما نقلوا عن أرسطو. وأخيراً فإنّ الفارابيَّ هو الذي نقل منطق أرسطو إلى العالم بترجمته وترتيبه له.

تلك كانت نبذة مختصرة عن الرائد الثاني في خطّ الفلسفةِ الإسلاميّةِ.

ترحّم الجميع على الفارابيّ، وبدأ السيِّد ماهر حديثه عن الرائد الثالث في هذا الميدان.

- ٥ -

حُلم الحكمةِ المشرقيَّةِ الكاملةِ

- السيِّد ماهر: لدينا رائدٌ ثالثٌ، ربّما هو أشهر من أيِّ رائدٍ آخرَ، رائدٍ قلَّ نظيره بين أمثاله حقّاً. إنّه الشيخ الرئيس الحسينُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ الحسنِ بنِ سينا، ت٣٧٠هـ/ ٩٧٩م.

- قالت إيمان: سمعنا عنه كثيرا، فهو أشهر من نارٍ على علمٍ.

- يقظان: عادة يصنف في قائمة الأطباء القدامى...

- السيِّد ماهر: لأنه كان طبيباً ماهراً حذِقاً، ولكنّه فيلسوف بالحجم ذاته. وُلد في بخارى من إيران، عهد به والده إلى معلِّم يعلِّمه القرآن والنحو والأدب العربيَّ وهو بعدُ في الخامسة من عمره، ثم حفظ القرآن عن ظهر قلب وهو في العاشرة، وبدأ يُفتي الناس على مذهب أبي حنيفة ولم يبلغ الثانية عشرة. كان ذا عقلية وقّادة إلى أبعد الحدود. تصوّرا إنَّ مُدرِّسَه في المنطق أفاد وتعلَّم منه أكثر مما علمّه هو!!!

لم يعلمْه الطبَّ أحدٌ، ومع ذلك فقد طبقت شهرته الآفاق في الطبِّ، حتّى إنّ الأطباء من شتى المناطق قدموا إليه

يراجعونه لمعرفة المزيد. ألَّف كتابه القانون وهو في السادسة عشرة، فكان الكتاب مرجعاً لطلاب الطبِّ في أوروبا إلى القرن ١٧م.

- ذهن جبار عملاق، علّق يقظان بذهول واستغراب.

- أضاف السيِّد ماهر: عالج سلطان بخارى من مرضه، فقرَّبه إلى بلاط الحكم، وسمح له أن يتردَّد على مكتبته الخاصَّة التي كانت مشحونةً بالكتب النفيسة، فعكف ابن سينا عليها بنهم حتى أحاط بالعديد من العلوم، وكان قد صرَّح في أواخر عمره أنه لم يزدد علماً على علمه في الثامنة عشرة من عمره.

- إيمان: إنّه لمُدهش حقّاً.

- السيِّد ماهر: بالرغم من قوَّته الذهنيَّة الهائلة، عجز عن فهم كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو إلى أن اشترى شرحاً له كتبه الفارابيُّ، وعندما قرأ الشرح فهم مطالب كتاب أرسطو، فسرّ لذلك سروراً كثيراً، وأنفق أموالاً على الفقراء شكراً لله ـ تعالى ـ .

- يقظان: نعم ذكرت لنا ذلك من قبل.

- إيمان: قلت إنّ ابن سينا كان قد قرأ كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو ٤٠ مرة. ولم يفهمْه.

- السيِّد ماهر: ألّف ١٨٠ مؤلفاً، ولم يترك موضوعاً فلسفيّا إلا وأجرى فيه قلمه.

- إنتاج هائل، قال يقظان.

- السيِّد ماهر: حقّاً إنتاج هائل، لاسيَّما إذا عرفنا أنّ ابن سينا عاش زهاء ٥٨ سنة فقط. وفي هذا العمر القصير مارس فنوناً وأعمالاً مختلفةً؛ من علاج، إلى شرح وتأليف، إلى تولّي وزارة، إلى سجين، إلى هارب ولاجئ. كانت حياته صاخبة.

- إيمان: لماذا لقّبوه بـ«الرئيس»؟.

- السيِّد ماهر: «الرئيس» تسمية سياسيّة، ربّما جاءت لمنصب الوزارة التي تسلَّمها في فترة من فترات حياته.

- إيمان: هل جاءت شهرته نتاج سعة ذهنه وقوّته الفكريّة أم لكثرة مؤلّفاته؟.

- السيِّد ماهر: لدوره الكبير في دفع الفلسفة الإسلاميّة إلى الأمام، ولدوره الكبير في دفع شتّى العلوم إلى الأمام شرقاً وغرباً. إنّه مؤسِّس لحضارة، وواضع لبنات عظيمة في جدار التقدُّم البشريِّ. لقد كان للشيخ الرئيس، مع قصر الحياة التي عاشها، دور هائل في تقدُّم العلوم. ولقرونٍ متواصلة، ظلَّ الناس والباحثون وطلّاب العلم ينهلون من تراثه العلميِّ وتراثه الفلسفيِّ. خذ ـ مثلا على ذلك ـ الدور الذي لعبته موسوعته الطبية القانون في تقدم علم الطبِّ في العالم...، ظلَّت أشهر الجامعات في الغرب تتابع تعليم كتابه القانون ضمن مناهجها، حتى العام ١٩٠٩م. وقد عنى الغربيّون بابن سينا عناية كبرى، وتخيّروا موسوعته

الفلسفيّة الشفاء، فأخذوا يترجمونها وقضوا في ذلك زمناً إلى أن أنهوا ترجمتها على مرحلتين؛ مرحلة مبكِّرة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، ومرحلة لاحقة بعدها بنحو مائة سنة. وما أن تُرجم الشفاء، حتى تلقَّفتها الأيدي في مختلف العواصم الأوروبيّة، ونسخت منها عشرات المخطوطات، وكانت لها آثار عميقة في الحركة الفكريّة اللاتينيّة.

- مذهل، قال يقظان.

- السيِّد ماهر: وفي طبيعياته آراء ونظريات أسهمت في النهضة العلميَّة الحديثة. إذ كان لأسلوب ابن سينا في التجربة، مساهمة فعَّالة في وضع الحجر الأساس لبناء المنهج التجريبيِّ الحديث. لقد كانت هيمنته على فرانسيس بيكون (ت١٦٢٦م) واضحةً جدّاً.

- معقول؟، قالت إيمان مندهشة.

- أمَّا دوره وتأثيره الفلسفيُّ فيُعدُّ الأضخمَ والأكبرَ. فقد غذَّى بكتاباته في النفس وعلاقتها بالجسد وحقيقتها وخلودها، وجانبي المعرفة الحسِّية والاشراقيَّة فيها، القضايا التي كانت الفلسفة المدرسيَّة في الغرب في مسيس الحاجة إليها. إن القديس توما الأكويني قد استشهد بالشيخ الرئيس أكثر من ٢٦٠ مرَّة في خلاصته اللاهوتيَّة.

- نعم أذكر أنّك، يا سيِّد ماهر، قد ذكرت هذه الحقيقة عند تلاقينا في المعرض، قالت إيمان مبتسمةً.

- السيِّد ماهر: أمَّا معالجاته في قسم الإلهيَّات وآراءه في الإله وصلتَه بالكائنات ومحاولاتِه التوفيقيَّةَ بين العقل والنقل، فقد شغلت كليَّة «أصول الدين» في باريس ردحاً من الزمن.

- إنّه أعجوبة، ابن سينا هذا، قال يقظان.

- السيِّد ماهر: ما رأيكما إن قلت لكما أنَّ الدكتور محمد عابد الجابريَّ قد عدَّ الشيخَ الرئيسَ أكبرَ مُكَرِّسٍ للفكر الغيبيِّ الظلاميِّ في الإسلام ومُكَرِّساً لمرحلة الجمود والانحطاط؟

- ماذا، صاح يقظان.

- إنَّه اتِّهامٌ باطل وفيه ظلم كبير لرائد الحضارة الإنسانيَّة، ردَّت إيمان واجمةً.

- السيِّد ماهر: ناقد لبناني اسمه «علي حرب» يذهب إلى أنَّ تحاملَ الجابريِّ على ابن سينا ودفاعَه الشديدَ عن ابن رشد لا يعود إلى أنَّ الأوَّل غيرُ عقلانيٍّ والثانيَ عقلانيٌّ. كلا، وإنَّما يعود إلى أنَّ ابنَ سينا ليس عربيَّ الأصل بخلاف ابن رشد.

- إيمان: معقول؟.

- السيِّد ماهر: لستُ أدري يا إيمان. ولكن هناك باحث آخر اسمه «جورج طرابيشي» تناول مشروع الجابري بتحليل عميق ونقد بناء، زيف فيه العديد من أفكاره وأشار إلى كم هائل من الأخطاء المتفشية في مشروعه. ولقد أطلق على

مشروعه النقدي هذا: «نقد نقد العقل العربي». المُهِمُّ، طوَّرَ ابن سينا برهانَ «واجب الوجود»، وكتبه في صيغٍ متعدِّدةٍ، وكتب وحقَّق في العلِّيَّة تحقيقاً أنيقاً جِدَّاً، وصاغَ أدلَّةً جديدةً على استحالة تسلسل العلل إلى ما لا نهاية، أشهرُها برهانُه المعروفُ ببرهانِ «الوسط والطرف». وكتب حول صفات «واجب الوجود»، وكتب في العناية الإلهيَّة، وحقَّق في الزمان والمكان، وبرهن على وجود النفس، وكتب في العشق والسعادة، وأحوال العارفين ومقاماتهم. وكان أمله أن يُؤسِّسَ فلسفةً مشرقيَّةً خاصَّةً بالشرق، لا شائبة غبارٍ فيها من الفلسفات الأخرى. ولكن العمر لم يُسعفه لتحقيق أمنيته، إلّا أنَّه وضع اللبناتِ الأساسَ لمن سيأتي من بعده ليُكمل الخطى وينهي المشوار.

- لا عجبَ بعد ذلك أنْ يُصبحَ ابنُ سينا أشهرَ فلاسفةِ الإسلامِ، قال يقظان.

- السيِّد ماهر: لقد عدَّه صدر المتألِّهين رئيساً للفلاسفة. كما وكان العلّامة الطباطبائيُّ يعتقد أنَّ قدرات ابن سينا الذهنيَّة كانت تفوق قدرات صدر المتألِّهين.

- إيمان: ومن هو العلَّامة الطباطبائِيُّ؟.

- السيِّد ماهر: إنَّه المُدشِّنُ الحقيقيُّ لفلسفة صدر المتألِّهين في العالم، سنأتي على ذكره لاحقاً. رحم الله الشيخ الرئيس ابن سينا.

- رحمه الله. ترحَّمَ عليه كلٌّ من إيمان ويقظان أيضاً.

- ٦ -

اثنان وخمسون رسالةً ورسالةٌ

- السيِّد ماهر: في زمن دولة البويهيِّين، أي في القرن الرابع للهجرة، الموافق للقرن العاشر الميلادي، تأسَّست في مدينة البصرة جمعيَّة فلسفيَّة أسمت نفسها باسم لطيف وهو «إخوان الصفا». كانت الجمعية تتكون من أبي سليمان المقدسيِّ، وأبي الحسن الزنجانيِّ، وأبي أحمد النهرجوريِّ، والعوفيِّ، وزيد بن رفاعة. ولعل لفظ الرسائل للمقدسيِّ.

- يقظان (مبتسماً): جمعيَّة؟ غريب حقاً.

- السيِّد ماهر: نعم جمعيَّة. أَلَّفَ هؤلاءِ الخمسةُ اثنين وخمسين رسالةً، ورسالةً واحِدَةً جامعةً. تُؤَلِّفُ هذهِ الرسائلُ مجموعةً موسوعةً للعلوم الفلسفيَّة، شاعت في العالم العربيِّ في القرن العاشر، ما لبثت أن ذاع صيتها في العالم الإسلاميِّ. وقام العالم الفلكيُّ المعروف بالمجريطيِّ المتوفَّى سنة ١٠٠٨م بإدخالها إلى الأندلس. أطلق إخوان الصفا بياناً لأغراض جمعيَّتهم، تتمثَّل في طلب الحقِّ من

المعرفة بالله ـ تعالى ـ ، على أساس احتقار الدنيا ونبذ بهارجها.

- يقظان: إنَّهم إذن يُصرِّحون عن اتِّجاههم المعرفيِّ. إنَّهم ممن يطلبون المعرفة بالقلب والروح.

- السيِّد ماهر: ما يلفت الانتباه من تعليمات هذه الجمعيَّة فيما يتعلَّق بكتاباتهم حول الإنسان ونفسه أنَّهم يجعلون للكواكب والأفلاك والأبراج تأثيراً هائلاً في شخصيَّة الإنسان، منذ أن كان جنيناً في بطن أمِّه. المُهِمُّ، أنَّ الإنسان إذا كان مولده في برج السعد، لا تلبث نفسه إلّا أن تكتشف حقيقتها، فتحبُّ الرجوع إلى أصلها، فتسلك في مناهج تربية النفس وتطهيرها من أدران الدنيا، حتى تتقوَّى، فترى الصور الروحانيَّة، والملائكة، وتكتشف الحقائق الغيبيَّة، والأسرار المكنونة. وهذه التربية لا مانع أن تكون على منهج أيِّ دين حقيقيٍّ، أو منهج أيِّ فيلسوفٍ ربانيٍّ، ويضربون ـ إخوانَ الصفا ـ للفيلسوف الربانيِّ مثال سقراط.

- يقظان: إذن، هذه الجمعيَّة ليست متعصِّبة لدينٍ دون دينٍ، أو لطريقةٍ دون أخرى.

- السيِّد ماهر: هذه الجمعيَّة ترى أنَّ النبوَّة تنشأ من هذا الطريق أيضاً. المُهِمُّ أنَّ النفس، إن لم تسلك طريق التربية، فإنَّ مصيرها إلى قعر العالم الدنيويِّ، الذي أحبَّته وافتُتِنت به.

- العالم الدنيويّ؟، سألته إيمان باستغراب.

- نعم. كان إخوان الصفا يعتقدون أنَّ جهنَّم ليست غير الدنيا. أما الجنان فهي في السماء، ردَّ السيِّد ماهر واستطرد: يرى إخوان الصفا أنَّ معرفة النفس هو الأساس لكل معرفة، فمن عرف نفسه قَدرَ على معرفة غيره، وإلّا فكيف يستطيع الجري من لا يقوى على المشي؟

- منطقيٌّ، قال يقظان.

- السيِّد ماهر: ركَّزت فلسفة إخوان الصفا على الاتِّفاق الجوهريِّ والتامِّ بين الشريعة والفلسفة، فهم يرون أنَّ غرض الشريعة والفلسفة واحد وهو دعوة الناس إلى التشبُّه بالإله بقدر الإمكان.

- يقظان: رأي عجيب.

- السيِّد ماهر: فعلاً. وبما أنَّ الناس على طبقات مختلفة من جهة القدرة على المعرفة، فإنَّ الأنبياء يضعون المعارف بالنحو الذي تستسيغه جميع الأفهام. فقد عرض الأنبياء الحقائق الأخرويَّة بأسلوب حسيٍّ جدًّاً لإفهام الناس، والفطِنون يدركون ما وراءها من الحقائق. ويرى إخوان الصفا أنَّ ثمة فرقاً كبيراً بين تعليمات المسيح عليه السلام وتعليمات القرآن الكريم. فالمسيح كان يخاطب قوماً ذوي عقول هذَّبتها كثرة الاطلاع على كتب الأنبياء السابقين، بخلاف القرآن الكريم الذي خاطب أهل البوادي ممن لم يرتاضوا بعلم ولا بلغهم وحي.

- كلام عجيب، قال يقظان بذهول.

- السيِّد ماهر: والأعجب منه يا يقظان أن إخوان الصفا كانوا يسوقون شواهد من القرآن الكريم، ومن كلمات كبار الفلاسفة ليستدلُّوا على آرائهم.

- إذن، يمكن تصنيف إخوان الصفا في من حاولوا الدمج بين مصادر المعرفة لبلوغ الحكمة المتعالية، قالت إيمان.

- نعم يمكن عدُّ رسائلهم كمحاولة لأجل ذلك، علَّق السيِّد ماهر.

- يقظان: ولكنَّك يا سيِّد ماهر ذكرت إخوان الصفا في كلامك السابق في القائلين بالمنهج العرفانيِّ.

- السيِّد ماهر: نعم، وذلك لأنَّ المنهج المعتمد عندهم لبلوغ الحقيقة هو الروح والقلب.

- يقظان: فهمت.

- السيِّد ماهر: هذه الجمعيَّة الفلسفيَّة العجيبة شغلت منصباً فريداً في تاريخ الفكر الفلسفيِّ في الإسلام. أستطيع القول إنَّ ما قاموا به كان إنجازاً فريداً للغاية.

- إيمان: ما وجه الفرادة فيه ياسيِّد ماهر؟.

- السيِّد ماهر: لقد أنزلوا المعارف العليا إلى أدنى مستوى. لقد أخرجوا البحث الفلسفيَّ من قوالبه المعقَّدة إلى الشارع الثقافيِّ العامِّ. جعلوه في متناول المثقفين على أنواعهم. بل

وأحسن من هذا هو أنَّهم جعلوا الفلسفة منهجاً تربويّاً يقبل التطبيق العمليّ. لقد تحدَّثوا عن النفس وتربيتها. وأن سعادتها بنبذ الدنيا، وشقوتها بالتقوقع في لذَّاتها المؤقَّتة الزائلة. إن مثل هذا الحديث لم نألفه من قبل بهذا الوضوح لدى كبار الفلاسفة. رحم الله ـ تعالى ـ إخوان الصفا.

طأطأ كلٌّ من إيمان ويقظان رأسيهما وأبديا ترحُّماً على أصحاب الجمعيَّة الفلسفيَّة.

- ٧ -

فلسفة الأنوار

- بعد ابن سينا، ظهر رجل فقيه ومتصوِّف قرَّر أن يدخل ضدّ الفلاسفة في حرب شعواء، اسمه الإمام أبو حامد الغزاليُّ. هذا الرجل ألّف كتاباً كفّر فيه الفلاسفة واتَّهمهم بالمروق من الدين، لاسيَّما شيخ الفلاسفة ورئيسهم، أعني ابن سينا. الكتاب اسمه تهافت الفلاسفة. كان لهذا الكتاب دور مُهِمٌّ جِدَّاً في إيصال التفكير الفلسفيِّ إلى مستوى الاحتضار. الواقع أن شيخ الإسلام الغزاليَّ قد أرقد الفلسفة على فراش الموت، لكنَّها لم تمت. حديثي لن يتناول الغزاليَّ، وإنما سيتناول فيلسوفاً ظهر في سهرورد من إيران، وبعث بالفلسفة هناك، في الوقت الذي كانت تلفظ أنفاسها في الجانب العربيِّ من دول الإسلام.
- ومن هو هذا الفيلسوف؟ سألته إيمان بكلِّ شوق.
- يُدعى شهابَ الدينِ السهرورديَّ، تُوُفِّيَ سنة ١١٩١م مقتولاً في قلعة حلب بسوريا بأمرٍ من صلاح الدين الأيوبيِّ، وذلك في أعقاب حكم الفقهاء عليه بالكفر والخروج من الدين.

- إذن وضع الفكر الفلسفيِّ كان قد بلغ حالة حرجة جدًّاً كما يبدو، قال يقظان.

- السيِّد ماهر: بلى، ولذلك ذكرتُ الغزاليَّ في مستهلٍّ كلامي عن السهرورديِّ.

- نعم فهمت، قال يقظان.

- السيِّد ماهر: ألَّف شهابُ الدين ٤٩ كتاباً بالرغم من صغر سنِّه عندما قُتِل.

- إيمان: كم كان عمره عندما قُتِل؟.

- السيِّد ماهر: ٣٦ سنة.

- يقظان (مستغرباً): لقد قُتل شاباً!.

- السيِّد ماهر: أراد شهاب الدين ـ أو الشيخ المقتول كما يلقبه المحقِّقون، أما أتباع فلسفته فيسمونه بشيخ الإشراق ـ أنْ يُكمل مشوار ابن سينا في بناء منظومة فلسفيَّة خاصَّة تتَّفق مع الميول الذوقيَّة والتجربة الروحيَّة والعرفانيَّة. كانت فلسفته تعرف بفلسفة الأنوار، وكان شهاب الدين قد ضمّنها في كتابه حكمة الإشراق. تدور «حكمة الإشراق» حول أصلٍ واحدٍ أساسيٍّ يحكم هذه الفلسفة تماماً، هو النور. النور الذي هو أظهر شيءٍ في الوجود، وهو ظاهرٌ بذاته مُظهرٌ لغيره.

- وماذا بعد؟، قال يقظان متململاً.

- السيِّد ماهر: ذاتُ الحقِّ - تعالى - نورُ الأنوار، ومنه صدرت الأنوار في شتى أنحاء الوجود فأظهرته. ونفس الإنسان جوهر نوريٌّ، يُشرق على الأشياء فتتحقَّق لها - أي للنفس - المعرفة بها - أي بتلك الأشياء - . وإذا بقي الإنسان بعيداً عن عالم الأنوار فإنَّ نفسه لا تُشرق، بل تبتعد عن عالم الأنوار وتنغمس في ظلمات الجهل، وتبقى حبيسة الأبدان المادية المظلمة.

- يقظان: إذن خطُّ المعرفة عند شيخ الإشراق يبدأ من النفس.

- السيِّد ماهر: بلى. النفس عندما ترتقي إلى عالم الأنوار، تُشرق المعارف الحقيقيَّة في كيانها، فتتلذَّذ وتسعد.

- إيمان: اتِّجاه عرفاني مجدداً.

- السيِّد ماهر: نعم، ما وجدناه عند إخوان الصفا. المُهِمُّ أنَّ شهاب الدين كان قد قسَّم العلماء إلى أقسامٍ ثلاثةٍ: قسمٍ أدرك الحقائق بالإشراق وبرهن عليها بالعقل النظريِّ، وهذا عنده أكمل العلماء فيُسمِّيه شهاب الدين بـ «الحكيم المتألِّه الباحث»، ويصنِّف نفسه في هذه الفئة.

- إيمان: وهل يُعدُّ هذا غروراً منه بذاته؟.

- السيِّد ماهر: كان شهاب الدين قد كتب «حكمة الإشراق» على أنَّها قد بزغت على قلبه من عالم الأنوار. إنَّه يحاول في كتاباته أنْ يُبرهن على مشاهداته العرفانية النورانيَّة.

صحيح أنّه ليس بأيدينا ما يمكن أن يصلح لأن يكون برهاناً على صدق إدعائه، ولكن، وفي الوقت نفسه، لا يمكننا تكذيبه، لاسيَّما ونحن نعلم أنَّ المعرفة الشهوديَّة ممكنة جدَّاً، وأنَّ التربية الروحية والمجاهدات تُوصل الإنسان إلى ذلك المستوى الذي يستطيع به أن يعرف الحقائق بروحه. سيمرُّ عليكما ذلك في درس المعرفة. القسم الثاني من العلماء هم أولئك الذين أدركوا الحقائق النوريَّة بأنفسهم وعبر عامل الإشراق، وتحرَّرت أرواحهم من سجون الأبدان المظلمة، ولكنَّهم عاجزون عن تقديمها بالدليل والبرهان. ويطلق شهاب عليهم «الحكماء المتألِّهين» فحسب، وهم أقل منزلة من النوع الأول. أمَّا النوع الأخير من العلماء فهم المبرهنون والباحثون فحسب، الذين يستطيعون إدراك الحقائق بقوَّة العقل، دون أن يكون لهم إطلاع على الحقائق. هؤلاءِ لم يصلوا إلى النور بعد بالرغم من شدَّة قوَّتهم النظرية وبحثهم. وهم أقلُّ درجةً عن سابقهم، ويطلق شهاب الدين عليهم «الحكماء الباحثين» فحسب.

- يقظان: إذن، الفارابيُّ وابنُ سينا من هذا النوع حسب تقسيم شيخ الإشراق؟.

- السيِّد ماهر: نعم. المُهِمُّ أنَّ السهرورديَّ ظلَّ قويَّاً جدَّاً في الفكر الفلسفيِّ في الإسلام، وأوجد أتباعاً مَشَوْا على دربه وسلكوا مسلكه. ومن أروع حسناته أنَّه سببٌ في نشوء

الفلسفة في فارس، فلقد أرسى عودها هناك، هذا العودَ الذي سرعان ما نما واخضرَّ وأينع ثمارَ الحكمة المتعالية كما سنعرف ذلك بعد قليل إن شاء الله ـ تعالى.

وهنا ترحَّم السيِّد ماهر على شيخ الإشراق مشيراً بذلك إلى انتهاء حديثه عنه.

- ٨ -

مزج شراب الفلسفة بمشروب الدين

- محمد بن أحمد المعروف بابن رشد، يمكننا عدُّه أيضاً رائداً في المنحى الفلسفيِّ لدى المسلمين بعد ابن سينا مباشرة، قال السيِّد ماهر.

- هل وُلد بعده؟، سألته إيمان.

- السيِّد ماهر: كلّا، أعني بعد ابن سينا في الرِيادة. ولد العام ٥٢٠هـ/١١٢٦م، وتُوفِّي العام ٥٩٥هـ/١١٩٨م في قرطبة بالأندلس. كان أبوه وجده قضاة الشريعة في قرطبة، فسلك ابن رشد مسلكهم، وأصبح هو كذلك قاضياً في بلاده، هذا بعد أن درس الفلسفة والطبَّ والفقه وغيرها من العلوم.

- ما الذي جعل من ابن رشد رائداً في المنحى الفلسفيِّ الإسلاميِّ؟، سأله يقظان.

- السيِّد ماهر: هناك من يشكُّ أن يكون ابن رشدٍ فيلسوفاً حقيقيّاً، ويرى هؤلاءِ أنَّه شارح لفلسفة أرسطو، ومدمج للفلسفة بالدين دمجاً عنيفاً. على أي حال، في رأيي إنَّ

الذي يجعل من ابن رشد رمزاً من رموز الفلسفة الإسلاميَّة ليس تصدِّيه قائمة كبار شرَّاح أرسطو. إنَّ ذلك يجعل من ابن رشد فاهماً فهماً كاملاً لآراء أرسطو فحسب، لكنَّ الذي يجعله ضمن رموز الفلسفة الإسلاميَّة هو قيامه بمزج الفلسفة بالدين.

- لكن، ألم يقم بنفس الأمر غيره من الفلاسفة؟، سألته إيمان.

- السيِّد ماهر: كان بقية الفلاسفة يظهرون بجلاء آراءهم الاعتقاديّة التي يختلفون فيها مع نظرائهم من اليونان، كما وإنَّ حجم الاختلاف كان جليَّاً وكله يرجع إلى اختلاف وجهات نظر الدين عن وجهات نظر فلاسفة اليونان الكبار. لكن عند ابن رشد، المساحة تضاءلت.

- يقظان: هل ذلك لأنَّه كان ينتصر لآراء فلاسفة اليونان ويهمل آراء الدين ووجهات نظر الشريعة الإسلاميَّة؟.

- السيِّد ماهر: كلّا. وإنَّما كان ابن رشد يرى عدم وجود التعارض على الإطلاق. لقد كان يفسِّر آيات القرآن الكريم بالنحو الذي يزول معه الفارق بين الآيات وآراء كبار فلاسفة اليونان، لاسيَّما أرسطو.

- فهمت، قالت إيمان.

- السيِّد ماهر: لقد ألَّف كتاباً اسمه فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتِّصال، بذل فيه أقصى ما أمكنه

من مجهود لبيان خلوِّ الفوارق بين الشريعة الإسلاميّة والفلسفة. فمثلاً في موضوع قِدَم العالم الذي قال به أرسطو، وافقه ابن رشد وأكَّد أنَّ العَالم موجود منذ الأزل مع الله ـ تعالى ـ لأنَّه معلوله، وأنَّ والله ـ تعالى ـ متقدِّم على العالم بالذات وليس بالزمان.

ـ ما معنى ذلك؟ سألته إيمان.

ـ السيِّد ماهر: سيأتي شرحه مفصلاً في موضوع العلِّيَّة، ردَّ السيِّد ماهر واستطرد: المُهِمُّ أنَّ ابن رشد استند إلى القرآن ليُؤَكِّد أن الوجود مع الله ـ تعالى ـ على الدوام لأمرٌ محتوم ويعترف الشرع به أيضاً.

ـ أيُّ آية استند عليها؟، سألته إيمان بشغف.

ـ السيِّد ماهر: قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[1]. فبموجب هذه الآية، كان العرش والماء قبل خلق السماوات والأرض.

ـ يقظان: استدلاله صحيح.

ـ السيِّد ماهر: ليس كما ينبغي. فبالرغم من أنَّ العالَم معلول لله ـ تعالى ـ ، إلَّا أنّه حادث. سيأتي بيانه لكما في وقته إن شاء الله ـ تعالى ـ فانتظرا.

ـ يقظان (مبتسماً): نصبر وأمرنا لله ـ تعالى ـ .

---

(١) سورة هود، الآية: ٧.

- السيِّد ماهر: ومن المسائل الشائكة التي كانت تقف في طريق هذا المزج مسألة علم الله - تعالى - بالجزئيات. التراث اليوناني كان ينكر علم الله - تعالى - بالجزئيات، بخلاف القرآن الكريم الذي يؤكِّد إحاطة علمه تعالى بكلِّ شيءٍ. ولكي يحلَّ ابن رشد هذه المعضلة، قسَّم العلم إلى قسمين؛ علمٍ يتكوَّن من خلال معرفة الموجودات، وهذا هو علم البشَر الذي يتغير بتغير الموجودات، وعلم لا يتكوَّن من مشاهدة الموجودات، وإنما الموجودات تأخذ وجودها وفقه، وذاك هو علم الباري - جلّ وعلا - . وعلى هذا، فلا معنى لتلك الشبهة أصلاً.

- إيمان: كلامٌ سديدٌ.

- السيِّد ماهر: والمشكلة الثالثة هي إنكار الفلاسفة القدماء لبعث الأجساد وإعادة المعدوم. ابن رشد هنا يقول إنَّ الفلسفة ليس لها الحق في البتِّ في مثل هذه المواضيع، فمسألة حشر الأجساد ليست بمسألة يبحثها علم الفلسفة. إنَّها من المسائل الدينيَّة.

- إيمان: هل نجح ابن رشد في مساعيه؟.

- السيِّد ماهر: تذكر ان حديثي السابق عن الإمام الغزالي؟.

- إيمان: صاحبِ كتابِ تهافت الفلاسفة؟.

- السيِّد ماهر: نعم، هو ذاك. أحسَّ ابن رشدٍ أن خطراً حقيقيًّا يحدق بالفلسفة، وربما يسقطها كلِّيًّا ويسقط قيمتها

إلى الأبد إن لم يتدارك الموقف فيردَّ على الغزاليِّ.

- وهل ردَّ عليه؟، سألته إيمان.

- السيِّد ماهر: بلى، فقد ألَّف ردّاً على الغزاليِّ أسماه تهافت التهافت.

- عنوان جميل... وهل نجح في الردِّ عليه؟، سأله يقظان.

- السيِّد ماهر: من بين ١٩ إلى ٢٠ شبهةً طرحها الغزاليُّ حول الفلسفة، يمكن القول إنَّ واحدةً منها فقط تُعَدُّ مُهِمَّةً يجب أنْ تُعالج، وهي الشبهة التي تتعلَّق بتناهي أبعاد الزمان. أمَّا ما عدا ذلك فهي شبهات واهية جدَّاً وأظنُّ أنَّ ردود ابن رشد كانت جيِّدة ولكن ليست بمتينةٍ جدَّاً. إنَّ ابن رشد كان شديد التعصُّب لأرسطو، وكان يَعُدُّ مخالفة الفارابيِّ وابنِ سينا لأرسطو ذنباً لا يُغتفر.

- إيمان: تريد القول أنَّ ابن رشد، في دفاعه عن الفلسفة، اضطرَّ إلى الهجوم على ابنِ سينا؟.

- السيِّد ماهر: بلى، هذا ما حدث. لقد ترجم العالم الغربيُّ كتب ابن رشد في القرن الثالث عشر الميلاديِّ، فاكتسب ابن رشد بذلك شهرة هائلة. فلقد سبَّبت ترجمات كتبه في مساجلات كبيرة في بعض دول أوروبا، لاسيما في قلب سوربون الفرنسية. وعموما، كانت هيمنته الفكريَّة قويَّة جِدَّاً على أقطاب الرموز المسيحيَّة الفلسفيَّة هناك، لدرجة أنَّ إرنست رينان قال إنَّ القديس توما الأكويني يدين بكلِّ

شيءٍ تقريباً لابن رشد. وقال بيكون إنَّ ابن رشد صحَّح العديد من أفكار أسلافه من الفلاسفة، وساهم بقدر كبير في إيراد مادَّة جديدة من نفسه. وأجمل ما قرأته عن ابن رشد ما قاله فيه إميل بريبه؛ إنَّ ابن رشد سعى لأن يقول بأن الدين يلقي حجابا على الحقائق لكي تصبح في متناول الناس، لكن معرفة الحقائق هي العبادة التي يؤديها الفيلسوف لله.

- كلام جميل جدًّاً، قال يقظان.

- علَّقت إيمان: أذكر أنَّ مؤلف عالم صوفي، أعني السيد غاردر، اعتبر ابن رشد من أهمِّ فلاسفة الإسلام.

- السيِّد ماهر: هذا هو وصف العبريِّين لابن رشدٍ في الحقيقة. فعند ظهور الأرسطوطاليسية في أوروبا الغربيَّة في القرن الثاني عشر الميلاديِّ، اتَّجهت أنظار العلماء هناك إلى ابنِ رشدٍ باعتباره الشارح الأعظم لأرسطو بلا منازع، سيَّما لدى حكماء اليهود. لقد كان موسى بن ميمون اليهوديُّ وتلميذه يوسف بن يهودا، يُجِلَّان ابنَ رشدٍ غايةَ الإجلال، وقد ترجما كتبه. وعندما نزح اليهود من أوروبا الغربيَّة إلى جهات أخرى في القرن الثالث عشر الميلاديِّ، صحبوا معهم تراث ابن رشد وقد ترجموه إلى لغتهم الأمِّ؛ العبريَّة. لقد عكف موسى بن طبون، ويعقوب بن أباماري، وسمعان أناطولي، وسليمان بن يوسف، وزكريَّا بن إسحاق، ويوسف بن ماخي، يترجمون ابن رشد إلى

العبريَّة، ويكرِّسون الفلسفة الإسلاميَّة في عمق الثقافة العبريَّة وهم لا يشعرون. إنَّ العبريِّين هم بالدرجة الأولى من يرون أنَّ ابنَ رشدٍ هو أعظمُ فلاسفة الإسلام. وعلى أي حال، فهو من أعظمهم بلا شكٌّ. لنترحَّم على فيلسوفنا الشهير.

ـ ٩ ـ

وحدة الوجود والإنسان الكامل

تابع السيِّد ماهر كلامه:

- تُعتبر الاتِّجاهات العرفانية قد بلغت تمام نضجها، ووصلت إلى أقصى درجاتها عند أبي بكرٍ محمَّدِ بنِ عليٍّ، المعروف في العالم كله بابن عربيّ، والملقب بالشيخ الأكبر. تُوفِّي سنة ١٢٤٠م.

- يقظان: فيلسوف قلبيٌّ آخر؟.

- السيِّد ماهر: لن يرضى ابن عربيّ أن تصفه بـ«الفيلسوف» يا يقظان.

- لماذا؟ سأله يقظان ضاحكاً.

- السيِّد ماهر: ابنُ عربيٍّ رجلُ الشهود والذوق بمستوى يتجاوز كلَّ من سبقه في هذا الطريق بمن فيهم السهرورديُّ. ألَّف ٨٤٦ كتاباً كلُّها إمَّا بأمرٍ من الباري ـ تعالى ـ أو أحد أنبيائه، كما يدَّعي ابن عربيٍّ نفسُه.

- يقظان: ٨٤٦ كتاباً؟.

- السيِّد ماهر: وصلتنا منها ٥٥٠ كتاباً.

- وهل ادعاؤه حق؟، سألته إيمان مبتسمة.

- السيِّد ماهر: تعرفين الجواب يا إيمان، فقد ذكرتُه لك عند حديثنا عن شهاب الدين. إلاَّ أنَّ الموضوع مع ابن عربي مختلف، فقد أوصل الرجلُ المسائلَ الذوقيَّةَ والعِرفانية إلى أوجها. منظومةٌ عرفانية متكاملةٌ ضمَّها لنا كتابُه الفتوحات المكِّيَّة وكتابُه فُصوص الحكم.

- إيمان: كيف أمكنه أن يفعل ذلك؟.

- السيِّد ماهر: من خلال عاملين جوهريَّين تستند عليهما تمام نظرياته. الأول هو «وحدة الوجود»، والآخر هو «الإنسان الكامل».

- بيِّنهما لنا يا سيِّد ماهر لطفاً، قالت إيمان مشغوفة.

- يرى ابن عربيٍّ أنَّ الوجود واحد. الوجود كلُّه، من عالَم الدنيا وسائر عوالِم الغيب، واحدٌ بوحدة حقيقيَّة. وهذا الوجود الواحد، ليس بمنأى ولا بمعزل عن الوجود الإلهيِّ، لأنَّه - الوجود الواحد - في الواقع وجوده هو - الوجود الإلهيّ - . أعني أن العالَم ظهورٌ إلهيٌّ لا غير.

- يقظان (مستغرباً): هل يعني ذلك أن محييَ الدينِ ابنَ عربيٍّ يقول بـ«وحدة الوجود العضويَّة»؟.

- إيمان: وما «وحدة الوجود العضويَّة»؟.

- أجابها يقظان: يعني أنَّ كلَّ شيءٍ هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ الأرض، السماء، البحار، الأقمار، كل شيء...

- سألت إيمان متعجِّبةً: أليس هذا كفراً صريحاً بالله ـ تعالى ـ بحسب الشريعة الإسلاميَّة؟.

- ولهذا فقد كفَّر العديد من الفقهاءِ ابنَ عربيٍّ، أجاب السيِّد ماهر واستطرد: أراد ابنُ عربيٍّ أن يمنع قُرَّاءَه أنْ يفهموا من «وحدة الوجود» عنده معناها العضويَّ. كان يقول إنَّ ذاتَ الحقِّ ـ تعالى ـ لها مقامان؛ مقامُ الأحديَّة، ومقامُ الربوبيَّة. فالأوَّل حيث ذات الحق ـ تعالى ـ كما هو، والثاني مقامُ تجلِّيه وظهوره في الأكوان والأشياء. ولكن مع ذلك، فإنَّ العديدَ من كلماته الأخر جعلت جمعاً من قُرَّائه ينسبون إليه «وحدة الوجود العضويَّة». إلاَّ إنَّ هناك من يُبَرِّئوه من هذا القول، ويرى أنَّ فلسفته غامضة جِدَّاً وأنَّها عَصِيَّةٌ على فهم غير المتمرِّسين.

- وما رأيك أنت شخصيّاً ياسيِّد ماهر؟، سألته إيمان مبتسمة.

- لا تُحْرِجي السيِّدَ ماهراً يا إيمان، قال يقظان مُوَجِّهَاً كلامَه بنبرةِ تأنيبٍ إلى إيمان.

- السيِّد ماهر: لا إحراج على الإطلاق. أنا ممن يرون براءةَ ابن عربيٍّ من تهمة القول بـ«وحدة الوجود العضويَّة».

- إيمان: وما مستندك يا سيِّدي؟.

- السيِّد ماهر: إنَّ كبار رجال الفلسفة الإلهيَّة ورموز

العرفان، وحتى أصحاب مشاريع الدمج بين الاتجاهين، لم يُكفِّروا ابن عربيٍّ، ولم يتهموه باعتناق وترويج وحدة الوجود الباطلة. بينما نرى معظمَ من كفَّره لم يكن من رجال البرهان الفلسفيّ ولا الشهود العرفانيّ. عندما كان صدرُ المتألِّهين يستعرض بعض أشهر النظريَّات حول معنى «وحدة الوجود» ويُقَوِّمُها، عرض نظريَّة «وحدة الوجود العضويَّة» ونقدها ثم قال إنَّه لم يرَ هذا الرأيَ أحدٌ من الفلاسفة الإلهيِّين أو العرفانيِّين الكبار. فلو كان ابن عربيٍّ قائلاً بهذه الوِحدة لذكره صدر المتألِّهين ونقده.

- إيمان: يبدو ذلك منطقياً.

- أضاف السيِّد ماهر: ومن جهة أخرى، فإنَّ الأصلين اللذَينِ تقوم عليهما نظريَّة ابن عربي؛ «وحدة الوجود» و«الإنسان الكامل»، كلاهما حتميَّان ولا سبيل إلى نقضهما كما سيأتي.

- قال يقظان مبتسماً: كنَّا ننتظر شيئاً من البيان عن الأصل الثاني يا سيِّد ماهر.

- السيِّد ماهر: أصل «الإنسان الكامل»... حسناً.

وإذا كان الحق ـ تعالى ـ قد أوجد العالَم إظهاراً ذاته المقدَّسة، فإنّه ـ تعالى ـ سيتجلَّى في أعظمَ تجلٍّ وظهورٍ إلهيٍّ، لا أقلَّ. أتتَّفقانِ؟

- نعم، فعقلاً يجب أن لا يكون التجلِّي بأقلَّ من الأفضل، ردَّ يقظان وإيمان.

- السيِّد ماهر: وحيث إنَّ الإنسان الكامل هو خليفة الله - تعالى - في الأكوان، وهو أحب المظاهر لذات الحق إلى الحقِّ وفيه تتجلى سائر الأسماء الإلهيَّة الحُسنى، فإنَّ أتَمَّ مظهرٍ تجلَّت فيه الذات المقدَّسة هو مظهر الإنسان الكامل. عليه نقول: ذاتُ الحق - تعالى - محبٌّ لمظهره التامِّ (الإنسان الكامل) كما إنَّ المظهرَ التامَّ مدركٌ لذات الحق - تعالى - من خلال ظهوره فيه.

وأخيراً: حيث إنَّ أعظمَ البشرِ هم الأنبياء عليهم السلام، وأعظمَهم على الإطلاق هو خاتم الأنبياء محمَّد ﷺ، فإنَّ محمَّداً ﷺ مجسِّداً وممثِّلاً الإنسانَ الكاملَ هو أعظمُ تَجَلٍّ وأعظمُ مَظْهَرٍ لذات الحقِّ - تبارك وتعالى - .

- يا إلهي... إنَّه كلامٌ جِدُّ خطيرٍ، قالت إيمان.

- هو كذلك فعلاً، ردَّ السيِّد ماهر واستطرد: إنَّ خطورتَه يا إيمان تكمن في مخالفته للتصوُّرات السائدة عن المعصوم وعن علاقته بالله - تعالى - . سنتعرَّف إلى الموضوع بدقَّةٍ بالغة في آخِرِ الدرس إن شاء الله - تعالى - .

- إيمان: وهل برهن ابن عربي على آرائه؟.

- السيِّد ماهر: ليس تماماً، لم يكن يُؤثر البرهان الفلسفيَّ كثيراً، هنالك أدلة من القرآن، وأخرى من السنة النبويَّة المطهَّرة، وشيءٌ من البراهين. إنَّ ابن عربي يُوعِز اكتشاف هذه الحقائق إلى قوَّة القلب وطهارته عن لوث الدنيا. فبالتربية الروحيَّة يصعد الإنسانُ إلى عالم «وحدة الوجود»

فيشاهده كما هو على حقيقته، عندها يصعق عن ذاته فلا يجدها منفصلة عن الوجود الواحد، وهذا هو معنى الفناء لدى ابن عربي.

- ولكنَّ منظومتَه تبقى معطَّلة بلا براهين محكمة، قال يقظان.

- السيِّد ماهر: إلى حد ما. تعاقب عليها شُرَّاحٌ عِدَّةٌ حاولوا الاستدلال على ما جاء فيها من نظريات. أروع هؤلاءِ كان صدرَ الدينِ القونويَّ، تلميذَه وربيبَه. وكذلك القيصريّ الذي شرح أهمَّ رسائله، وكذلك الشيخ عبد الكريم الجيليّ المتوفى السنة ١٤٠٣م، صاحب كتاب الإنسان الكامل. ولكنَّ الاستدلالَ الكاملَ التامَّ على الاتِّجاه العرفانيِّ والمسلكِ الشهوديِّ، وواقعيَّةِ التجلِّي الإلهيّ، ونظريَّةِ «الإنسان الكامل»؟ كلّ ذلك جاء بعد عِدَّة قرونٍ من رحيل ابن عربي عن الدنيا. سنمرُّ عليها عن قريب وعليكما التحلي بالصبر. المُهِمُّ هو أنَّ كتاب الفتوحات المكِّيَّة يعد من أضخم آثار ابن عربيٍّ، وهو بمثابة موسوعة عرفانية كبرى تستوعب كافة مبادئ العرفان وقواعده، تقع في ٥٦٠ فصلاً لا نظير لها من حيث الاتِّساع والشمول في دنيا المسلمين. كُلُّ من أتى بعده من المتصوفة والعرفانيِّين لم يجدوا محيصاً من الاستناد عليه. صدرُ المتألِّهين نفسُه أفاد منه واستند على كشوفات محيي الدين كثيراً. في الواقع، إنَّ بعض الدارسين لفكر محيي الدين وفكر صدر الدين الشيرازيِّ يُؤَكِّدُ أنَّ فكرَ الأخيرِ جهدٌ برهانيٌّ وإثبات لشهود ابن عربيٍّ.

- من تقصد بـ«بعض الدارسين» يا سيِّد ماهر؟، سألته إيمان بكلٍّ شغف.

- السيِّد ماهر: حسنَ بنَ حسنٍ الآمليَّ. من كبار أساتذة الحكمة المتعالية في العالم اليومَ. قضى سنين عِدَّة في البحث والتنقيب في نصوص الحكمة المتعالية لصدر الدين الشيرازيِّ، وانتهت به دراسته الموسَّعة إلى التصريح بأنَّ جميع المباحث الرفيعة في الأسفار الأربعة منقولة من الفصوص والفتوحات وبقيَّة كتب محيي الدين ابن عربيٍّ. وعليه ـ يقول الآمليُّ ـ لن نكون غير دقيقين إن صرَّحنا بأنَّ كتاب الأسفار ليس إلا شرحاً أو مدخلاً لفصوص الحكم أو الفتوحات المكِّيَّة.

- يقظان: وماذا تبقَّى للشيرازيِّ من مجهود شخصيٍّ خالص إذا كان كل الأسفار خلاصة لكتب محيي الدين؟.

- السيِّد ماهر: تارة يستعين المؤلف لأجل وضع نظرياته على آراء غيره، وأخرى يقوم بتحويل آراء غيره إلى شكل برهاني، وثالثة يتولى صياغة نظرياته بمجهوده الذاتي الذي قد يصادف أن غيره كان قد سبقه إلى ذكر ذلك. في رأيي، إنَّ صدر الدين استند على ابن عربي أكثرَ من استناده على غيره، ولكنَّ مشروعَه لم يكن تحويلَ مكتوباتِ ابنِ عربيٍّ إلى لغةِ البرهانِ، وما توافق فيه تماماً من مقولاته مع ابن عربيٍّ لا يدلُّ بالضرورة على أنَّ صدر المتألِّهين قد اقتبسها منه. فقد ذكر في مقدمة حكمته المتعالية أنه قد أفاضت

عليه المعارف من جانب الله ـ تعالى ـ بعدَ جهدٍ كبيرٍ في الرياضات الشرعيَّة. نُضيف إلى هذا، أنَّ صدر المتألِّهين قد علَّق على نظريَّتة «بسيط الحقيقة كل الأشياء» بأنَّه لا يعلم من له علم بها على وجه الأرض، لكن محقِّقاً كبيراً وفيلسوفاً من كبار فلاسفة ـ الحكمة المتعالية ـ هذا العصر، وهو عبد الله جواد الطبريّ، أكَّد أنَّ القاعدة موجودة في كتب ابن عربيٍّ، وهذا يعني أنَّ صدرَ المتألِّهين لم يكن مُلتفتاً إلى وجودها هناك وإلاَّ لأشار إلى ذلك أو على أقل التقادير لما كان يقول بأنَّه لا علم له بمن يعرفها على وجه الأرض.

- إيمان: كلامٌ منطقيٌّ جِدّاً يا سيِّد ماهر.

- يقظان: أُؤيِّدكِ يا إيمان.

- السيِّد ماهر: كان ابن عربي على معرفةٍ واسعةٍ جِدّاً بآراءِ المتكلمين والفلاسفة، وكان عالِماً بالتراث الفلسفيِّ عِلماً دقيقاً. الجدير بالذكر أنَّ ابن عربي أرجع تأليف كتابه فصوص الحكم إلى أمر النبي محمد ﷺ.

- إيمان: كيف؟.

- السيِّد ماهر: يقول إنَّه رأى النبي ﷺ يأمره بأخذ الكتاب من يده ﷺ لكي ينتفع الناس منه.

- علَّقت إيمان: عجيب حقّاً.

- السيِّد ماهر: يوجد في هذا الكتاب ٢٧ فصّاً، كلُّ فص

يُشير إلى نبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام ، وهذا الكتاب هو آخر آثار ابن عربي، ويمتاز بشموليَّةٍ ونضجٍ شديدين. توالت الشروح على فصوص الحكم منذ يوم صدوره حتى بلغت قرابة ١١٠ شرحاً.

- قال يقظان مذهولاً: كلُّ هذه الشروح لكتاب واحد؟.

- نعم. سكت السيِّد ماهر وتمتم مترحِّماً على الشيخ الأكبر.

- ١٠ -

الفلسفة وعلم الكلام يتبادلان الأثواب

- أكمل السيِّد ماهر حديثه قائلاً: ظلَّت الفلسفة الإسلاميَّة في العالم العربيِّ في حالة احتضار بالرغم من أن ابنَ رُشدٍ كان قد مَدَّها بالدواءِ عندما ألَّف تهافت التهافت ردّاً على شبهات الإمام الغزاليِّ. لكنَّ تأثيرَ الغزاليِّ كان قويّاً جِدّاً، وزاد في مرض الفكر الفلسفيِّ ظهورُ فخرِ الدينِ الرازيِّ المتوفى العام ١٢٠٩م.

- سألت إيمان: كيف؟.

- السيِّد ماهر: فخر الدين، الذي كان فقيهاً وكلاميّاً، ومفسِّراً للقرآن، كتب شرحاً على كتاب الإشارات والتنبيهات للشيخ الرئيس ابن سينا، ولكنَّ الشرح لم يكن في الواقع إلا جرحاً؛ كان نقداً شديداً لفكر ابن سينا ولابن سينا نفسه. لقد كان لهذا النقد الشديد دوره القويُّ في إضعاف قيمة الفكر الفلسفيِّ في نظر عامَّة الناس.

- وبعد؟، سأله يقظان.

- السيِّد ماهر: تعلمانِ أنَّ العالَمَ الإسلامي قد تعرَّض

لأحداثٍ عظيمة بالغةِ الشدَّةِ، مأساويةٍ جِدَّاً بهجمة المغول أو التتار، الذين أحرقوا البلادَ الإسلاميَّةَ، وقتلوا الألوف من المسلمين، وهدموا البِنَى التحتيَّة للعالم الإسلاميِّ، وأهلكوا الحرث والنسل... كانت هجمةً شعواءَ شَرِسَةً، لا تترك ولا تذر... قادَ الحملةَ رجلٌ متوحِّشٌ سفَّاك للدماء يُدعى جنكيز خان.

في تلك الفترة ظهر رجلٌ لَعِبَ دوراً خطيراً جِدَّاً في العالم الإسلاميِّ المتمزِّق آنذاك. إذ عمل على إعادة ما تهدَّم من البِنَى التحتيَّة، وإعادة الحضارة العلميَّة للمسلمين، لاسيما الفلسفة الإسلاميَّة.

- من هو هذا الرجل؟، سألت إيمان بكلِّ شغفٍ.

- السيِّد ماهر: إنَّه محمَّدُ بنُ محمَّدِ الحسنُ الطوسيُّ، المعروف بـ نصيرالدين الطوسيِّ. وُلد بطوس من إيران، وتُوفِّيَ العام ١٢٧٤م ببغداد. كان متبحِّراً في الرياضيَّاتِ والفلكِ والفلسفةِ والفقه وعلمِ الكلام. لجأ الطوسِيُّ إلى الإسماعيليِّين الذين كانوا يقاتلون المغولَ بعنف من قلاعهم الحصينة، فبقيَ محتمياً في أقوى قلاع الإسماعيليِّين التي كانت تُعرف بقلعة الموت، يؤلِّفُ في العقيدة والأخلاق والتصوُّف والفلسفة والرياضيَّات والفلك، إلى أن سقطت القلعة الحصينة على وقع ضربات المغول.

- يقظان (متلهِّفاً): وماذا فعل المغولُ بنصير الدين؟.

- السيِّد ماهر: بالغ هولاكو في احترامه وتعظيم مقامه، بل اتَّخذه وزيراً له يلازمه في حلِّه وترحاله.
- إيمان: هولاكو حفيد جنكيز خان؟!.
- السيِّد ماهر: نعم. لقد استغلَّ الطوسِيُّ مكانته من هولاكو، فأقنعه بإعادة الإعمار، فرضخ هذا الأخير له، وفوَّضه أمر الأوقاف. فأعاد نصير الدين إنشاء وترميمَ المدارس والمعاهد، وجمع العلماء والحكماء والأطبَّاء والمهندسين، ونادى في أرجاء البلاد يدعو كافة العلماء الذين هربوا من بطش التتار للعودة إلى بلادهم، ووضع لهم رواتب جيِّدة. كان يُنفق على الفلاسفة ثلاثة دراهم يوميَّاً، وعلى الأطبَّاء درهمين، وعلى الفقهاء درهماً واحداً، بينما يصرف نصف الدرهم للمحدِّثين.
- يقظان: رائع فعلاً.
- إيمان: وهل عاد هؤلاءِ العلماء والحكماء والأطبَّاء والمهندسون الذين هربوا من بطش التتار سابقاً؟.
- بلى، والتفُّوا حول نصير الدين كالفراش التي تلتفُّ حول النار. واستطرد السيِّد ماهر: وأقنع نصير الدين المغولَ بإنشاء مرصدٍ فلكيٍّ ومكتبةٍ ضخمةٍ كانت تضمُّ أكثرَ من ٤٠٠,٠٠٠ عنوان.
- يا له من رقم ضخم، قال يقظان متعجِّباً.
- السيِّد ماهر: ثمَّ عكف الطوسِيُّ يدرس الفلسفة السينويَّة بشغف.

- يقظان: عفوا... ما الفلسفة السينويَّة؟.

- السيِّد ماهر: فلسفة ابن سينا. لقد قام بكتابة شرح على إشارات وتنبيهات ابن سينا، على غرار ما فعله الفخر الرازيُّ، ولكن على عكس الرازيِّ، كان شرح الطوسيِّ نقداً شديداً للرازيِّ، وانتصاراً لابن سينا، وللفلسفة الإسلاميَّة. لقد تلقَّى العالَم شرحَه هذا، أو قل نقده للرازيِّ وانتصاره لابن سينا، بنهمٍ كبيرٍ، فقد طُبع الشرح لأوَّل مرَّةٍ في حياة الطوسيِّ، وبعد ذلك طُبع في الهند سنة ١٨٦٤م، وظهر بعد ذلك في تركيا سنة ١٨٧٣م، وأُعيد طبعه في الهند سنة ١٨٧٦م، وفي إيران طبع مرتين، سنة ١٨٨٤م وسنة ١٨٨٧م، وطبع في ليدن سنة ١٨٩٢م، وأخيراً طبع في القاهرة عام ١٩٦٠، وكانت الآنسة غواشون قد نقلته إلى الفرنسيَّة.

- يقظان: كل هذه الطبعات؟!، لقد كان له تأثيرٌ شديدٌ فعلاً.

- السيِّد ماهر: لقد منح شرحُه على إشارات وتنبيهات ابن سينا التفكيرَ الفلسفيَّ قوَّةً استطاع على إثرها أن ينهض من فراش المرض بعد رقود طويل. لم يكتفِ نصير الدين بنقد الفخرِ الرازيِّ هنا، بل طارده في كتاب آخر له هو محصل أفكار المتقدِّمين من الفلاسفة والمتكلِّمين، فقام نصير الدين بتلخيصه ونقده تحت عنوان تلخيص المحصل.

- يقظان: إذن بين الرجلين معاركُ فِكْرِيَّةٌ قويَّة.

- السيِّد ماهر: نعم. لم يتصدَّ الطوسيُّ للفخر الرازيِّ

فحسب، بل انبرى يصارع محمد عبد الكريم الشهرستانيَّ أيضاً، الذي كان قد ألَّف كتاباً أسماه مصارع الفلاسفة عرَضَ فيه آراء الفلاسفة قادحاً ومفنِّداً. فما كان من الطوسِيِّ إلاَّ أنْ ردَّ عليه بـ مصارع المصارع، كشف فيه عن ضعف آرائه وهشاشتها وسطحيَّته في الفكر الفلسفيِّ.

- إيمان: وهل قامت الفلسفة وعادت مثل سابق عهدها؟.

- كلا، ليس إلى ذلك الحدِّ الذي كانت عليه أيام ابن سينا بالطبع، ولكن تحسن وضعها على أي حال، ردَّ السيِّد ماهر. إنَّ لنصير الدين عملاً ثالثاً لا يقلُّ أهمِّيَّةً وخطورةً عن العملين المذكورين.

- عذراً، ما هما اللذان تمَّ ذكرهما يا سيِّد ماهر؟، سألته إيمان.

- السيِّد ماهر: إعادة الإعمار، وحماية العلماء، وإعادة النهضة العلميَّة والنهضة الفلسفيَّة، وهذا نعتبره أوَّل أعمال نصير الدين، وثانيها ردُّه على الفخر الرازيِّ.

- نعم، ردَّت إيمان وهي تسجل في دفترها ذلك.

- السيِّد ماهر: أمَّا عملُه الثالث فهو توظيفه الفلسفةَ لتقوية عمودِ الفكر الكلاميِّ. تَعلمانِ أنَّ علم الكلام هو العلم الذي يدافع عن العقائد الدينيَّة، ويستخدم في دفاعه الجدلَ والبرهانَ العقليَّ. لقد كان شيخ الإسلام الغزاليُّ والإمام الرازيُّ قد فكَّا روابط علم الكلام بالفلسفة كلِّيَّاً، فجعلا

علم **الكلام** هو العلمَ المدافعَ عن العقيدة الصحيحة، بينما جعلا الفلسفةَ كفراً وزندقة. فما كان من نصير الدين إلاً أنْ أعاد الفلسفةَ في عمق هيكل **علم الكلام**، أو لنقل ألبس علم الفلسفة ثوب **علم الكلام**.

- إيمان: كيف تسنَّى له ذلك؟.

- السيِّد ماهر: لقد كان نصير الدين الطوسِيُّ يُتقن فلسفةَ ابن سينا إتقاناً تامَّاً، كما كان ابن رشد يُتقن فلسفةَ أرسطو. وكان في الوقت ذاته متمكِّناً من **علم الكلام**، فألَّف كتاباً صغير الحجم أسماه التجريد، بثَّ فيه عقيدتَه الدينيَّة في وجود الله ـ تعالى ـ ، وتوحيده، والنبوات، والخلافة، والمعاد، وعالج هذه الاعتقاداتِ بطريقة **علم الكلام**، ولكن بمادَّةٍ فلسفيَّةٍ، جاعلاً الفلسفة تخدم **علم الكلام**.

- يقظان: إنَّه عبقريٌّ فذٌّ.

- إيمان: ولكن ما الذي يقصده بـ«التجريد»؟.

- السيِّد ماهر: سؤالٌ ذكيٌّ جِدَّاً، لست أدري إجابته يا إيمان. ولكن توجد احتمالاتٌ عِدَّةٌ، أشهرها أنَّه قد جرَّد عقيدتَه الدينيَّةَ وكشفها كما هي في حقيقتها.

- ولكنَّه لم يجرِّدْها عن الفلسفة!، علَّقت إيمان متسائلةً.

- ولم يجرِّدْها عن الكلام أيضاً!، قال يقظان.

- السيِّد ماهر: صحيح. لذلك قالوا إنَّه جرَّدها بمعنى كشفها. لنترحَّمْ على الشيخ نصير الدين الطوسيِّ.

- ١١ -

الحكمة المتعالية
وصلتها بـ نهج البلاغة

- السيِّد ماهر: ها نحن الآن نصل إلى آخر محطات رُوَّادِ الفكر الفلسفيّ في الإسلام؛ سنقف عند رجل قُدِّر له أن يتمكن إلى أبعد الحدود من إقامة مشروع التوافق، بتأسيس **الحكمة المتعالية**، إنَّه صدر الدين الشيرازيُّ، ويُلَقِّبُه أتباعُه بـ«صدرالمتألِّهين». اسمه محمَّدُ بنُ إبراهيمَ، تُوُفِّيَ سنة ١٦٤١م، وُلِدَ في شيراز، عكف على التراث الفلسفيِّ الضخمِ الذي خلَّفه أسلافُه يتزوَّد منه، حتَّى تمكَّن تمكُّناً تامَّاً من آراءِ كبار فلاسفة اليونان، وأفكار الفلاسفة المسلمين. يندهش المرء حقَّاً عندما يقرأ موسوعتَه الفلسفيَّة المسماة بالحكمة المتعالية، وذلك لكثرة آراء الفلاسفة القدماء فيها، لدرجة أن سيد حسين نصر، الباحث المشهور، عدَّ موسوعة **الحكمة المتعالية** مصدراً من مصادر التاريخ الفلسفيِّ القديم.

- يقظان: وهل هذه الموسوعة هي عمله الكتابيُّ الوحيد؟.

- السيِّد ماهر: كلا، فقد ألَّف العديدَ من المؤلَّفات. لكنَّ أشهرَها على الإطلاق، وأضخمها في الوقت نفسه، هي هذه. وفيها أودعَ معظمَ جوانبِ فلسفتِه. المُهِمُّ أنَّه بعد مرحلة التحصيل العلمي انزوى صدر الدين في قرية نائية، يتعبد ليلاً ونهاراً، يريد بلوغ وادي النور والعرفان، حتى انكشفت له الكثير من الحقائق، والعديد من العلوم، فقرَّر أن يُؤلِّف موسوعةً يُسجِّل فيها مكاشفاتِه، بعد أن يصبغها بلغة البرهان، ويبحث عن مؤيِّدات لها في الظواهر الدينية من آيات الكتاب الإلهيّ والسنة النبوية.

- علَّق يقظان: إذن صدر الدين أيضاً منطلقُه القلبُ والمعارفُ الشهوديَّةُ.

- السيِّد ماهر: نعم يا يقظان. وهذا يمكن عدُّه دليلاً على أنَّ مشروعَ صدرِ الدينِ لم يكن لأجل تلبيس عِرفانيَّات ابن عربيٍّ لباسَ البُرهانيَّات.

- إيمان: ذكرت هذا سابقاً، وهي نقطة جديرة بالالتفات حقّاً.

- السيِّد ماهر: يعتقد صدرُ الدين أنَّ للإنسان أسفاراً أربعة باتِّجاه الحقيقة. أوَّل هذه الأسفارِ هو سفرُ الإنسان إلى الله ـ تعالى ـ من الخلق؛ أي من الخلق تكون الانطلاقة، وإلى الحق تكون الخاتِمة. في هذا السفر يُحيط المسافر قلباً، بالخلق عِلماً إلى أنْ يَصِلَ إلى معرفة الحقِّ. ومن هنا، فإن ما يقابل هذا الكشفَ القلبيَّ في البحث العقليِّ،

هو معرفة شؤون الوجود وأحكامه قبل الولوج في وادي معرفة الله ـ تعالى ـ .

- يقظان: تقصد أن هناك سفرين، أحدُهما روحيٌّ والآخَرُ عقليٌّ؟.

- السيِّد ماهر: بلى، فالسفرُ العَقْلِيُّ يتمثل في البحث الفلسفيِّ الذي يجب أن يكون ترجماناً للسفر القلبيِّ.

- إيمان: والسفر الثاني؟.

- السيِّد ماهر: السفر من الحقِّ إلى الحقِّ.

- ما معنى هذا؟، سأل يقظانُ مستغرباً.

- السيِّد ماهر: بعد أن بلغ السالك المسافر بالقلب معرفة الله ـ تعالى ـ ، يبدأ سفرَه الثانيَ في الغور في هذه المعرفة والاستزادة منها ولكن هذه المرة بالله ـ تعالى ـ . ويقابله في البحث العقليِّ معرفةُ العقلِ لصفات الله ـ تعالى ـ وأسمائه بعد معرفة العقلِ له ـ تعالى ـ .

- يقظان: رائع جِدّاً.

- السيِّد ماهر: والسفر الثالثُ يكون من الحقِّ ـ تعالى ـ إلى الخلق ولكن بالحقِّ.

- إيمان: كيف؟.

- السيِّد ماهر: بعد أنْ تزوَّدَ السالك بأداة القلب من معرفة الله ـ تعالى ـ مستعيناً به ـ سبحانه ـ ، يعود لمعرفة الخلق

من جديد ولكن بتعليم الله ـ تعالى ـ له. ويقابله في البحث العقليّ معرفة فِعْلِ الله ـ تعالى ـ بعد معرفة الله ـ تعالى ـ .

- علّقت إيمان: رائع حقّاً. فعند السفر الأوّل، نظر العارف في الخلق، لكنَّه لم يكن قد بلغ أفقَ الحقّ. إلاّ أنّه في السفر الثالث ينظر في الخلقِ بوصفه فعلَ الله ـ تعالى ـ .

- السيِّد ماهر: هو هكذا كما ذكرتِ. عندما يقطع السالك سفرَه الثالثَ، يُصبح نبيّاً ولكن دون رسالة. أما السفر الأخير، فيُؤَهِّلُه لحمل الرسالة، لأنّه سفرٌ في الخلقِ بالحقِّ ـ تعالى ـ .

- كيف؟، سأله يقظان.

- السيِّد ماهر: في السفر الأوّل، تحرَّك السالكُ إلى الله ـ تعالى ـ من الخلق. مرَّ بالخلقِ وحده إلى أنْ بلغَ أفقَ الحقِّ. وبعد ذلك، غاص في معرفة الحقِّ بالحقِّ ـ تعالى ـ وأكملَ سفرَه الثانيَ. بعد ذلك، يَمَّمَ وجهَه تلقاءَ الخلقِ، وتَوَجَّهَ إلى العالَم من جديدٍ لكن بمَعِيَّةِ الحقِّ ـ تعالى ـ وأكمل سفرَه الثالثَ.

أمّا السفرُ الأخيرُ فيتمثّل في العودة إلى الله ـ تعالى ـ من الخلق بمَعِيَّتِه ـ تعالى ـ . الفارقُ بين السفرين الأوّلِ والرابعِ أنَّ الأوّلَ كان من الخلقِ لكن قبل بلوغ الأفقِ الأعلى، بينماَ السفرُ الرابعُ يكون أيضاً من الخلق إلى الحقِّ ولكن بمَعِيَّة المنظر الأعلى ـ تبارك وتعالى ـ . ويقابله في البحث العقليّ معرفةُ الإنسان لعلوم المعاد، وكيفيَّة عودة الكائنات إلى باريها كما جاءت منه ـ تعالى ـ .

ـ أسفار مُذهِلة حقَّاً، علَّق يقظانُ.

ـ هذا يُشبه قصَّةَ العابد على الجبل مع طفل القرية، علَّقت إيمانُ.

ـ أسمعينا القصّةَ يا إيمان، قال السيِّد ماهر.

ـ إيمان: بكلِّ سرور. ذات يوم، كان في إحدى القرى النائية عابد يقطن أعلى الجبل ليتعبَّد. شاهده طفل من أطفال القرية وقرر اللحاق به أعلى الجبل. وفعلاً، تحرَّك الطفل من القرية تلقاء الجبل الكبير، ثم بدأ يصعد إلى أن بلغ القِمَّة. وهناك التقى بالعابد، الذي أراد أن يكافئه على شجاعته فاصطحبه معه ليريه أسرار القِمَّة وما عليها من نبات وحيوان. وعندما أتقن الطفل ما في القمَّة، أراد العودة إلى القرية، فقرَّر العابد مرافقته، وكشف العابد للطفل طريقاً أسهل لبلوغ الأرض، وظلَّ العابد يتحدَّث مع الطفل طوال الوقت عن كلِّ ما يقع عليه بصرُ الطفل من الأشياء أسفل الجبل. ذهب الطفل إلى أبويه وأسرته وأبلغهم عن صعوده أعلى الجبل وتعلُّمه من العابد ولكن القليل منهم صدقَّه. وبعد برهة من الزمن، قرر الطفل العودة إلى قمَّة الجبل، ولكن هذه المرَّة برفقة العابد، الذي وعده بأن يكشف له مزيداً من أسرار الجبل أثناء الطريق.

ـ ما أروعَها من قصَّة يا إيمان. ممن سمعتيها؟، سألها السيِّد ماهرٌ مُتَعَجِّباً.

- إيمان: لم أسمعْها من أحد. بصراحة... لقد ابتكرتُها وأنا أستمع لشرحك الأسفارَ الأربعةَ يا سيِّد ماهر.

- أليست أختي عبقريَّةً يا سيِّد ماهر؟، علَّق يقظانُ مبتسماً.

- السيِّد ماهر: بلى هي كذلك حقّاً.

- إيمان (مبتسمة): شكراً على الإطراء. لقد انتهيتُ من القصَّة، فهل نرجع إلى الدرس يا سيِّد ماهر؟.

- السيِّد ماهر: بكلِّ تأكيد. أفاد صدرُ الدين من التراث الفلسفيِّ الضخم الذي كان قد انتهى عنده، فأعمال اليونانيِّين، والهندوس، ومصر القديمة، وحكماء الفرس القدماء، والتراث الفلسفيّ الإسلاميّ الشديد التنوُّع، فأفكار الكنديِّ والفارابيِّ وابن سينا، ومنظومات السهرورديِّ وابن عربيٍّ، وأعمال المتكلِّمين على أنواعهم وطبقاتهم، مع التعاليم القرآنية والنبويَّة، فضلاً عن كشوف صدرِ الدين العرفانية الشخصيَّة؟ كلُّ هذا الزخم المعرفيِّ المتنوِّع العجيب وضع بين يديه إمكانيَّاتٍ عديدةً لصياغة مشروعه الجبَّار؛ أعني الحكمة الجامعة لسائر أنواع المنظومات الفكريَّة الفلسفيَّة والعرفانيَّة، في بوتقةٍ واحدةٍ، ليُطلق عليها بعد ذلك **الحكمة المتعالية**. وإذا كان هناك من استند عليه الشيرازيُّ أكثر من غيره في إعداد موسوعته فذاك هو كتاب **نهج البلاغة**.

- **نهج البلاغة؟!**، صاح يقظانُ مندهشاً. أليس هو الكتاب

الذي فيه خُطَبُ ورسائلُ وحِكَمُ أميرِالمؤمنين عليٍّ بنِ أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ ؟.

- السيِّد ماهر: بلى. إنَّ هذه الخطبَ العظيمةَ منها ما يقرب من ٥٠ خطبة في التوحيد وشؤون الألوهيَّة. لقد استند عليها الشيرازيُّ كثيراً إلى درجة أنَّ باحثاً كبيراً في **الحكمة المتعالية**، الذي سبق أن ذكرناه، أعني حسن الآمليّ، يقول إنَّ الشيرازيَّ استند على **نهج البلاغة** وخطب أميرالمؤمنين فيه في تطوير برهان الصِدِّيقين. ليس حسن آملي فحسب، بل محمد حسين الطباطبائي ومرتضى المطهري كذلك.

- لم أكن أعلم أن كتاب **نهج البلاغة** يتناول التوحيد بهذه الكثرة التي أشرت لها يا سيِّد ماهر. ٥٠ خطبة في التوحيد؟!، قال يقظان في ذهولٍ وتعجُّبٍ.

- السيِّد ماهر: تدور خطب التوحيد في **نهج البلاغة** حول قاعدة واحدة أساسيَّة هي أنَّ ذاتَ الحقِّ القيوم حقيقةٌ مطلقةٌ ساقطةٌ عنها كلُّ الحدود. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**الذي ليست له في أوَّلِيَّتِه نِهَايَةٌ، ولا في آخِرِيَّتِه حدٌّ ولا غايةٌ، الذي لم يسبْقه وقتٌ ولم يتقدَّمْه زمانٌ، ولم يتعاوزْه زيادةٌ ولا نقصان**»(١). ويقول: «**الذي سُئِلَت الأنبياءُ عنه فلم تصفْه بحدٍّ ولا بنقصٍ**»(٢). ويقول مُؤَسِّساً لقاعدة

---

(١) الصدوق، محمد بن علي: التوحيد ص ٣١.
(٢) المصدر السابق ص ٣٢.

الإطلاق الوجودي بنفي النقص: «**ليس له حَدٌّ ينتهي إلى حَدِّه**»[1]، ويقول: «**الذي لا من شيء كان ولا من شيء خلق ما كان**»[2].وتتفرَّع على هذا الإطلاق الوجوديِّ، الإحاطةُ الإلهيَّةُ بسائرِ الوجودِ، والقيموميَّةُ الإلهيَّةُ على جميع الكائنات. تناولت هذه الخطب الجليلة بساطة الخالق من جميع الجهات وخلوَّ ذاته المتعالية من التكثر، ووحدتَه ـ تعالى ـ مع صفاته العليا. وأشار الإمامُ عليٌّ عليه السلام في خطبه تلك إلى وحدته ـ سبحانه ـ المتوافقة مع القول بتوحيده. هذه الوحدة ليست وحدة عددية على الإطلاق. وهكذا فخطب **نهج البلاغة** في التوحيد تتطرَّق إلى كمٍّ جيِّد عميقٍ جدًّاً في الإلهيَّات. الوحدة اللاعدديَّة، والوجود الساقطة عنه الحدود، والقدم اللازمانيّ، وعينيَّة صفاته مع ذاته، وعينيَّة فعله مع كلامه، وغير ذلك من المسائل التوحيديَّة، تطرَّق إليها أمير المؤمنين عليه السلام في خطبه.

- إيمان: هلَّا ذكرتَ لنا مزيداً من أقوال أمير المؤمنين في التوحيد يا سيِّد ماهر؟.

- السيِّد ماهر: نعم. تأمَّلا قوله عليه السلام (وهنا أخرج السيِّد ماهر كتاب **نهج البلاغة** وبدأ يقرأ منه): «**الذي ليس لصفته حدٌّ محدودٌ**»[3]. هُنا أسقط الحدَّ عن الصفات الإلهيَّة، لأنَّه

(١) الصدوق، محمد بن علي: التوحيد ص٣٣.

(٢) الصدوق، محمد بن علي: التوحيد ص٤١.

(٣) التميمي، أركان: نهج البلاغة،صفوة الشروح: ص٢٣.

كان قد أرجع الصفاتِ إلى الذات فقال: «**وكمال الإخلاص له نفيُ الصفات عنه لشهادة كلِّ صفةٍ أنَّها غير الموصوف**»[1].

- إيمان: ما معنى ذلك؟.

- السيِّد ماهر: ليست له صفاتٌ خارجة عن الذات. صفاتُه وذاتُه أمرٌ واحِدٌ، سيأتيكما تفصيله لاحقاً. وقال عليه السلام: «**كائنٌ لا عن حَدَثٍ، موجودٌ لا عن عَدَمٍ، مع كلِّ شيءٍ لا بمقارنةٍ، وغيرُ كلِّ شيءٍ لا بمزايلةٍ، فاعلٌ لا بمعنى الحركاتِ، بصيرٌ إذ لا منظورَ إليه من خلقه، مُتَوَحِّدٌ، إذ لا سكن يستأنس به، ولا يستوحش لفقده، أنْشَأَ الخَلْقَ إنْشَاءً بلا رَوِيَّةٍ أجالها، ولا تجربةٍ استفادها، ولا حركةٍ أحدثها، ولا همامة نفسٍ اضطرب فيها، أحال الأشياءَ إلى أوقاتها، عالِماً بها قبل ابتدائِها**»[2].

- إيمان: يا إلهي، ما هذا العمق؟.

- عجيبٌ حقّاً. توجد في الخطبة مصطلحاتٌ لم أكنْ أخالُ أنَّ أحَداً كان قد نطق بها في ذلك الزمن الأوَّل من صدر الإسلام، قال يقظانُ ذلك والدهشة بادية عليه.

- السيِّد ماهر: مثل ماذا يا يقظان؟.

---

(١) المصدر السابق ص٢٥.

(٢) التميمي، أركان: نهج البلغة، صفوة الشروح: ص٢٦.

ـ يقظان: مثل «حدث»، و«موجود» و«عدم» و«فاعل» و«حركة» و«تجربة». كنت أظنُّ المسلمين مارسوا هذه اللغة بعد ترجمة الآثار الفلسفيَّة اليونانية إلى العربيَّة.

ـ السيِّد ماهر: ثَمَّةَ مصطلحاتٌ أخرى جاءت في نهج البلاغة؛ قال الإمامُ عليه السلام: **«الأحدُ بلا تأويل عددٍ»**[1]، وقال أيضاً: **«من أشار إليه فقد حدَّه»**[2]، وقال: **«الحمدُ للهِ الذي لم يسبقْ له حالٌ حالا فيكونَ أوَّلا قبلَ أنْ يكونَ آخِراً، ويكونَ ظاهراً قبلَ أنْ يكونَ باطِناً»**[3]، وقال عليه السلام: **«لا تصحبه الأوقاتُ، سَبَقَ الأوقاتَ كونُه، والعدمَ وجودُه، والابتداءَ أزلُه»**[4]، وقال: **«سبق في العلوِّ فلا شيءَ أعلى منه، وقَرُبَ في الدنوِّ فلا شيءَ أقربُ منه. فلا استعلاؤُه باعدُه عن شيءٍ من خلقِه، ولا قربُه سواهم في المكان به»**[5].

ـ إيمان: إنَّ هذهِ النصوصَ تحتاج إلى شرحٍ دقيقٍ يا سيِّد ماهر. هل يُمكِنُنَا أنْ نَعُدَّ **نهج البلاغة** أوَّلَ كتابٍ للمسلمين يشتمل على مسائل التوحيد؟.

ـ السيِّد ماهر: الحقُّ يا إيمان أنَّ أوَّل من تطرَّق إلى مسائل

---

(١) المصدر السابق ص ٨٠.
(٢) المصدر السابق ص٣١.
(٣) المصدر السابق ص٦٥.
(٤) الصدوق، محمد بن علي: التوحيد ص٣٧.
(٥) التميمي، أركان: نهج البلاغة، صفوة الشروح ص١٢٣.

التوحيد وأسرار الإلهيَّات بهذا العمق الكثيف هو أميرُ المؤمنين عليٌّ عليه السلام؛ إذْ لم يعهد المسلمون قبله هذه اللغة على الإطلاق، ولم يسبقْه في الإسلامِ أحدٌ تحدَّث في الذات الإلهيَّة الحقَّة إلى مستوى القول: **«هو في الأشياء على غير ممازجة، خارج عنها على غير مباينة، فوق كل شيء فلا يقال شيء فوقه، وأمام كل شيء فلا يقال له أمام، داخل في الأشياء لا كشيء في شيء داخل، وخارج من الأشياء لا كشيء من شيء خارج»**[1]. وقال عليه السلام: **«إنْ قيل كان فعلى تأويل أزليَّة الوجود، وإنْ قيل لم يزل، فعلى تأويل نفي العدم»**[2].

ثمَّ أضاف السيِّد ماهر: عكف صدرُ الدين على هذا الإنتاج الهائل من نهج البلاغة يَدْرُسُه ويقوِّم نظرياته وفقه قبل أيِّ كتابٍ آخَرَ.

- إيمان: وهل نجح الشيرازيُّ فيما أراد؟.
- السيِّد ماهر: نجح في تصميم القاعدة التي سيتَّكِئُ عليها هو، وغيره ممن يريدون المُضِيَّ بعملية التوافق إلى الأمام.
- يقظان: وما هي هذه القاعدةُ؟.
- السيِّد ماهر: تتكوَّنُ القاعدةُ من أصلٍ واحدٍ، يمكن أن يُنظرَ إليه برؤيةٍ أخرى فيبدو من خلالها أصلين لا أصلاً واحِداً.

---

(١) المصدر السابق ص١٢١.
(٢) الصدوق، محمد بن علي: التوحيد ص٧٣.

- وما هو؟ أو ما هما؟، سأله يقظانُ.

- الأصلُ الجوهريُّ لمنظومةِ **الحكمة المتعالية** هو **أصالة الوجود**؛ أي أنَّ الوجودَ حقيقةٌ واقعيَّةٌ، قائمةٌ بذاتها، تتمتَّع بالغنى المطلقِ، والاستقلالِ التامِّ. وهذا الوجود الأصيل له مراتبُ تقبل الشدَّة والضعفَ، وما العالمُ وسائرُ الكائناتِ إلاَّ مراتبُ ضعيفةٌ من الوجود.

- أليس هذا نمطاً من القول بـ **وحدة الوجود**؟، سألته إيمان.

- السيِّد ماهر: نعم، **وحدة الوجود** التي يتمُّ إثباتُها بعد ثبوت **أصالة الوجود** وأنَّ حقيقتَه توأمُ الغنى الإطلاقيِّ.

- إيمان: هل تشرح ذلك أكثرَ يا سيِّد ماهر؟.

- السيِّد ماهر: بكلِّ سرورٍ، ولكن في الدرسِ المخصَّصِ له، وفي الوقت المخصَّصِ أيضاً.

- يقظانُ (مبتسماً): طيِّب. اللهُمَّ أفرغْ علينا الصبرَ.

- تابع السيِّد ماهر: لقد ساعدت نظريَّة **أصالة الوجود صدر الدين** في ابتكار حلولٍ جوهريَّةٍ ونهائيَّة لعدَّةٍ من المشكلات العقليَّة الكبرى، ظلَّت عالقةً منذ فجر تاريخ التفكير العقليِّ.

- إيمان: من قبيل...؟.

- السيِّد ماهر: لقد تمكَّن من ابتكار برهان جديد يثبت وجود الله ـ تعالى ـ دون تقسيم الوجود إلى **واجب وممكن**، بل

ودون الاستناد إلى **قاعدة استحالة تسلسل العلل إلى ما لا نهاية**. وتمكَّن من الكشف عن حقيقة **نظام العِلَّة والمعلول** في واقعه كما هو، إذ ليس المعلول إلاَّ ظهوراً للعِلَّة وبروزاً وإشراقاً لها. و تمكَّن من اكتشاف **الحركة الجوهريَّة** في صميم الطبيعة، وبواسطتها هذَّب برهان **المُحَرِّك الأوَّل**، وحلَّ معضلة **علاقة القديم بالحادث**، ومشكلة **قدم العالم وحدوثه**، بل ووصل إلى علاقة الروح بالجسد أيضاً.

- عَلَّقَ يقظانُ: حقّاً تعتبر هذه المشكلات عويصةً جِدَّاً.

- حلَّ أيضاً موضوع حشر الأجساد وإشكال إعادة المعدوم، وعلم الله ـ تعالى ـ بالجزئيات، وغير ذلك.

- إيمان: وهل تلك الحلول ناجعة؟.

- السيِّد ماهر: بلى، لأنَّها كلّها تستند على قواعد فلسفيَّة محكمة جِدَّاً.

- يقظان: وهل تراث **صدر الدين** معروف عالَميَّاً؟.

- السيِّد ماهر: نعم. كُتِبَ في فلسفته العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه، شرقاً وغرباً، وانبرى العديد من المحقِّقين، منذ زمانه إلى يومنا هذا، يشرح فلسفته وأصولها العقليَّة. ولكنَّ أعظمَ شُرَّاح فلسفته هم هادي السبزواريّ؛ أوّل الشارحين لـ **الحكمة المتعالية**، و**محمَّد حسين الطباطبائيّ**؛ وهو فيلسوف ومفسِّر للقرآن، من

أروع أعماله موسوعة في تفسير القرآن تقع في ٢٠ مجلّداً، ملئت بشتى البحوث الفلسفيَّة والأخلاقيَّة والتاريخيَّة والاجتماعيَّة وغيرها. وله تأليف لا نظير له في الأعمال الفلسفيَّة يُعرف بـ **أصول الفلسفة والمذهب الواقعيّ**؛ يلخِّص هذا المشروع تاريخَ الفلسفة الإسلاميَّة وإنجازاتها، ويقدِّم مادَّتها إلى القارئ المثقَّف بلغةٍ سلسةٍ. أمَّا آخِرُ أكبر شُرَّاح **الحكمة المتعالية** فهو **عبد الله جواد الطبريّ**، الذي صنَّف مؤخَّراً أضخم شرح لـ **الحكمة المتعالية** أسماه **الرحيق المختوم**.

أيها العزيزان؛ يقظان وإيمان، أنتما على موعد لمعرفة بعض جوانب هذه الحكمة العظيمة.

- قالت إيمان فرحة: إنْ شاءَ اللهُ ـ تعالى ـ.

- علَّق يقظانُ مبتسماً: يوفِّقنا الله لفهمها.

- لا أجد داعياً لتلخيص ما مرَّ أكثر مما هو عليه، قال السيِّد ماهر.

- إيمان: لقد نسيت إخبارك يا سيِّد ماهر أنَّ أبي طلب مني تسجيلَ ما تُلقيه من دروس، في أشرطةٍ سمعيَّة، حتَّى تبقى مرجِعاً لنا في المستقبل. هل من مانع؟.

- السيِّد ماهر: لا أجد مانعاً من ذلك يا إيمان.

- يقظان: ولكنَّنا لن نكون في البيت غداً. لقد وعدنا السيِّد

ماهراً بأنْ نأخذَه معنا لمشاهدة معالم السلطنة السياحيَّة.
هل نسيت يا إيمان؟.

- أه نعم نسيت فعلاً. ولكن لا تهتمَّ بذلك يا يقظانُ، سأصطحب معي مسجِّلي الصغير.

الفصل الثالث

المَعْرِفَة

- ١ -

منضدة الأفكار

- لقد مضى من النهار نصفه يا سيد ماهر، ألا تحس بالتعب؟ سأله يقظان.

- بلى. ولكن لا وقت لدينا.

- ولكن لدينا على الأقل بعض الوقت لاحتساء القهوة العمانية أو الشاي الأحمر. علقت إيمان مبتسمة.

- ليكن الآن دور الشاي الأحمر. قال السيد ماهر. قامت إيمان لتصب الشاي للسيد ماهر، ثم لأخيها ولنفسها. شكرها السيد ماهر وجلس يرتشف الشاي بكل هدوء. وبعد أن وضع الجميع أكوابهم على المنضدة، تنحنح السيد ماهر وقال:

- كما ذكرنا سابقاً، يلزمنا التعرف على نظرية المعرفة وأهم مسائلها، حتى نخطو بعد ذلك صوب الحكمة الإلهية.

- وهنا سأله يقظان قائلا: عفوا يا أستاذ، وما معنى الحكمة الإلهية؟.

- أجاب السيد ماهر: الحكمة الإلهية مصطلح يطلق على العلم الذي يتناول الألوهية وشؤونها. وشؤون الألوهية تعني صفات الله تعالى، وأفعاله. وبما أن الكون بما فيه فعله تعالى فالحكمة الإلهية تبحث في الكون بصفته فعله سبحانه. واضح يا يقظان؟

- بلى يا سيد ماهر.

- موضوع درسنا اليوم هو العلم والمعرفة. ويغطي الموضوع ٦ نقاط أساسية هي:

١ ـ أساس المعرفة.

٢ ـ حقيقة العلم.

٣ ـ قيمة المعرفة.

٤ ـ أدوات المعرفة.

٥ ـ أصالة العقل في المعرفة.

٦ ـ تجرُّد المعرفة.

ولنتحدث الآن عن أساس المعرفة ولن يطول بنا المقام فيه إن شاء الله ـ تعالى ـ .

- استطرد السيد ماهر: تأملا هذه المنضدة التي وضعتُ عليها كتبي. لقد أسدت هذه المنضدة لي خدمة. تُرى ما هي؟.

- ردَّت إيمان: إنَّك تستطيع وضع أغراضك عليها.

- السيِّد ماهر: فعلاً. لولاها لسقطت كتبي على الأرض،

والأوراقُ والأقلامُ وكوبُ الماءِ هذا. وكما أنَّ هذه الطاولةَ لعبت هذا الدورَ بالنسبة إلى تلك الأشياء، لا بد من وجود شيء يلعب دور المسند والمنضدة لسائر الأشياء.

ـ كيف؟، تساءل يقظانُ متفكِّراً.

ـ أجاب السيِّد ماهر: لو لم تكن الأوراق موجودةً لما أمكن للمُؤَلِّفين كتابةُ شيءٍ، لأنَّ الأوراقَ مسندُ الكتابة ومنضدةُ الأسطر. الكرةُ الأرضيَّةُ منضدةٌ كبيرةٌ وضع الخالق ـ جلَّ وعلا ـ عليها الجبالَ والبحارَ والأشجارَ والكائناتِ. ومنظومتنا الشمسيَّةُ منضدتُها مجرَّة دربِ التبانة، وهي بدورها موضوعة على منضدة الكون الهائلةُ. والكونُ نفسه، بعظمته ووسعه، يُشبه كتاباً صغيراً وُضِعَ على منضدةِ العوالم العُلْوِيَّةِ وراءَ عالم المادَّة هذا كما ستعرفان ذلك في حينه إن شاء الله ـ تعالَى ـ . ولكنَّ الذي يهمّنا معرفتُه الآن هو الإجابة عن هذا التساؤل: هل للأفكار أيضاً منضدة تستند عليها؟.

ـ إنَّه الذهن أو الدماغ البشريُّ، أجاب يقظانُ بسرعة.

ـ السيِّد ماهر: الذهنُ وعاءٌ تقبع فيه الأفكار. ولكن في عالم الأفكار نفسها توجد منضدةٌ تستند عليها جميع الأفكار. ويجب أنْ تكونَ تلك المنضدةُ فكرةً معيَّنةً، لولاها أضحت كلُّ تلك الأفكار بلا قيمةٍ ولا معنى. بدون تلك الفكرة المنضدة، يُصبح الذهنُ صندوقاً يحوي خرافاتٍ. هل عرفتما عن أي فكرةٍ أتحدَّثُ؟.

- يقظانُ: كلّا.

- السيِّد ماهر: هذه الفكرة هي مبدأ استحالة اجتماع النقيضين.

- إيمان: هل يُمكنك الشرحُ أكثر؟.

- السيِّد ماهر: نحن جميعاً نعتقد بأنَّ النقيضين لا يجتمعان، ولو لمْ نعتقدْ بذلك لتهدَّم صرحُ العلومِ بأكمله.

- لماذا؟، سأله يقظانُ متعجِّباً.

- السيِّد ماهر: لأنَّنَا حينئذٍ سنصدِّقُ نقيضَ ما اعتقدنا. هل تعتقد يا يقظانُ بأنَّك موجودٌ؟.

- يقظان: بالطبع أعتقد بذلك.

- السيِّد ماهر: وهل يُمكنك أنْ تعتقدَ بأنَّك غيرُ موجودٍ أيضاً مع الاحتفاظ باعتقادك الأوَّل؟.

- أجابَ يقظانُ: كلّا بالطبع.

- السيِّد ماهر: ولو اعتقدت بأنَّك غيرُ موجودٍ مع الاحتفاظ باعتقادك الأوَّل؟.

- لأصبتُ بالجنون، قالها يقظان ضاحكاً.

- السيِّد ماهر: فعلاً. النتيجة هي أنَّ ثمَّةَ مبدأ لا يَسَعُنا إلَّا الاعتقادُ به، وهو مبدأ استحالة اجتماع النقيضين. هذا المبدأ وهب الحياةَ والبقاءَ لسائرِ أفكارنا. لقد شبَّه الفيلسوفُ صدر الدين الشيرازيُّ دور مبدأ استحالة اجتماع

النقيضين تجاه عالم الأفكار بدور واجب الوجود تجاه عالم الكائنات الخارجيَّة. تُرى ما وجه الشبه هنا؟. وجه الشبه بين الدورين هو منح الوجود والبقاء. ولكي نفهم مغزى ومنشأ هذا المبدأ، تأملا هذه الجملة: «أنا موجود وأنا غير موجودٍ». ما رأيكما بها؟.

- إيمان: إنَّها باطلة.

- صاح يقظانُ: إنَّها تجمع بين نقيضين.

- السيِّد ماهر: ما هما هذانِ النقيضانِ يا يقظانُ؟.

- يقظان: إنَّهما وجودي وعدمي.

- السيِّد ماهر: الحقُّ أنَّك تقصد الوجودَ والعدمَ. الوجودُ والعدمُ لا يمكن أن يجتمعا. هذا هو مغزى المبدأ.

- تساءلت إيمان: ولكن لماذا لا يجتمعان؟.

- السيِّد ماهر: لنضربْ مثالاً حسِّيّاً يساعدنا على الفهم. لماذا لا يُمكننا الجمعُ بين النار وبين الماء؟.

- رَدَّت إيمانُ: هل لأنَّ طبيعتيهما مختلفتانِ؟.

- السيِّد ماهر: نعم. ذاتُ النارِ بطبعها لا تقبل ذاتَ الماءِ، لأنَّ ذاتَ الماءِ تهدمُ ذاتَ النار وتُزيلها. ذاتُ النارِ لا تستطيع الاحتفاظَ بالوجودِ عند تواجد ذاتِ الماءِ. ولنرجعْ إلى الوجود والعدم؛ ذاتُ الوجودِ مناقضةٌ لذاتِ العدمِ. الوجود لا يكون إذا كان العدمُ، لأنَّ العدمَ يقضي عليه

ويجعله يتلاشى. والآن أجيبا: ما مغزى مبدأ **استحالة اجتماع النقيضين**؟.

- إيمان: حقيقة الوجود لا تجتمع مع حقيقة العدم، أليس كذلك؟.
- السيِّد ماهر: أحسنتِ، هذا هو الجواب. والآن، لنحاولْ تطبيقَ المبدأ في الواقع الخارجيِّ. هل جاء الوجود يا إيمان من العدم؟.
- إيمان: لا، مستحيل.
- ولم لا؟. ما وجه الاستحالة؟، سألها السيِّد ماهر.
- إيمان: ليس من المعقول انبثاق الوجود من عدم يسبقه.
- السيِّد ماهر: رائع. والآن، من أين جاء وجود الخالق يا يقظانُ؟ من العدم؟.
- لا يمكن، ردَّ يقظانُ.
- إيمان (معترضة): ولكن كلُّ شيءٍ يجب أنْ تكونَ له بدايةٌ.
- السيِّد ماهر: من أين جئنا بهذا المبدأ؟. لقد شاهدنا أحداثَ العالم تسبقها بداية، فظننا أن للوجود بدايةً أيضاً. ولو كان لكلِّ شيءٍ بدايةٌ فماذا سيكون بدايةُ الوجودِ؟.
- يقظان: بما أنَّ العدمَ لا يصلحُ لأن يكونَ بدايةً للوجود، فإذن لا بدايةَ للوجود.
- السيِّد ماهر: أحسنت يا يقظان. ليس لكلِّ شيءٍ بدايةٌ.

البداية تصلح لأن تكون للوقائع الحادثة فقط. والوجودُ لا يمكن أن يكون مسبوقاً بالعدم، فصفحة الحياة لم تبدأ من العدم. القاعدة هنا هي: «ليس كلُّ موجود محتاجاً إلى مُوجِدٍ وله بدايةٌ، وإنَّما كلُّ حادثٍ محتاجٌ إلى مُحْدِثٍ وله بدايةٌ».

- إيمان: ما أسهلَ فهمَ هذا! لقد كنتُ أظنُّ، كما كانت صوفي تظنُّ، أنَّه يجبُ أنْ يكونَ لكلِّ شيءٍ بدايةٌ.

- السيِّد ماهر: المُهِمُّ أنَّك فهمتِ الآن جيِّداً يا إيمان.

- إيمان: بلى سيِّد ماهر، وأجده سهلاً.

- السيِّد ماهر: هلْ تستطيعُ تلخيصَ ما مرَّ يا يقظانُ؟.

- نعم، لقد سجَّلت كلَّ شيءٍ تقريباً في دفتري. مبدأ استحالة اجتماع النقيضين هو القاعدة التي تستند عليها كلُّ الأفكار في أذهاننا، ولولاها لأصبحت المعرفةُ مستحيلةً.

- هل هذا كلُّ شيءٍ؟، سأله السيِّد ماهر.

- إيمان: سأضيف شيئا آخر. هذا المبدأ ـ أعني استحالة اجتماع النقيضين ـ يعني أنَّ الوجودَ والعدمَ لا يجتمعان لأنَّ طبيعتيهما متغايرتانِ. ومن هنا، فهمنا أنَّ الأصلَ هو الوجودُ وأنَّه لا ينبع من العدم. وعليه، ليس صحيحاً أنَّ لكلِّ شيءٍ بدايةً. فقط الحوادثُ تحتاج إلى بدايةٍ، والوجودُ لا يحدث من عدم، فليست له بداية.

- رائع يا إيمان، قال السيِّد ماهر.

- وماذا عن تلخيصي، ألم يكن رائعاً؟، تساءل يقظان مبتسماً.
- السيِّد ماهر: كانت رائعةً يا يقظان، وستكون ملخَّصاتك كلُّها كذلك إذا استمرَّت يقظتك.
- ضحك يقظان وقال: سيكون اسمي منطبقاً عليَّ ياسيَّد ماهر.
- ما عدا وقت النوم، قالت إيمان متفكِّهةً.

ضحك الجميع.

- ٢ -

هل للذهن بذور؟

- السيِّد ماهر: لنرجع إلى درسنا. ما منشأ مبدأ **استحالة اجتماع النقيضين في ذهن الإنسان**؟، بل ما منشأ سائر الأفكار في الذهن؟. هل إنَّ الذهنَ شجرةٌ كانت بدايتها مع البذور التي نمت وأصبحت أغصانا وثماراً؟. هل إنَّ الأفكار تكمنُ في الذهنِ الإنسانيِّ كما تكمن البذور في التربة؟ أم إنَّ الذهنَ بدايةً صفحةٌ بيضاءُ ثمَّ ترتسم فيه الأفكار؟.
- يقظانُ: بعض الأفكار كانت حتماً تقبع في إحدى زوايا الذهن، ثم نمت وتطوَّرت. وربَّما يكون مبدأ **استحالة اجتماع النقيضين** من ضمن هذه الأفكار.
- لا أظنُّ ذلك يا يقظانُ. يبدو لي أنَّ كلَّ شيءٍ في الذهن قد جاء من الخارج، علَّقت إيمان.
- يقظان: ولكنَّ بعضَ العلماءِ يعتقدون أنَّ للذهن أفكاراً وُجِدَتْ معه تُعرف بالبدهيَّات. البدهيَّات أفكارٌ يقينيَّة لا تقبل الشكَّ وهي موجودة في الذهن منذ وجوده. ما رأيُك ياسيِّد ماهر؟.

- السيِّد ماهر: يقظانُ تحدَّث عن اتِّجاه في الفلسفة الغربيَّة يعتقد بأنَّ الذهنَ البشريَّ يأتي إلى الدنيا حاملاً معه أفكاراً أوَّليَّة بسيطةً أطلقوا عليها الأفكار البدهيَّة. هؤلاءِ العلماءُ لحظوا أنَّ ثمَّةَ أفكاراً توجد لدى جميع البشر بنحوٍ ثابتٍ، من قبيل مبدأ **استحالة اجتماع النقيضين**، وتصوَّروا أنَّ استحصالَ مثلِ هذهِ القاعدةِ بهذا النحوِ من الوضوحِ والقوَّة غيرُ متاحٍ في أوائلِ أوقاتِ عمرِ الإنسانِ، إذ الإنسان، وكأنه ومنذ أولى لحظات حياته يفهم القاعدة، لأنه يتعامل مع الواقع على هذا الأساس، أعني على أساس كونه موجود. وعليه فقد ذهبوا إلى أن لهذه الفكرة، أعني استحالة اجتماع النقيضين وأضاف عليها ديكارت فكرة وجود الله تعالى، كانت بنحو البذور في ذهن الإنسان الوليد ونشأت مع نشوئه حتى أصبحت من أقوى البديهيات عنده. هذا الاتجاه لا يستطيع أن يقدم للمعرفة قيمة. إذ بموجب ذلك فإننا لا نستطيع أن نقيس تلك الأفكار بمقياس يكشف صدقها أو كذبها. المعرفة البديهية بموجب هذه النظرة ستصبح كاليد والرجل في الإنسان ولن تكون فكرة تقبل مناقشتها ومعرفة مدى واقعيتها ومطابقتها للحقيقة. أما فكرتك يا إيمان فلنقل بأنها صحيحة فعلا ولكنها غير تامة.

- لماذا؟.

- لأن الإنسان ومنذ نعومة أظفاره يعرف قاعدة استحالة اجتماع الوجود مع العدم.

- كيف؟ تساءلت إيمان مستغربة.

- بالطبع يعرف معرفة مبهمة جداً. إن الطفل يتعامل مع جوعه وألمه معاملة واقعية. أي يراها حقائق فهو يبكي للجوع وللألم، ولو كان ذهنه يقبل فكرة إمكان اجتماع النقيضين لعجز عن الوثوق بوجود ألمه ووجود جوعه بل بوجود نفسه. فمتى أمكنه أن يعلم ذلك؟

- هذا يؤكد على وجود الأفكار القبلية. صاح يقظان.

- كلا. هذا يؤكد على أن هذه الفكرة أيضاً قد أتت في الذهن بالإطلاع على الوجود وأنه غير العدم.

- فهمت. لا بد أن الطفل قد أدركها عندما أدرك وجوده. علقت إيمان.

- صحيح جداً مع إضافة هامة سأذكرها في درس معرفة الله. والآن هل يمكن لأحدكما أن يلخص حصيلة الدرس؟.

- عذراً يا سيد ماهر، عندي سؤال أريد أن أسألك عنه. قال يقظان.

- تفضَّل، قالها السيِّد ماهر بابتسامة مشجعة جدا.

- لم تقدم دليلاً على أن الأفكار البديهية لم تأتِ مع الذهن. كون ذلك يقضي على قيمة المعرفة لا يعد دليلاً. فليكن كذلك ولتكن كل الأفكار بلا قيمة وسيبقى هذا السؤال قائما. ما الدليل على أن الذهن لا يأتي بهذه الأفكار من ذات نفسه؟.

- كلامك صحيح يا يقظان. فعلا ، يجب تقديم دليل نستند عليه لإثبات تلقي الذهن لمعارفه من الخارج.

- ما هو الدليل على ذلك يا سيِّد ماهر؟، سألته إيمان.

- دليل ذلك كامن في تعريفنا للعلم وأنه كاشف للواقع. وبما أننا متوجهون إلى ذلك الموضوع، أرجو الانتظار قليلاً لحين تلقي الجواب الشافي.

- لا بأس يا أستاذ. ردت إيمان بكل لطف.

ـ ٣ ـ

شعاع الإدراك

- السيِّد ماهر: لننتقلْ إلى النقطة الثالثة ونتحدَّثْ عن حقيقة العلم. ما هو العلم؟.

- إيمان: معرفتي العالمَ.

- يقظان: ومعرفتي نفسي.

- أحسنتما. ولكن ما معنى معرفتي العالمَ؟.

سكتا ولم يجيبا.

- استطرد السيد ماهر قائلا: هو انكشاف العالم لكما. هل تلحظانِ أنَّني استبدلت كلمةَ «انكشاف» بكلمتكما «معرفة».

- يقظان: صار أوضح الآنَ.

- إيمان: العلم إذن هو انكشاف العالم الخارجيِّ وعالم الإنسان أيضاً. أليس كذلك يا سيِّد ماهر؟.

- السيِّد ماهر: نعم يا إيمان صحيح. دعاني أقلْ لكما إنَّ النتيجةَ التي انتهينا إليها الآنَ حول حقيقة العلم وكونه يكشف لنا الواقع لا يستطيع أحدٌ أنْ يختلفَ فيها معنا، كائناً من كان.

- كيف؟، سألت إيمان.

- السيِّد ماهر: لنحاولْ رفضَ ما تحقَّقنا منه الآن. لنفترضْ يا يقظانُ أنَّك تُنكر كاشِفِيَّةَ العلمِ للواقع. أي أنَّك تقول بأنَّ العلمَ لا يكشفُ عن الواقع.

- يقظان (مبتسماً): لنفترضْ طالما إنَّه مجرَّدُ افتراض.

- هذا الافتراض - انَّ العلمَ غيرُ كاشفٍ عن الواقع - علمٌ يا يقظانُ أم جهل؟. أعني هل إنَّك تقولها كحقيقة علميَّة أم لا؟.

- يقظان: على فرض أنَّني أعتقد بصحَّتها، نعم إنَّها حقيقة علميَّة يا سيد ماهر.

- السيِّد ماهر (مبتسماً): إذن إنَّك لم تنكرْ إطلاقاً كاشِفِيَّةَ العلمِ عن الواقع لأنَّك تطرح كلامك باعتباره علماً.

- إيمان: حقَّاً يا يقظان، السيِّد ماهر على حقٍّ.

- السيِّد ماهر: في الواقع، نحن نتأكَّد من شكوكنا بالعلم أيضاً. فعندما أسمع أمراً ما وأريد أن أتأكَّد ما إذا كنت مقتنعاً به أم شاكًّا فيه، فسوف أحتاج إلى كاشف يكشف لي ذلك، أي إنَّني بالعلم أصِلُ إلى اعتقادي أو شكِّي بذلك الأمر.

- فهمتُ جيِّداً. إنَّه أمرٌ مذهل. أذكر أنَّني كنت قد قرأت عن مدرسة الشكِّ الأوروبيَّة التي شكَّكت في كلِّ شيء. فعلى أيِّ أساس بنوا فلسفتهم أولئك الرجالُ؟، تساءل يقظانُ.

ـ السيِّد ماهر: أحسنتَ يا يقظانُ. فلقد ظهر فلاسفةٌ عِدَّةٌ في أوروبا، ظنُّوا أنَّ الطريقَ إلى المعرفة اليقينيَّة مستحيلٌ. وعليه، أعلنوا أنَّ العلمَ لا يقود إلاَّ إلى الظنِّ أو الشكِّ. لقد طرح هؤلاءِ فكرتهم تلك على أنَّها حقيقة علميَّة في الوقت الذي أرادوا أن يجرِّدوا العلم من خاصِّيَّة الكشف. في الواقع، وكما مر، لقد ساعدهم علمهم على اكتشاف شكوكهم.

ـ يقظان: عجيب حقَّاً.

ـ السيِّد ماهر: المُهِمُّ هو أنْ نعرفَ أنَّه ليس بمقدور البشر أن يُنكر للعلم خاصِّيَّتَه تلك أبداً. انتبها جيداً، سأقوم بتغيير كلمة «كاشف» وسأضع عوضاً منها كلمات أخر. سأقول: «العلم عندما يكشف الواقع يُحضره عندنا».

ـ يُحضرُ المِرِّيخَ عندنا؟، قالها يقظانُ مبتسماً.

ـ السيِّد ماهر: يُحضرُ المِرِّيخَ وغيرَ المِرِّيخِ في أذهاننا. بالعلم تتوفَّر المعلوماتُ عن المعلوم في أذهاننا. هل يُمكنكِ يا إيمان أنْ توضِّحِي لنا كيف هو شكل سطح كوكب المِرِّيخِ؟.

ـ إيمان: مع الأسف يا سيِّد ماهر لا أقدر. يبدو أنَّ قراءاتي في هذا الميدان ضئيلةٌ جِدَّاً.

ـ السيِّد ماهر: المسافةُ بيننا وبين المِرِّيخ هائلةٌ لا يُمكننا عادةً قطعُها والذهابُ إلى هناك. البعدُ هنا سببُ جهلِ

إيمان بالمِرِّيخ. ولكي يرتفعَ الجهلُ، على إيمان أنْ تقتربَ من سطحِ المِرِّيخِ. العلمُ إذن يتحقَّقُ بحضور المعلوم عند العالِم ولا يتحقَّق بغيابه عنه.

- المسألةُ تحتاجُ إلى تفكيرٍ، قال يقظان ذلك واستطرد: إنَّ لديَّ بعضَ المعلوماتِ عن المِرِّيخ وعن غيره من الكواكب، ولكنَّني استقيتها من الكتب الكونيَّة.

- السيِّد ماهر: إذن علمُك قد حصل لديك عبر وسائط. والآن لنُطلقْ على كلِّ معلومة اكتسبناها مباشرة عبر الاطِّلاع على المعلوم شخصِيّاً «العلمَ الحضوريَّ»، ولنطلقْ «العلمَ الحصوليَّ» على كلِّ علم أخذناه عبر وسيط. يقظانُ، عدِّدْ المعارفَ التي اكتسبتها حضوريّاً؟.

- يقظان: معرفتي بأمِّي وأبي وأقربائي وبيتي وحارتي ووطني.

- السيِّد ماهر: وماذا لديكِ من المعارفِ الحصوليَّةِ يا إيمان؟.

- إيمان: كثيرةٌ جِدّاً يا سيِّد ماهر.

- طيِّبٌ يا إيمان. أيُّ المعرفتين أشدُّ ثباتاً ويقيناً؟.

فكَّرت إيمانُ، فاستطردَ السيِّد ماهر:

- السيِّد ماهر: هل من الممكن للعلماء أنْ يُعلنوا غَدَاً أنَّ الماءَ الذي كانوا يعتقدون بوجودِه على سطحِ المِرِّيخِ ظهر أنَّه ليس ماءً، وإنَّما هو عصيرٌ لبعض فواكه المِرِّيخِ التالفة التي تأكسدت بسبب قسوة ظروف جوِّ المِرِّيخِ؟.

- إيمان: (مبتسمةً): ممكنٌ.
- السيِّد ماهر: ولكن هل من الممكن لكِ أن تكتشفي يوماً أنَّ مشاعرَ الحبِّ التي كنتِ تحملينها لشخصٍ ما هي في الواقع مشاعرُ بغضٍ أخطأتِ في تشخيصها؟.
- إيمان: لا يمكن.
- السيِّد ماهر: والسبب؟.
- إيمان: معرفتي بشؤوني نفسي لا تقبل الشكَّ.
- السيِّد ماهر: رائعٌ. ولكن لِمَ لا تقبلُ الشكَّ؟.
- هلْ لأنَّها معرفة... حضوريَّةٌ؟، قالتها إيمان بتردُّدٍ.
- أحسنتِ. قالها السيِّد ماهر بكلِّ حماسٍ واستطرد: قبل أنْ استرسلَ، دعونا نُرَاجِعْ ما لدينا من نقاط حول العلم. قلنا إنَّ العلمَ حقيقتُه تكمنُ في كاشِفِيَّتِه للواقع لنا. وذكرنا أنَّ حقيقتَه تلك لا تقبل الإنكارَ. وذكرنا أيضاً أنَّ كاشِفِيَّتَه للواقع تارةً تكونُ كاشِفِيَّةً مباشِرةً بحيث لا يكون بين المعلوم والعالِم به وسيط، وأخرى تكون كاشِفِيَّتُه حصوليَّةٌ بحيث يكون بيننا وبين المعلوم وسيط. والآنَ نُؤَكِّدُ على أنَّ المعرفةَ الحصوليَّة تقبلُ الخطأ، إذْ رُبَّما لا يكونُ الوسيط دقيقاً في نقل الواقع الخارجيِّ لنا، ولكنَّ هذا الاحتمالَ ضعيفٌ جِدًّاً في المعارف الحضوريَّة. هذا يعني أنَّ اليقين في المعرفة الحضوريَّة أكثر منه في المعرفة الحصوليَّة.

دعونا الآنَ نعدْ إلى حيث كنَّا، ولنقمْ بعدِّ معارفنا الحضوريَّة:

أوَّلاً: معرفتنا بذواتنا لا يكون عبر وسائط. متَّفِقَانِ؟.

- يقظان: نعم.

- ثانِياً: في ما يخصُّ معرفتَنا بمشاعرنا النفسيَّة... هل يُمكن لنا أنْ نُخْطِئَ في تمييز الحبِّ من البغض في أعماقنا تجاه شيءٍ ما؟. بالطبع كلَّا.

ثالثاً: في ما يخصُّ معرفتَنا بقوانا الإدراكيَّة، أعني أدواتَ المعرفةِ الموجودةِ عندنا... هلْ يُمكن يا يقظانُ أنْ تُخْطِئَ ولو مرَّةً فتستخدمَ سمعَك عِوَضَاً عنْ بصرِك عندما تريد رُؤْيَةَ شيءٍ ما؟. كلَّا حتْماً.

- ابتسم يقظانُ وهو يقول: فِعْلاً هذا مستحيلٌ.

- رابعاً: في ما يخصُّ معرفتَنا العالمَ الخارجيَّ.... قومي يا إيمان وحدِّقي في تلك الشجرة التي تقع خارج منزلكم.

- إيمان: لقد رأيتُها مِراراً يا سيِّد ماهر.

- السيِّد ماهر: لا بأسَ، كرِّري ذلك مرةً أخرى.

- إيمان: طيِّب. نعم... ها هي، لقد رأيتُها.

- السيِّد ماهر: كيفَ عرفتِ بوجودِها؟.

- السيِّد ماهر: لقد شاهدتُها.

- تعنين أنَّك استخدمت قوَّة من قواك الإدراكيَّة وهي قوَّة البصر.

- إيمان: نعم.

- السيِّد ماهر: وقدرتك الباصرة هل هي منطوية في ذاتك وشيء غير منفصل عن نفسك أم لا؟.

- إيمان: نعم، هي شأن من شؤون ذاتي.

- السيِّد ماهر: رائعٌ يا إيمان. إذنْ لقد ارتطم بصرُك على الشجرة فتمَّ إدراكُك لها.

- إيمان: نعم.

- عُذراً يا سيِّد ماهر أقاطعك. قالها يقظانُ بسرعةٍ وأضاف: إنَّك تريدُ القولَ: بما أنَّ عمليَّةَ إبصار الواقع الخارجيِّ تمَّت من خلال قوَّةٍ من قُوى النفس، ولأنَّ هذه القُوَّةَ غيرُ منفصلةٍ عن النفس، فالإدراكُ إذن كان حضوريَّاً. أليس كذلك؟. ولكنِّي لا أوافقك الرأيَ يا سيِّدي. فالبصرُ يُمكنُ فصلُه عنِّي بعمليَّة جِراحيَّة، وكذلك السمعُ، ويمكن أنْ تُصيبَ الألسنَ عاهةٌ ما، كما يُمكن أنْ نفقدَ حاسَّة الشمِّ، فهذه الوسائل ـ وإنْ كانت فينا ـ يمكنها أنْ تنفصلَ عنَّا.

- السيِّد ماهر: أحسنتَ يا يقظان في نقطتك ولكنَّك مع ذلك لستَ بمصيبٍ. صحيحٌ يُمكنُهم فصلُ أداة البصر وأداة السمع وأداة الذوق وأداة الشمّ من أبداننا، ولكن ليس لهم فصل المقدرة على الإبصار، والمقدرة على لقط الأصوات، والمقدرة على التذوُّق والشمّ من أرواحنا. يستطيع أيٌّ منَّا أنْ يُوصيَ بنقل بعض أعضائه بعد موته

لأحد أقربائه أو للمحتاجين أو للجمعيات الطبيَّة، كأنْ نوصيَ بمنح أعيننا لمختبرات التجارب العلميَّة، ويمكننا فعل ذلك ونحن أحياءُ أيضاً، ولكن هل يُمكننا أن نُعيرَ قوَّتنا التي بها نرى الأشياء؟. عندما تتركَّب العينانِ في الفاقدِ لهما يبدأ بمشاهدة الأشياء. تلك القدرة يا يقظانُ ظلَّت باقية فيه. نحن نتكلَّم هنا عن القدرة أو الاستعداد على الإدراك عبر النظر والسمع والشمّ واللمس والتذوُّق.

- يقظان: لقد فهمتُ الآنَ يا أستاذ ماهر.

- دعني اشرحْ أمراً يا يقظانُ. لو طلبنا الآنَ من إيمان أنْ تتذكَّر وتُحضرَ صورةَ الشجرة في ذهنها فهل سيكون استذكارها حضوريَّاً أم حصوليَّاً؟. وهل ستكون معرفتها بالشجرة حصوليَّةً أم حضوريَّةً؟.

بينما بدا على يقظان التفكيرُ قال السيِّد ماهر:

- لا بأسَ، دعْني أجبْ. عندما شاهدتِ الشجرةَ عبر أداة الإبصار يا إيمان، كانت معرفتك بها حضوريَّة، ولكن عندما تستذكرينها تصبحُ عبر واسطة. الواسطة هي الصورة الذهنيَّة عن الشجرة، فتكون المعرفة بها حصولية. ولكن، بالرغم من كون المعرفة حصولية، وجود الصورة عندنا بلا واسطة يجعلها حضورية.

- هل هذا لغز يا سيد ماهر؟، تساءل يقظان مندهشاً.

- السيِّد ماهر: كلا يا يقظان. التفتْ جيداً. أريد القول:

أولا: إنَّ معرفتنا بكل ما كنا قد شاهدناه وتعرفنا عليه حضوريا، تصبح حصولية بمجرد أن نقوم باستذكارها. ذلك لأننا ندرك الموضوع عبر صورة ذهنية.

ثانياً: ولأن هذه الصور حاضرة عندنا، تصبح معرفتنا بالصور معرفة حضورية، بينما تصبح معرفتنا عما تحكيه هذه الصور حصولية. هل فهمت ما أعني؟.

- يقظان: نعم إلى حد جيد.

- واضح جداً يا سيد ماهر، قالت إيمان واسترسلت: عالم الذهن هو عالم الصور التي تلعب دور الوسيط في معرفتنا بالعالم. لذلك معرفتنا عبرها تصبح حصولية، ولكن معرفتنا بهذه الصور نفسها حضورية.

- السيِّد ماهر: أشكرك يا إيمان. وهذا معنى القاعدة التي تقول: ما من معرفة حصولية إلا وهي مسبوقة بمعرفة حضورية.

- يقظان: إذن كل علم حصولي مسبوق بعلم حضوري. الآن قد فهمت جيدا يا سيِّد ماهر.

- السيِّد ماهر: المهم أن لا تنسيا أن الحضور يحقق العلم وأن الغياب يسبب الجهل. العلم يساوي حضور المعلوم سواء من طريق الواسطة أم من دونها.

- يقظان: ما رأيك بهذا التعبير يا سيد ماهر «الحضور توأم العلم والغياب توأم الجهل».

- السيِّد ماهر: جيد يا يقظان. هل يمكنك يا إيمان فرز حصيلتنا؟.

- إيمان: نعم يا سيِّد ماهر.

١ ـ العلم يكشف عن الواقع. لا يستطيع أحد أن ينكر ذلك، لأن كل إنكار يتضمن اعترافاً بكاشفية العلم للواقع.

٢ ـ العلم هو حضور المعلوم لدى العالم. وحضوره يكون بنحويين هما: بالذات وبالواسطة. ونطلق على الأول العلم الحضوري وعلى الثاني العلم الحصولي.

٣ ـ كل علم حصولي مسبوق بعلم حضوري، والطريق إلى المعرفة منحصر في العلم الحضوري.

- السيِّد ماهر: أحسنت يا إيمان وأجدتِ.

- عذرا يا سيد ماهر. أذكرك بالجواب الذي وعدت بتقديمه. أعني الدليل على أن الذهن لا يحوي أفكاراً مسبقة.

- طيب. التفتا جيداً: ألم نقل بأن العلم كاشف عن الواقع. ولا سبيل إلى إنكار ذلك؟.

- نعم.

- إذا كان الذهن يحمل معارف بصورة ذاتية في داخله، فهذه المعارف لن تكون قد تم اكتسابها من الواقع الخارجي. وبالتالي فإن العلم بالنسبة إليها لن يكون كاشفاً عن الواقع. يعني أنه في مورد معرفتنا بهذه الأفكار المولودة في الذهن، لا يوجد كشف عن الواقع.

- يقظان: ما هو المترتب عليه من إشكال؟.

- السيِّد ماهر: الذي يترتب عليه هو فقدان العلم لخاصية الكشف عن الواقع، وكون تلك المعارف ليست علوماً.

- كرر يقظان السؤال بإلحاح: طيب وما الباطل في هذا القول يا سيد ماهر؟.

- أولاً: ستغدو كل المعارف فاقدة للقيمة لأنها تستند على معارف أولية ليست بكاشفة عن الواقع. وثانيا: الإنسان يشهد بأن العلم كاشف عن الواقع لذا لا يرضى أن يسلب عن العلم هذه الخاصية على الإطلاق. وهنا تكمن النقطة التي تسألانني عنها.

- يقظان: النقطة الأولى مفهومة وسبق أن ذكرتها ولكننا قلنا بأنها ليست بجواب شافي. أما النقطة الثانية فلم أفهمها جيداً.

- إيمان: وأنا كذلك.

- السيِّد ماهر: حسناً. خذا نفساً قبل أن استرسل.

ـ ٤ ـ

قيمة المعرفة

ـ السيِّد ماهر: التفتا جيداً فسأضرب لكما مثالا توضيحياً. لنفترض أننا متواجدون في منزل شديد الظلمة ونريد أن نرى ما حولنا من الأشياء، فأخذنا مصباحاً وأطلقنا شعاعه حولنا. الذي سيحدث هو أن أشياء ستظهر لأعيننا بعد ما كانت في ظلام دامس. ولنفترض أن شخصاً كان معنا وقال: إن ما ظهر لنا بسبب هذا الضوء القوي، لا يدل على وجود هذه الأشياء في الخارج. لا يوجد شيء في الخارج والمصباح لم يكشف عن وجود أشياء خارجة عنه. المصباح يحوي هذه الأشياء في داخل شعاعه. القائل بأن المعارف الأولية كامنة في الذهن، يشبه كلامه كلام القائل بأن المصباح يحوي في شعاعه الأشياء، وبسطوعه يظهرها من أعماقه، ولكن، غاية ما في الأمر، نحن نظن بأنها موجودة في الخارج. فكما أن المشغل السينمائي يصدر شعاعاً على لوح أبيض ومن الشعاع تظهر الصور والأحداث، ولا توجد الأشياء في القاعة المظلمة التي يجلس الناس فيها متسمرين، هكذا هي القصة هنا. أما

القائلون بأن الذهن لا يحوي الأفكار في ذاته، هم الذين يقولون بأن المصباح كاشف للظلمة، ومبين للأشياء التي كانت مستورة تحت ستار الظلمة. والآن، كيف نثبت من هو على الحق؟. علينا أن نقوم بهذه التجربة البسيطة: لنطلق الشعاع، ونتأكد من ظهور الأشياء، ولنلمسها لنتأكد يقينا كونها موجودة في الخارج، فنكون قد تأكدنا تماماً من الموضوع وبالتالي يمكننا اختيار الرأي الصحيح. سأقوم الآن بوضع ما قلته في قالب من ألفاظ أخر: الضمان الوحيد للتأكد من كاشفية العلم للواقع هي أن نشرف على تطابق موضوع العلم (الأشياء كما في أذهاننا) بالواقع الخارجي (الأشياء في الخارج).

- إيمان: التجربة سهلة للغاية، إننا نمارسها كل يوم.

- أحسنت يا إيمان. كل يوم، نشاهد المئات من الأشياء، ولحظة مشاهدتنا لها، تنتقل إلى أذهاننا، فلا نشك إطلاقاً في واقعيتها، لأننا كنا قد أشرفنا على واقعيتها، وتطابق صورتها الذهنية معها عملياً. ولذلك لا نقبل أن نسحب عن العلم صفته تلك.

- إيمان: فهمت جيداً يا سيد ماهر.

- إذن اسمحي لي بهذا السؤال. ما هو أول إدراك أدركه الإنسان لحظة ولادته؟.

- يقظان: إدراكه لذاته حتماً.

- كنتُ قد سبقتك في الإجابة عن ذلك يا يقظان في الموضوع الفائت، علقت إيمان وهي تنظر ليقظان مبتسمة.

- السيِّد ماهر: فعلاً لقد أدرك ذاته قبل أن يدرك أيَّ شيء آخر. وإلا، فهل يعقل أن الطفل قد بكى لتألمه عند ولادته، بسبب دخول الهواء، ولأول مرة في رئتيه اللتين كانتا منكمشتين كالمظلة، وبكى للألم الذي أحدثه شد القابلات له ليخرج، دون أن يكون قد أدرك ذاته، التي تشهد هذه الآلام؟.

- يقظان: بالفعل. كيف يدرك أمرا متعلق كلياً بالنفس دون أن يدرك نفسه المتألمة؟.

- السيِّد ماهر: أحسنت. الواقع أن الألم ليس بمتعلق فحسب بالنفس، بل هو يقع في عمق النفس. هل سمعتما المقولة المشهورة جداً لديكارت: «أنا أفكر إذن أنا موجود»؟.

- إيمان: نعم.

- السيِّد ماهر: ما النقد الذي يمكن توجيهه لديكارت على كلمته هذه؟.

- يقظان: لست أدري.

- كيف توصل ديكارت إلى أنه موجود من خلال الفكر مع العلم أن الفكر شيء يخص النفس؟ في الواقع كان قد أدرك نفسه قبل أن يدرك فكره بدليل أنه قال: «أنا» قبل أن يقول: «موجود».

- فعلا، قالت إيمان بانتباه.

- إذن أول إدراك للإنسان هو إدراكه لذاته. وقد تعامل الإنسان بكل جدية مع إدراكه لذاته فتصرف وفق إدراكه، فعندما تألم بكى، وعندما زال ألمه هدأ. لقد تأكد الإنسان تلك اللحظة بأن ما ارتسم في ذهنه من تصور عن ألمه يطابق واقع ألمه في الخارج، أي في نفسه، لذا تصرف معه بكل جدية ورفض أن يقبل احتمال نقيض معرفته تلك. هل تفهمان ما أعني؟.

- نعم تماماً، قالت إيمان واسترسلت: هل يمكنني أن أقول بأن الإنسان عندما أدرك ذاته ووجوده، أدرك أيضاً بأن وجوده غير عدم وجوده، وهنا منشأ مفهوم هذه القاعدة.

- نعم يمكنك قول ذلك. وإلاّ من أين اكتسب الذهن هذه البديهية العجيبة: قاعدة استحالة اجتماع النقيضين؟ هل كانت موجودة في ذهنه؟ لو كانت كذلك لما تعامل معها معاملة جادة وكأنها منبثقة من الخارج. لكان الإنسان قد أهمل ألمه وما أظهر ردة فعل تجاهه، إن كان علمه باستحالة اجتماع النقيضين لم يكن علما كاشفا عن الخارج بل كان وجودا ذهنيا لا صلة له بالواقع. لكن كل ذلك لم يحدث.

- يقظان: لقد فهمتك تماماً يا سيد ماهر. تريد القول، بأن الذي كون حقيقة العلم، وهي كاشفيته للواقع، إطلاع الإنسان على حقيقته تلك. كل يوم، مئات الأشياء تنتقل

إلى الذهن، ويشاهد الإنسان عملية الانتقال هذه بأم عينيه. كل يوم يشاهد الإنسان كاشفية العلم للواقع الذي من حوله له، فأنى وكيف سينكر حقيقته، أو سيتنازل عنها؟.

- أحسنت يا يقظان. لقد أجبت عن سؤالك بأفضل مما أجبت عنه. لقد فاق جوابك سؤالك.

- أشكرك يا سيدي.

- أشعر بتعب يا سيد ماهر. قالت إيمان واسترسلت: هل يمكن أن نستريح قليلاً؟

- بالطبع.

شكرت إيمان السيد ماهر الذي أيضاً كان يحس بإجهاد لأنه كان واقفاً طوال الوقت. سحب السيد ماهر كرسيا وجلس عليه وبدأ بشرب الماء، بينما خرج كل من إيمان ويقظان من الغرفة، ودخل عامل المنزل ليضع على المنضدة شاياً أحمر واستأذن السيد ماهر في صبها له فأذن له شاكراً.

ـ ٥ ـ

القوة السرية

رسم السيد ماهر دائرة على اللوحة البيضاء بقلم أحمر، ثم قسم الدائرة إلى عدة أقسام، وكتب في كل قسم شيئا. القسم الأول كتب فيه: «أرض، سماء، بحر، شمس، تفاح، سيارة». وكتب في القسم الثاني من الدائرة: «إنسان، حيوان، نبات، جماد، لون، فاكهة». وكتب في القسم الثالث: «حبّ، كره، ألم، لذَّة». وفي القسم الأخير كتب: «وجود، عدم، علة، معلول، غنى، فقر». ثم قال:

- من أين اكتسب الذهن معرفته الأسماء المكتوبة في القسم الأول من الدائرة؟.

- يقظان: هذه الأشياء موجودة في الخارج يا سيد ماهر.

- السيِّد ماهر: أحسنت. حتماً قد أتت من الخارج. وما هي الأداة التي ظفرت بها هذه الأشياء؟.

- إيمان: الأدوات الحسية؟.

- السيِّد ماهر: بالطبع يا إيمان. وماذا عن الأشياء الموجودة

في الدائرة الثانية؟. دعونا أولا نعرف الفروق بينها وبين الأشياء التي مرت علينا.

- يقظان: هذه أسماء جامعة لتلك. الجماد اسم دال على عدد غير نهائي لأفراده، واللون والحيوان والإنسان كذلك.

- السيِّد ماهر: لنطلق عليها «المعقولات الأوليَّة» يا يقظان.

- إيمان: ولماذا هذه التسمية الغريبة؟.

- السيِّد ماهر: لأنَّها تدلنا على الكيفية التي تم بها اكتشافها.

- يقظان: لم أفهم.

- السيِّد ماهر: هذه المفاهيم، أعني مفهوم «الإنسان» ومفهوم «الحيوان»، و...

- عذراً يا سيد ماهر على المقاطعة، ولكن ما معنى كلمة مفهوم؟، سأله يقظان.

- «المفهوم» هو ما نفهم منه نحن ـ البشر ـ. ما نفهمه من كلمة «إنسان»، ومن كلمة «حيوان»، وهكذا.

- يقظان: واضح.

- السيِّد ماهر: هذه الكلمات أسميناها «معقولات» لأن العقل هو الذي اكتشفها بمعونة الحس خلافاً لفريق من العلماء الذين ظنوا أن الحس هو الممون لها دون العقل.

- إيمان: اشرح لنا ذلك يا سيِّد ماهر.

- السيِّد ماهر: يظن البعض أن أدوات المعرفة منحصرة فقط

في الحس، ولذلك فقد قال هؤلاء بأن الحس هو الممون الوحيد لسائر المعارف الموجودة عندنا نحن البشر. هذه النظرية تسمى بنظرية أصالة الحس في المعرفة. ولكن هذا التصور ليس بصحيح.

- إيمان: لماذا؟.

- السيِّد ماهر: قومي يا إيمان ودليني على جماد ما في هذه الغرفة.

- إيمان: الغرفة مليئة بالجمادات يا سيِّد ماهر.

- يقظان: الكتاب الذي تمسكه بيدك يا سيِّد ماهر جماد.

- السيِّد ماهر: كلا. الكتاب كتاب والجماد اسم جامع لعدد لا نهائي من أفراده وأحد هذه الأفراد هو هذا الكتاب.

- ما الذي تريد قوله يا سيد ماهر؟.

- السيِّد ماهر: الجماد، لا يتمثل لنا في كائن مشخص فكيف أدركناه بالحواس؟. الحس يتعلق بالأفراد والأشياء ولا يوجد في الخارج كائن اسمه جماد يمثل سائر الجمادات وبعدد لا نهائي منهم حتى نراه فنقول بأن إدراكنا له راجع إلى رؤيتنا لشخصه. فضلا عن أن حصر عدد لا نهائيٍّ لأي شيء غير ممكن من طريق الحواس. بأي أداة تمكنا من أن نتخيل العدد اللانهائي من أفراد الجماد؟ بالحواس؟ لا يمكن لأي من الحواس الخمس أن تحصي عدداً لا نهائياً من الأفراد كما هو واضح. الواقع إن هناك أداة سرية من أدوات المعرفة استعانت بالحس

وابتكرت هذه المفاهيم التي أسميناها «معقولات» لأنها تدل على منشأ تواجدها في الذهن.

- يقظان: لاحظ الإنسان تشابهاً بين بعض الكائنات، مثل إنسان وآخر، فأطلق عليهم جميعا اسم «إنسان». ما المانع من ذلك؟.

- السيِّد ماهر: لكن بأي قوة من هذه القوى أدركنا التشابه؟ هل التشابه شخص قائم في الخارج حتى يلقطه لنا البصر، أو السمع؟.

- إيمان: تعني أن العقل هو الذي ابتكر التشابه وابتدع الكليات فلذلك أسميناها «معقولات»؟.

- السيِّد ماهر: نعم بالضبط. وبعبارة دقيقة: نظراً لعدم وجود شخص يجسد الكليات حتى تقوم الحواس بنقل صورته إلى الذهن، تحتم القول بوجود قوة أخرى ابتكرت الكليات مستفيدة من معطيات الحس.

- إيمان: ولماذا أسميناها «معقولات أولية»؟.

- السيِّد ماهر: «أولية» تدل على أول أعمال القدرة العقلية. يعني أن للقوة العقلية عدة أعمال، ولكن أولى أعمالها هي ابتكار المفاهيم الأولية. وليكن في معلومكما أن هذه المفاهيم يطلق عليها أيضا «الكليات» لأن هذه المفاهيم تدل على سائر أفرادها بلا استثناء. ولننتقل إلى القسم الثالث من الدائرة. ماذا ترون فيه؟.

- إيمان: أربع كلمات هي «الحب» و«الكره» و«الألم» و«اللذة».

- السيِّد ماهر: نعم. وما منشأ هذه المفاهيم؟.

- يقظان: هذه المفاهيم تحدث في النفس لا الذهن.

- رائع يا يقظان، رد السيد ماهر واسترسل: تحدث في النفس كما أسلفت، لكن يحدث في الذهن شيء آخر بإزاء ما يحدث في النفس. في الذهن يحدث إدراك لذلك الحدث النفساني. هذا الإدراك يتشكل من مفاهيم يتم عبرها معرفة ما جرى في النفس.

- إيمان: كيف؟ لم أفهم شيئا!.

- السيِّد ماهر: عندما أحببنا شيئاً وأبغضنا آخر، جرى ذلك في أنفسنا، ولكن كوّن ذهننا فوراً في عالمه الخاص مفهوما عن هذا الحب ومفهوما عن ذلك الكره. يعني تكوّن في الذهن فهم للحب وفهم للكره، ولولا ذلك لعجزنا عن التفريق بينهما أبداً.

- إيمان: هل تعني أن الحب والكره بعد أن يزولا، نستطيع أن نتعرفهما عبر ما تكوّن في الذهن من أثر لهما؟.

- السيِّد ماهر: تماما يا إيمان. والآن بأي أداة نتعرف هذه المفاهيم؟.

- إيمان: عبر أحاسيس باطنية؟.

- السيِّد ماهر: رائع جداً يا إيمان. فعلاً، فهناك أدوات حسية في أبداننا، وهناك أحاسيس في أنفسنا، يسميها البعض «الحس الباطني»، وتعرف بالوجدانيات، لأننا نجدها في ذاتنا مباشرة. الواقع أن الحس الباطني مصطلح لا يخلو من مسامحة، فنحن لا نحتاج إلى أداة لمعرفة ما في أنفسنا. علمنا بأحوالنا حضوري جداً فلا وسائط ولا أدوات بيننا وبين ذواتنا. أرى أن الوجدانيات أقرب وأصح من الحس الباطني، إلا إذا قصدنا به الوجدان المباشر أو العلم الحضوري.

- إيمان: واضح جدا يا سيِّد ماهر.

- السيِّد ماهر: والآن القسم الأخير من الدائرة. ترون أن فيها الكلمات «وجود» و«عدم» و«غنى» و«فقر» و«علة» و«معلول»، ويمكن أن نضيف مفهوم «التعلق» ومفهوم «الاستقلال»، وأمثال ذلك من المفاهيم. هذه المفاهيم تعرف بـ«المعقولات الثانية» أو «المعقولات الفلسفية» أيضاً.

- إيمان: أظن أنني أستطيع استنتاج سبب هذه التسمية. «المعقولات» تعني أن الحواس لم تدركها بل العقل أدركها. و«الثانية» تعني كونها ثاني أعمال القوة العقلية. أليس كذلك؟.

- السيِّد ماهر: بلى يا إيمان. هذا ذكاء شديد منك. لم يرَ أحد العلة ولا المعلول. لقد شاهدنا حدثا يُوجد حدثاً آخر. ركلك للكرة يا يقظان سبَّب في انطلاق الكرة. ولكن

قدرتنا السرية أدركت مفهوم العلة والسببية من حركة ركلك للكرة وانتزعت مفهوم المعلول من اندفاع الكرة بتأثير الركلة.

- يقظان: لقد قرأت يا سيِّد ماهر أن الفيلسوف دافيد هيوم أنكر السببية.

- لم أكن أعلم أن لك إطلاعات سرية على النظريات الفلسفية يا يقظان، علقت إيمان وهي تنظر إلى يقظان مبتسمة.

- السيِّد ماهر: نعم يا يقظان. لم ينكر هيوم اندفاع الكرة. لكنه فصل بينها وبين الركلة، وقال بأنه لا توجد ثمة رابطة بين ركلتنا وانطلاق الكرة. هذان حدثان وقعا عقب بعض ونحن جعلنا الأول سببا للثاني بينما الأمر ليس كذلك في الواقع بحسب رأيه.

- إيمان: وما جوابنا إذن؟.

- السيِّد ماهر: إنَّ الذي جعل هيوم يختار هذا الرأي هو عدم اعترافه بأداة للمعرفة خارج نطاق الحس. لقد أدرك هيوم أن المفاهيم التي أسميناها المعقولات الثانية لا تجلبها الحواس في الذهن. ووفقا لرأيه، المعرفة محصورة فيما تجلبه الحواس فقط إلى الذهن. وعليه أنكر وجود السبب والمسبب لأنه باعترافه بهما سيكون قد اعترف ضمنا بوجود أداة فوق الحس تمون الذهن بالمعرفة.

- ولماذا نسمي هذه المعقولات المعقولات الفلسفية؟.

- السيِّد ماهر: لأنها تستخدم في علم الفلسفة. الفلسفة تستند عليها في بحوثها.

- إيمان: لنرجع إلى الإجابة.

- السيِّد ماهر: لقد شاهد الإنسان ذاته وشاهد آلامه وجداناً، وشاهد أسباب وقوعها وجداناً، وشاهد تعلقها بالأسباب، وزوالها بزوال أسبابها، فأدرك السببية وآمن بها جزماً. بالوجدان يشاهد الإنسان كيف تستند قواه الإدراكية ومشاعره النفسية على وجود ذاته، بالوجدان يشاهد الأسباب التي تؤدي إلى انبثاق مشاعره المختلفة في نفسه؛ حبه، بغضه، ألمه، جوعه، لذته. وبالوجدان يشاهد زوال مشاعره وتبدلها لأسباب يعرفها قطعاً ويشاهد تمام تعلقها بها، هذه مشاهدات وجدانية لا تقبل الشك.

- إيمان: إذن الممون الرئيس لهذه الأفكار هو العقل أيضاً؟.

- السيِّد ماهر: نعم. لكن ليس بمعونة الحواس الخارجية بل بمعونة الحواس الباطنية أو بالوجدان المباشر.

- يقظان: لماذا؟.

- السيِّد ماهر: لأن الحوادث التي تؤدي إلى نشوء هذه المفاهيم تجري على النفس منذ اللحظة الأولى من الولادة. القدرة العقلية لا تحتاج إلى انتظار وقوع هذه الحوادث في تعامل الإنسان حسيا في الخارج، بل تباشر

عملية إدراك هذه المفاهيم من مخزون الأحداث النفسية والمعنوية.

- قال يقظان: مفهوم جداً.
- السيِّد ماهر: الآن تأملا هذا الجدول:

التسلسل	المفاهيم	طريق الإدراك
١	الكائنات الخارجية من قبيل الناس والأحجار والبحار	الحواس
٢	الكليات أو المعقولات الأولى	العقل بمعونة الحواس
٣	المشاعر المعنوية وقوى النفس الإدراكية	الوجدان
٤	المعقولات الثانية	العقل بمعونة الوجدان

والآن، لو سألتكما عن الأداة الأشد قوة في الإدراك والتي لولاها لاستحالت المعرفة، بحيث يمكن القول أنها هي الأداة الأهم للمعرفة، بالطبع دون إنكار الأدوات الأخرى، فما هي برأيكما؟.

- يقظان: الحس. لولا الحس لما أمكن للإنسان أصلا أن يدرك الكائنات في الخارج وما أمكن للعقل معرفة **المعقولات الأولى** ولا الثانية.
- اعترضت إيمان: ولكن لا صلة للحواس في إنتاج **المعقولات الثانية**.
- يقظان: أتفق في أن الممون هو الوجدان لأجل ابتكار

العقل للمعقولات الثانية، ولكن لو لم تكن في العقل معقولات أولى لاستحال له ابتكار الثانية. لا تنسي يا إيمان أن المعقولات الثانية أوصاف وحالات للمعقولات الأولى ولأفرادها. ما رأيك يا سيِّد ماهر؟.

- السيِّد ماهر: لو ولد الإنسان بلا حواس يا يقظان لما أمكنه فعلا معرفة الكائنات، ولكن هل كان متعذرا عليه معرفة شؤونه النفسية؟.

- يقظان: كلا.

- السيِّد ماهر: لقد كان ممكنا جدا أن يعرف الإنسان ذاته بلا حواس، ويعرف مشاعره بلا حواس، ويعرف المفاهيم العقلية الثانية بلا حواس أيضا لأنه ينتزعها من أعماقه. ولأمكن له أن يدرك استحالة اجتماع النقيضين لأنه أدرك وجود ذاته وأن عدمها غير متحقق. يعني لأمكن له أن يبني صرح المعرفة وإن كان بلا حواس. المعرفة لن تصبح مستحيلة لو فقد الإنسان كل حواسه.

- إيمان: إذن الوجدان هو الأساس في المعرفة. لولا الوجدان، لما عرف الإنسان شيئا على الإطلاق. ما رأيك يا سيِّد ماهر؟.

- السيِّد ماهر: الوجدان هو الينبوع الأساسي للمعرفة، سبق أيضا أن أسسنا قاعدة أن «كل علم حصولي مسبوق بعلم حضوري»، أي أن العلم يساوي الحضور. ولكن، ومع كل ما مر، يجب القول أنه لولا الذهن الذي تقبع فيه سائر

المفاهيم لما استفاد الإنسان حتى من الممون الأساسي له بالمعرفة. الأداة التي تستفيد من عطاء الوجدان ومن عطاء الحواس هي العقل، فهو الذي ينهض بمهام بناء صرح المعرفة. بالعقل تتم عملية الفهم بصورة عامة. المفاهيم والكليات وحالاتها ترجع إلى دور العقل في بنائه للذهن. هل رأيتما الفراشة كيف تحوم حول النار؟ عندما تلسعها الشمعة تتراجع لأنها وجداناً أحست بلسعة النار، ولكنها تعود مجددا لتحوم حول النار معرضة نفسها للهلاك، لماذا؟ لأنها لا تملك ذهناً يحوي مفاهيم تتعامل مع الحياة بها. لا يوجد لدى الفراشة مفهوم عن الألم لكي تستذكره فلا تقدم على العودة إلى الشمعة. الفراشة ليس لها عقل يصنع الذهن ويؤسسه بتزويده بالمفاهيم. بالرغم من أن الوجدان موجود وقد أعطى للفراشة حساً بالألم وإلا لما ابتعدت عندما لمستها النار. الخلاصة: هناك من يعطي المواد الخام، وهناك من يجلب الطوب والطين والماء، ولكن الذي يستفيد منها فيخلطها ويبني صرح المعرفة هو العقل. الأصالة في المعرفة يا إيمان هي للعقل، ولكن لا يعني ذلك تهميش دور بقية الأدوات في تحقق المعرفة.

- إيمان: فهمت يا أستاذ ماهر.
- يقظان: لقد شدني مثال الفراشة يا سيد ماهر. إنه متقن جداً.
- السيِّد ماهر: إنه لصدر المتألهين يا يقظان. لقد استعرته منه.

ـ ٦ ـ

من يدير غرفة التحكم؟

- قال السيد ماهر: مضى ثلثا النهار، وبقي الثلث الأخير وموضوعنا أيضاً قرب من النهاية. قلَّ نشاطك يا يقظان.

- يقظان: نعم فعلا. أعذرني. سأصب شيئا من الشاي الأحمر فلعله ينشطني.

- وأنت يا إيمان.

- إيمان: أفضل القهوة العمانية.

- السيِّد ماهر: إذن سأفعل الشيء ذاته يا إيمان. فكري في هذا السؤال وأنت تصبين القهوة: ما هي أدوات المعرفة التي مرت علينا لحد الآن؟.

- إيمان: الحس والعقل.

- يقظان: والوجدان.

- السيِّد ماهر: الحواس من أدوات المعرفة. إنها الجواسيس التي تجلب لنا العالم الخارجي في أذهاننا. والعقل طاقة إبداعية هائلة يبتكر الكليات، وينتزع من حركة الكائنات

أحوالها الخاصة، ويكتشف ارتباطاتها ببعضها البعض. أما الوجدان فهو أداة أيضاً به نتصل بذاتنا عبر العلم فنكتشفها ونعرف أوضاعها الداخلية. تذكران أنني كنت أرى أن للعقل الدور الأضخم في بناء صرح المعرفة؟.

- إيمان: نعم. نتذكر.

- السيِّد ماهر: سوف تتيقنان من ذلك الآن أكثر. جلب البصر صورة الشجرة في الذهن، ولم يفعل غير هذا أبداً لأن مهمته هي هذه فقط. إنه يتجسس لصالح النفس فيعطيها صور الكائنات، كما أن المصور يلتقط صور الأشياء. ولكن من الذي أكد للمشاهدين أن هذه الصور التي التقطتها عدسة المصور موجودة فعلا؟ من الذي قال للنفس بأن الصور التي نقلتها عدسة العين عن العالم الخارجي موجودة حتما؟ وما ينقل السمعُ من أخبار متحققة فعلاً؟.

- يقظان: سؤال وجيه.

- السيِّد ماهر: إنه العقل فحسب. هناك قوة تشرف على الصورة القادمة وتشرف على تطابق مضمونها بما تحقق في الذهن عنها. إنها القدرة الهائلة المبدعة. وبعبارة أخرى إنه العقل.

- يقظان: عجيب حقاً.

- السيِّد ماهر: أزيدكما من الشعر بيتاً؛ هل تؤمن يا يقظان بأن أنشتاين كان موجوداً؟.

- يقظان: نعم. حتماً وبلا ريب.
- السيِّد ماهر: لكنك لم تره أبداً.
- إيمان: صحيح نحن لم نره، ولكن ليس بوسعنا أن نكذب العالم بأسره، ونكذب العلماء الذين عاصروه، وكتبوا عن إنجازاته.
- السيِّد ماهر: رائع. ولكن من الذي ألهمكما هذا الموقف؟ من الذي قال لكما أن تواطؤ الجميع على افتعال الكذب أمر غير معقول؟ إنه العقل. إذ لا يوجد مبرر آخر لانبعاث هذه الفكرة في الذهن. الحواس لا تولد الأفكار. استحالة اجتماع أناس عديدين من مختلف الأماكن على الكذب وافتعال شخصيات لا وجود لها، أمر غير مقبول عند قدرة ما. هذه القدرة لها سيطرة على سائر القدرات الأخرى الفكرية، بحيث إن كل القدرات الثانية، تخضع لقرار هذه القدرة. تلك القدرة التي لا تقبل هذا النوع من الأمر وتراه محالاً. هذه القدرة هي العقل؛ غير العقل من حواس ووجدان لا يمتلكان هذه الخصوصية.
- يقظان: بدأت أفهم الآن.
- السيِّد ماهر: اجتماع الناس بمختلف مشاربهم على وقوع أمر ما أو عدم وقوعه يسمى بالتواتر. التواتر يمنح له العقل قيمة كبيرة، ويرى أن صدور الكذب لا يتوافق مع التواتر. لنفترض أن زملاء ثلاثة جلسوا في غرفة التحكم. الأول دوره رفع تقرير عما يجري داخل المبنى بأكمله، باستثناء

نفس تلك الغرفة التي يجلس هؤلاء الثلاثة فيها، والثاني دوره رفع تقرير عما يجري في غرفة التحكم والقيادة هذه. أما الثالث، فدوره الإطلاع على هذه التقارير وإصدار الأحكام المناسبة. لو جاء الثالث تقرير عن تعاقب ظاهرة النار وظاهرة ارتفاع الحرارة، يحكم بأن النار علة وسبب لارتفاع الحرارة. ولو جاءه تقرير عن اتفاق عدة من أفراد البشر من مناطق متعددة من العالم على وجود رجل كان يدعى ابن سينا، فسوف يقبل منهم لأنه لا يصدق أن يجتمع هؤلاء بمختلف جنسياتهم على الكذب، إذ لا يرى المصلحة الداعية لهم على ذلك. غرفة التحكم هي النفس، ورافع التقارير عن المبنى هو الحواس، ورافع التقارير عن غرفة التحكم هو الوجدان، أما مصدر الأحكام فهو العقل.

- إيمان: ما أعجب ذلك؟.

- السيِّد ماهر: لولا العقل لاستحالت المعرفة. في الواقع هي القوة المفكرة فينا. يقوم العلماء بالبحث والتنقيب عن الأدوية لعلاج مختلف الأمراض. وعندما يكتشفون دواءً ما يجربونه على عدد من أفراد البشر، إذ ليس متاحاً لهم تجربته على عدد لا نهائيٍّ من البشر، لكنهم مع ذلك، يصدرون الدواء لكي يتناوله سائر البشر ويعتقدون بأنه سيعالج المرض حتى في أولئك الذين لم تتم التجربة على أبدانهم. فعلى أي أساس استندوا في ذلك؟ القدرة العقلية ترى بأن حكم الأمثال فيما يجوز ولا يجوز واحد.

- يقظان: ماذا تعني بقولك «حكم الأمثال فيما يجوز ولا يجوز واحد».

- السيِّد ماهر: حكم الأمثال يعني الحكم على الأشياء المشابهة لبعضها من جميع النواحي. حكم حديد في مسقط ونفس الحديد في بيروت يجب أن يكون واحداً. العقل يقول بأن حكمهما يجب أن يكون نفسه لأنهما أمثال بعض. فلو تمدد الحديد في مسقط بفعل الحرارة، فإن الحديد في بيروت يجب أن يتمدد كذلك بفعل الحرارة. القدرة التي جعلت هذا الحكم في الأول سارياً في الثاني أيضاً، وفقا للتماثل، هي العقل، لأنه لا قابلية للحواس ولا الوجدان لإصدار الأحكام.

- يقظان: لقد فهمت جيداً يا سيد ماهر. العقل يلعب دوراً ضخما في بناء صرح المعرفة.

- ينقلون أن رجلا يدعى أبا شاكر الديصاني، كان منكراً للألوهية، حاور الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ذات يوم حول المعرفة، وإنها تتحقق عبر الحواس، فقال: «**إنا لا نقبل إلا ما أدركناه بأبصارنا أو سمعناه بآذاننا، أو شممناه بمناخرنا، أو ذقناه بأفواهنا، أو لمسناه بأكفنا، أو تصور في القلوب بياناً، أو استنبطه الرويات إيقاناً**»[1]. أي أن الديصاني لا يستند إلا على الحواس في المعرفة. فرد

---

(١) الصدوق، محمد بن علي: التوحيد ص٧٦.

الإمام الصادق عليه السلام عليه قائلاً: «**ذكرت الحواس الخمس وهي لا تنفع شيئا بغير دليل كما لا يقطع الظلمة غير مصباح**»[1]. الإمام الصادق عليه السلام يشير إلى قوة أخرى لولاها لما أفادت الحواس في المعرفة شيئاً.

- إيمان: يا إلهي. مثل هذه المحاورات كانت موجودة في ذلك الزمان؟.

- السيِّد ماهر: بلى يا إيمان. المنكرون للألوهية أنكروها لإنكارهم وجوداً خارج إطار المادة. أولئك كانوا يستندون على الحواس في المعرفة. وكان الأولياء الهادون إلى الله ـ تعالى ـ يناقشونهم ويفندون أفكارهم.

- يقظان: هذا الذي يمارسه العقل من اصدار الأحكام، لم يكن مقدورا له ذلك لولا وجدانه بالعلم الحضوري هذه الأحوال من خلال النفس. هل هذا صحيح يا سيد ماهر؟.

- السيِّد ماهر: بلى يا يقظان. إن ما قلته الآن هو عين الحقيقة والصواب. في الواقع، بعد الإطلاع الوجداني على حقيقة النفس وكيف تتعلق أحوالها بها وتستند عليها، يتحرك العقل وهو يحفظ عن ظهر قلب هذا النموذج، فإذا شاهد في الواقع الخارجي مثيلا للواقع النفسي، أصدر ذات الحكم الذي أصدره عند مشاهدة واقعية النفس

---

(١) المصدر السابق ص٧٦.

بالوجدان. لنرجع إلى ما كنا فيه، أدوات المعرفة إذن هي الحواس والوجدان والعقل.

- إيمان: عفواً يا سيِّد ماهر، لماذا لا نقول أن أداة المعرفة هي العقل فقط وله مساعدان هما الحواس والوجدان؟.

- سكت السيد ماهر متأملاً ثم قال: قد تكونين مصيبة يا إيمان، ولكنني أحتاج إلى مزيد من التأمل.

سجلت إيمان ملاحظة حول ذلك في دفترها. لاحظ السيد ماهر ذلك فقال لها:

- سجلي يا إيمان أمراً أريدكِ أن تذكريني به إذا نسيتُ. أن أتحدث عن أداة القلب في المعرفة وصلتها بالعرفان.

- إيمان: أليس من المناسب أن نطرحه الان في موضوع المعرفة؟.

- السيِّد ماهر: كلا. لأن بعض مقدماته الهامة ستأتي لاحقاً.

- إيمان: كما تشاء يا سيِّد ماهر. لقد سجلت ذلك.

- السيِّد ماهر: أشكركِ.

- إيمان ويقظان: بل الشكر موجه لك أنت يا سيد ماهر.

ـ ٧ ـ

من المعلوم إلى المجهول

- السيِّد ماهر: لنرجع إلى حيث كنا. عرفتما جيداً أن منضدة الأفكار هي **قاعدة استحالة اجتماع النقيضين**.

- يقظان: نعم.

- السيِّد ماهر: وعرفتما أيضاً مصدر هذا اليقين كذلك.

- إيمان: نعم. سبب شدة اليقين في هذه القاعدة راجع إلى أننا عرفناها عبر الوجدان والعلم الحضوري.

- يقظان: وتأكدنا من صدق مفهومها عندنا لأننا أشرفنا على تطابق مفهومها بمنشأ انتزاعها.

- السيِّد ماهر: رائع حقاً. وعرفتما كذلك شدة اليقين في **المعقولات الأولى والمعقولات الثانية**. طيب يا إيمان... ما تفسير هذا اليقين القوي في **المعقولات الأولى**؟.

- إيمان: بعدما انتقلت صور الأشياء في الذهن عبر الحواس، انتزع العقل منها الكليات. إن هذا الانتزاع يكون بالعلم الحضوري لأن صور الأشياء حاضرة فينا.

- أكمل يقظان: أما يقيننا بالمعقولات الثانية فعائد إلى اكتشاف العقل وانتزاعه لها من أوضاع النفس الداخلية بالعلم الحضوري أيضا لأن هذه الأوضاع أوضاع النفس.
- السيِّد ماهر: جيد جداً أيها البطلان. والآن، لو جعلنا المعقولات الأولية والثانية مقياساً، بحيث نقيس صحة كل معرفة بهذا المقياس، هل نكون قد ضمنا السلامة لأفكارنا؟.
- يقظان: هل يمكنك التوضيح أكثر؟.
- السيِّد ماهر: لقد علمنا أن الوجود لا يأتي من عدم، فلو قال لنا قائل، سارتر مثلاً: إذا كان الله موجودا فمن أوجده؟ يجب أن يكون له أيضا بداية. فماذا نفعل؟.
- يقظان: لا نقبل ذلك أبداً.
- السيِّد ماهر: ولِمَ؟.
- يقظان: لأن الوجود لا يأتي من عدم. هذا تناقض صارخ.
- السيِّد ماهر: أحسنت.
- هل قلت سارتر يا سيِّد ماهر؟، قال يقظان.
- السيِّد ماهر: نعم. جان بول سارتر ألف كتاباً بعنوان: **لماذا لم أكن مسيحياً؟** ذكر فيه أن سؤال «من أين جاء الله» كان يراوده كثيراً وهو طفل، ولم يجد له جواباً نهائياً لذا فقد تملص كليا من الاعتقاد بالأديان، سواء الدين المسيحي أو غيره.

- إيمان: سبحان الله. بينما تجيب عنه الفلسفة الإسلامية بمنتهى الدقة.

- السيِّد ماهر: لنرجعْ إلى ما كنا فيه. إذن اعتمدنا في رد الشبهة على معارفنا اليقينية. وهكذا فلو ثبت لدينا أن هذا العالم حادث، وقال قائل بأنه أزلي وغير مسبوق بالعدم، فهل نقبل؟.

- إيمان: كلا، لأن في ذلك تناقضاً صريحاً؛ كيف يكون حادثاً وفي نفس الوقت غير مسبوق بالعدم؟.

- السيِّد ماهر: علينا إذن الاعتماد على معارفنا اليقينية لكسب معارف جديدة. بذلك نضمن صدقها أيضا. يُدرس ذلك في علم المنطق مفصلاً. والفلسفة الإسلامية تعتمد على هذا الأسلوب في تحقيقاتها.

- يقظان: هل قلت «علم المنطق»؟ ذاك الذي وضعه الفيلسوف اليوناني الكبير أرسطو؟.

- السيِّد ماهر: نعم. إن النظرية التي يؤمن بها الفلاسفة المسلمون حول معيار الحقيقة، هي ذاتها التي كان أرسطو يعتقد بها. المعيار هي المعارف البدهية أو التي تنتهي إلى البدهيات. مثلا: لو أعتقدنا أن الزاوية أ = الزاوية ب، والزاوية ب = الزاوية ج، ونجهل ما إذا كانت الزاوية ج = الزاوية أ، فماذا سنفعل؟ لن نتردد للحظة في أن نقرر بتساوي الزاوية أ والزاوية ج، وذلك لأن قانون المساواة من القوانين البدهية التي يدركها العقل في الأمور الكمية.

- يقظان: لا يبدو أن الفكر الغربي الحديث مرتاح من هذا الأسلوب في المعرفة.

- السيِّد ماهر: فعلاً. فقد زعم فرانسيس بيكون أن **المنطق الأرسطي** عديم الجدوى، ودعا إلى **المنهج التجريبي** كبديل عنه. وهكذا نشأت الفلسفة الغربية الحديثة على عدم الاعتراف بـ **البدهيات العقلية** وإنكار قيمتها اليقينية كلياً. في الواقع إن التجربة نفسها مستندة على **البدهيات العقلية**. لولا إدراك العقل لقاعدة «حكم الأمثال واحد» لما أمكن تعميم التجربة العلمية على الإطلاق.

- كيف لا يلتفت علماء الغرب إلى مثل هذه القضية الواضحة؟ تساءلت إيمان بتعجب كبير.

- السيِّد ماهر: الحديث ذو شجون يا إيمان، والأولى تركه.

ـ ٨ ـ

الأفكار...هل أستطيع لمسها؟ لنكتشفْ عالم التجرد

- السيِّد ماهر: وصلنا إلى آخر نقطة في الموضوع. لا شك أنكما سمعتما أن الإنسان كائن يتكون من بعدين؛ بعد مادي، وآخر روحي.
- يقظان: نعم سمعنا بذلك وأنا شخصياً أعتقد به.
- إيمان: إن المضامين الدينية تؤكد على ذلك بشدة.
- السيِّد ماهر: الفلسفة الإسلامية وتقيم أدلة عليه.
- إيمان: هلا أطلعتنا عليها؟.
- السيِّد ماهر: بالتأكيد. ولكن، ونظراً لأننا نتحدث حالياً عن العلم والمعرفة، فليكن إثباتنا لوجود البعد الروحي فينا يمر عبر العلم والمعرفة.
- يقظان (مندهشاً): كيف؟.
- إذا كنا أرواحاً في أجساد، فلا شك أن وعينا بالعالم سيكون متصلاً بكياننا الروحي.

- يقظان: فعلاً.

- السيِّد ماهر: وهذا يعني أن علومنا وأفكارنا، ومعارفنا ووعينا، ظاهرة غير مادية. إنها ظاهرة متعالية عن أفق المادة. العلم مجرد من المادة.

- هذا غير معقول، قال يقظان باندهاش.

- السيِّد ماهر: وما وجه عدم معقوليته يا يقظان؟.

- يقظان: العلم أثبت أن المعارف تكمن في خلايا الدماغ في شكل شحنات كهربائية.

- إنك تعرض رأي بعض العلماء يا يقظان وليس كلهم. هناك من العلماء من وصل، بعد بحث دام سنوات، إلى خلو الدماغ من العلوم والمعارف كلياً.

- يقظان: هل لك أن تشير إلى بعض من أولئك العلماء؟.

- ظهر في الآونة الأخيرة «كارل بريبرام» الذي تخصص بشكل عميق في علم وجراحة الأعصاب. كان منهمكاً في مختبر له في «ستانفورد» يريد فهم العمليات الدماغية في الثدييات العليا على نحو عام. قضى ردحا من الزمن في جراحة الدماغ، وأشرف على تجاربه الدكتور «كارل آشلي» الذي أنفق ٣٠ عاماً في البحث الجاد الرصين في دراسة الأثر المخلف في الدماغ. كان يدرب حيواناته التي أرادها أن تكون موضع تجربته. كان يخرب أقساماً من أدمغتها ينتقيها بنفسه، لأجل معرفة موضع التعليم والتفكير من

الدماغ. وكم كانت دهشته عظيمة عندما توصل وبعد تجارب عديدة، وبعد انقضاء وقت قصير من تدمير خلايا الدماغ، أن ما تعلمته هذه الحيوانات ظل باقياً كما هو. يعني أن اجتثاث المعرفة من أدمغتهم مستحيلة.

- إيمان: مذهل.

- يقظان: معنى هذا أن المعرفة...

- لم تكن تقطن الدماغ يا يقظان، وإلا لتأثرت واضطربت على أقل التقادير، قال السيِّد ماهر.

- يقظان (مذهولاً): حقاً أستاذ ماهر.

- السيِّد ماهر: كنت أتكلم عن «بريبرام»...

- إيمان: فعلاً لقد نسيناه.

- السيِّد ماهر: لقد كان منزعجاً جدا لعجزه عن سبر غور المعرفة وعلاقتها بالدماغ. وبعد تفكير وجهد مضنٍ، توصل إلى أن ثمة وعياً يسكن الدماغ يترجم الإشارات ويفهمها فهما جيداً. وكان يتساءل: هل فعلا ما قاله الأقدمون صحيح؟.

- يقظان: وما قال الأقدمون؟.

- السيِّد ماهر: الأقدمون كانوا يقولون بوجود روح مع الجسد. طيف في الآلة. أو «الأنا» التي تستعمل الدماغ دون أن تكون في أي موقع فيه. كان بريبرام يقول: هل

فعلا ما قاله القديس فرانسيس الأسيزي ذات يوم صحيح؟ كان يقول: إن ما نبحث عنه هو ما ينظر إلينا.

- إيمان: وهل اعتنق فكرة ذلك القديس؟.

- السيِّد ماهر: كتب في إحدى مقالاته بعد أن أعيته البحوث «أن كل ما يبدو لنا في هذا العالم من ملموس ومسموع لا يعدو أن يكون غير وهم! إن الذي نراه نحن من هذا العالم منبسط على نظام تحتي وضمني يشتمل على الكل وهو جوهر هذا العالم. ذلك النظام الضمني منطو ومغلق، وهو يحوي واقعنا ويخفيه في آن واحد. الخلاصة التي اعتنقها هذا الباحث الكبير هو أن العالَم ينبثق من نظام آخر عميق لهذا الكون. ولا تفسير لموضوع المعرفة وعلاقتها بالدماغ إلا عبر هذا الطريق فحسب. كان يقول إن على العلماء أن يهيئوا الناس للدفاع عن الروح بوصفها مجموعة من قضايا وحقائق مسلمة.

- إيمان: يا إلهي... من المختبر إلى الروحانيات. قفزة مذهلة.

- السيِّد ماهر: ليس بريبرام هو وحده الذي قفز هذه القفزة يا إيمان. هناك العديد غيره، أذكر الآن منهم العالم «كيث فلويد»، أحد اشهر علماء النفس، الذي قال «قد لا يكون الدماغ مصدر الوعي أبداً».

- يقظان: الحصيلة يا سيِّد ماهر هي أن العلماء تجاه هذه المسألة انقسموا إلى قسمين: قسم يصر على مادية

المعرفة، وقسم يذهب إلى روحانيتها. ما موقفنا وعلى أساس ماذا يجب أن نبنيه؟.

- السيِّد ماهر: سنطرق باب الفلسفة لنرى وجهة نظرها. وعلينا اعتناق نظرتها إذا كانت مستندة على البدهيات. **الحكمة المتعالية** تقيم عدة أدلة على تجرد الإدراك.

- ما الذي تعنيه بتجرد الإدراك؟ سأله يقظان.

- أعني بالتجرد، التجرد عن المادة. المجرد عن المادة هو الفاقد للمادة، وبالتالي فإن شروط المادة لا تنطبق عليه. أي الروحانية بلفظ آخر.

- أعرض علينا بعض تلك الأدلة يا سيد ماهر. طلبت إيمان منه ذلك.

- بالتأكيد سأفعل. تأكدا أولاً، أن القول بوجود المعرفة في الخلايا الدماغية لا يمكن قبوله.

- ولماذا؟ رد يقظان.

- لأن خلايا الدماغ، كغيرها من الخلايا، والكون بأسره، ليس إلا حركة هائلة. عالم المادة يساوي الحركة. لا يوجد في العالم ثبات أبداً. كل شيء يتبدل ويتغير. وهذا يعني أن خلايا الدماغ أيضاً في تبدل وزوال، وإن بعد فترة. فلو كانت المعارف كامنة في الخلايا، لتبدلت وزالت. لكن الأمر ليس كذلك.

- إنها تتبدل كما تفضلت يا سيد ماهر. ولكنها، تنقل

مضمونها المعرفي إلى الخلايا في طور الولادة. علق يقظان.

- ها أنت مجدداً يا يقظان تحاول صبغ الثبات على المادة. إنك تعني أن الخلايا تتناقل المعرفة لذلك تبقى صامدة. فإذن لقد أثبتت الثبات للمعرفة، في الوقت الذي أثبتت ماديتها. أليس هذا تناقضا واضحا؟ الثبات لا يجتمع بالمادة.

- المعرفة تتغير وتضمحل تدريجياً يا سيد ماهر، غاية ما في الأمر أننا لا نحس بذلك. ألا تلحظ أن التذكر يكون صعباً لدى كبار السن؟ علقت إيمان.

- ليس كلهم. إذا كان هذا هو الوضع في الواقع فيجب أن ينتاب الجميع. إن العديد من كبار السن يتذكرون سائر تفاصيل حياتهم. إنهم يتذكرون من هم، وما اعتقاداتهم. ثم إن النسيان عجز في التذكر وليس تبدل في المعرفة. لا يقع التغير ولا التبدل في معرفتنا بذاتنا. ثم، هل نسيتما تجارب بريبرام بهذه السرعة. لقد أتلف الدماغ لكن لم يتمكن من اتلاف المعرفة.

- أه. صحيح! إيمان.

- يمكننا النظر إلى الموضوع بعمق أكثر. نحن نستطيع معرفة الأحجام الحقيقية للأشياء. ويمكننا استحضارها بحجمها الحقيقي. كيف يحدث ذلك؟ إذا كانت المعرفة كامنة في شحنة كهربائية فيجب أن تكون بحجمها، ولكننا نستذكر

أحجاماً لا تتناسب حجم ذرات خلايا الدماغ.

- في الواقع، نحن نرى صوراً صغيرة جداً تتناسب مع حجم الخلايا، ولكننا نتخيل بأننا ندركها وفق أحجامها الحقيقية. علقت إيمان.

- إذن المعرفة غدت تخيلا محضا. ورغم ذلك، كيف أمكننا تخيل الصور الكبيرة؟ أعني: كيف أمكن للقدرة التخيلية أن تنجب صورة أكبر من حجم مخيلتها؟ سكتا ولم يجيبا بشيء. استمر السيد ماهر قائلاً:

- تأكدا قبل كل شيء بأنه لا سبيل إلى الاقتناع بمادية المعرفة وثباتها في آن واحد. لأن ذلك تناقض صريح. فإذا كانت المعرفة مادية فيجب أن تكون ثابتة. وبما أن الثبات مستحيل في عالم المادة فالمعرفة يجب أن لا تكون مادية بتاتاً. أما الاقتراح الذي قدمه يقظان حول تبدل الخلايا وبقاء المعرفة وانتقالها إلى خلايا جدد فليس بمقبول نظراً لأنه عاد وألبس المعرفة لباس الثبات وهكذا فقد أخرجها عن ماديتها. وكذلك محاولة إيمان لانقاذ مادية المعرفة عبر القول بتبدلها مع عدم شعورنا بهذا التبدل والاضمحلال إلا بعد مرور سنين طويلة، أيضاً غير مجدية، ذلك لأن ثمة من لا تصيبهم آفة النسيان مهما تقدم بهم العمر.

- والحل؟ تساءل يقظان مندهشاً.

- الحل في قبول تجرد المادة. رد السيد ماهر واستطرد يقول:

- سأحاول مساعدتكما. تأملا جيداً: سأخرج شيئا من محفظتي، ها هو. إنه في قبضة يدي. هل يمكنك رؤيته يا إيمان؟

- كلا. إنه في كفك. ردت إيمان.

- ها هو.

- رأيته. إنها بطاقة ائتمان.

- لقد رأيته. يعني إنك قد أدركته. كيف حصل ذلك؟

- برؤيتي له.

- كلا. وإنما بانتقاله فيك. أعني عندما أبصرته، تكون له وجود في ذهنك. وبذلك فقد وعيت بوجوده. إنك يا إيمان، برؤيتك له، أوجدت له صورة في كيانك. هذه الصورة تجردت عن الزمان والمكان وتكونت في أعماق وجودك.

- تجردت عن الزمان والمكان؟ سأله يقظان مندهشاً.

- بلى. أين هو الزمان في تصورك لبطاقة الائتمان؟ وأين مكانه؟ يمكنك أن تتذكره وتحضره في أي زمان وأي مكان. مع العلم بأن الزمان والمكان من أبعاد الماديات. من المستحيل للكائن المادي أن يتجرد عن الزمان والمكان يا يقظان. صورتك الذهنية تفتقد هذا البعد بالمرة.

- إنه موضوع عسير على الفهم حقاً. علق يقظان.

- هو كذلك لأننا نستصعب تصوره. العلم يتحقق بحضور المعلوم لدى العالم. والحضور له ثلاثة أشكال متصورة: -

١ - الشكل الأول: أن يحضر شيء لشيء، مع احتفاظ كل منهما بحقيقته الخاصة به. إننا إذا تأملنا هذا الشكل من الحضور، في الواقع لن نجد حضور أحدهما لدى الآخر. وإنما سنلحظ القرب والالتصاق فحسب. ها أنا ذا، أقف بجانبك يا يقظان. كل منا محتفظ بكيانه الخاص به. أين هو حضورك عندي؟ نحن نقف متلاصقين فحسب.

٢ - الشكل الثاني: أن يحضر شيء لشيء آخر، بحيث يتنازل كل منهما عن كيانه الخاص، فينتج من ذلك موجود ثالث، لا هو هذا ولا هو ذاك. وهنا أيضا لم يتحقق الحضور، لأن كيان كل منهما قد زال. إلحظا ما الذي سيحدث عندما أسكب شيئا من الشاي الأحمر في كوب ماء. تكون كيان جديد، لا يمت إلى الماء أو إلى الشاي بصلة. هٰهنا لا يوجد علم، لأنه لا يوجد من حضر لدى الآخر.

٣ - الشكل الأخير: أن ينتقل شيء في كيان شيء آخر، فيكون حاضرا لديه. عندما أبصرت إيمان بطاقة الائتمان، تكون في كيانها صورة عنها. هذه الصورة تسكن في إيمان. وهذا هو معنى حضورها عندها. إن الأبعاد الزمانية والمكانية لا تسمح للحضور بأن يتحقق. في الواقع البعد الزماني والمكاني تسببان الغيبوبة وتمنعان الحضور، وبالتالي يقفان حائلاً دون تحقيق العلم.

- كيف يا سيد ماهر؟ سألته إيمان مندهشة.

- الزمان يشتت الشيء إلى ماض، وحاضر، ومستقبل. الزمان يعني تدرج وجود الشيء. إن لنا وجوداً مادياً متدرج التحقق. هذا التدرج يسبب في إنبثاق الماضي والحاضر والمستقبل.

- مذهل. علق يقظان.

- والمكان يحجب الشيء ويمنع العلم. ألستما عاجزين عن معرفة ما هو بعيد عنكما مكاناً؟

- نعم.

- وإذن؟ المعرفة تتحقق فقط عندما يتحقق الحضور. البعدان المكاني والزماني يجب أن يزولا حتى يتحقق العلم. ومن هنا، فصورنا الذهنية فاقدة لشرائط المادة من زمان ومكان، لأنها تمكنت من الحضور في أعماق كياننا، الأمر الذي حقق لنا علماً بوجودها. عندما أريد أن أعرف شيئاً، علي أن أجده في ذاتي، فأعرفه. لأنه ليس لدي إلا ذاتي. هي الوحيدة التي تحظى بحضور دائم لدي. لأنني وذاتي أمر واحد. وإذا أردت أن أعرف شيئا خارجاً عن ذاتي، على ذلك الشيء أن يصبح جزءا مني، من كينونتي وذاتي. حينئذ فقط، يمكنني أن اعرفه.

- يا إلهي... يا له من موضوع مذهل. يعني إننا لا نعرف سوى ذاتنا؟ سأله يقظان مذهولاً.

- وما وقع في ذاتنا فقط يا يقظان.

- ولكن.. كل يوم نشاهد نحن مئات الأشياء في الخارج يا سيد ماهر. علقت إيمان مندهشة.

- ما معنى نشاهد؟ معناه أن صور الوقائع الخارجية تنتقل فور وقوع بصرنا عليها، إلى أعماقنا.

- وهكذا يتم الإدراك. يا للعجب. لقد فهمتك يا سيد ماهر. علقت إيمان.

- بهذا الطريق، نثبت وجود البعد الروحي فينا. عبر طريق العلم والمعرفة. لقد أثبتنا بأن العلم ظاهرة مجردة من المادة، ويجب أن يكون الوعي بالعلم مجرداً كذلك، إذن في الإنسان بعد مجرد عن المادة، وهو البعد الواعي والمدرك منا. المادة تزول وتفنى. بالموت، يزول البعد المادي، ونقوم بوضعه في تراب القبر. بينما ينتقل الإنسان إلى عالم جديد، يحمل معه قدرته على الوعي به، فلو كان الوعي والعلم من شؤون المادة لكنا قد وسدناه التراب، وأضحى الإنسان في عالمه الجديد بلا وعي ولا قدرة على الوعي.

- هل هذا يعني أن ظاهرة العلم والمعرفة من مختصات الإنسان والحيوان فقط؟ سأل يقظان.

- كلا. حتى الجماد لديه شيء من الوعي.

- كيف؟ الآن أثبتنا أن الوعي أمر مجرد من المادة؟ سأل يقظان مندهشاً.

- نعم أثبتنا ذلك. وهذا يعني أن الكائنات طراً، بما فيها الجماد، لديها بعد روحي، وهو المسؤول عن تحقق العلم والوعي لديها. لقد أثبت صدر المتألهين في حكمته المتعالية كيف أن الوجود لا يخلو في أي درجة من درجاته عن العلم والإدراك. أينما كان ثمة وجود، يكون معه شيء من العلم. وعليه لا يخلو موجود من الإدراك والمعرفة. في القرآن يوجد ما يدل على ذلك.

- أين؟ سألت إيمان مذهولة.

- الآية الكريمة ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1]. وفقاً لهذه الآية، الكون بما فيه من الكائنات قاطبة، لديها معرفة بوجود خالقها، وهي تؤدي تجاهه طقوس التسبيح.

- يا له من أمر عجيب حقاً. علقت إيمان.

- لقد بذلت جهداً كبيراً يا سيد ماهر لتعليمنا. تقبل جزيل شكرنا. علق يقظان.

- لا شكر على واجب. أرجو أن تكونا قد افدتما. لقد كنت أريد أن أنهي الموضوع إلى هذه النقطة، ولكن خطر الآن لي أمر لا بد من تبيينه لكما، طالما أن الموضوع بلغ إلى حدود تجرد العلم عن المادة. ولكن لنقفْ قليلا ونصلِ الظهر، ثم نعدْ لتكملة الموضوع.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

- موافق.

- وأنا كذلك.

صلى كل من السيد ماهر ويقظان في الغرفة نفسها، بينما ذهبت إيمان إلى غرفتها للصلاة. وبعد قرابة ١٥ دقيقة، اجتمع الجميع مجدداً.

ـ ٩ ـ

الكيان البشري..
وحدة اتصال علمي بحت

- كانت الفلسفة الإسلامية، متمثلة في رئيس فلاسفتها الشيخ ابن سينا، تعتقد بأن علاقة النفس بعلمها تشبه علاقة الكتابة بالسبورة.

- وما الخطأ في ذلك؟ تساءل يقظان مستغربا.

- هذا التصور غير دقيق يا يقظان.

- وكيف تكون العلاقة بينهما إذن؟ سألته إيمان متعجبة.

- سأشرح هذا وعليكما الالتفات جيداً لأن الموضوع شيق جداً ومذهل فعلاً. لقد قدم الفلاسفة تصورهم عن علاقة المعرفة بالنفس تماماً كعلاقة الكتابة والنقوش بالصفحة البيضاء، أو علاقة اللون الأبيض بالجدار. فحقيقة الجدار شيء، وحقيقة اللون الأبيض شيء آخر، وهناك رابطة بينهما لا غير. هكذا الوعي والإدراك، فهما يعرضان على النفس، التي تصطبغ بهما كما تصطبغ الجدران بالأصباغ.

وعليه، فإن سائر النفوس البشرية، في جوهرها، واحدة، ومتشابه، وعلومها ليست إلا أعراضا طارئة عليها. وتظل النفس تحتفظ لها بحقيقتها المستقلة عن علومها وإدراكاتها.

- يعني أن نفس النبي مثلا كنفس الطفل تماما من جهة علاقتهما بالعلوم؟ سألته إيمان.

- تماماً يا إيمان. ولكن صدر الدين لم يقبل هذا التصور وأثبت خطأه بعد تأمل عميق في نوع وجود العلم، وصلته بالنفس، فقد أعرض عن قبول التصور المشار إليه، وأكد في حكمته المتعالية أن الأمر ليس كما طرحه الفلاسفة من قبله سيما الشيخ الرئيس. لقد حار صدر الدين في سر ديمومة العذاب الأخروي وأبديته للأشقياء، رغم أن المعارف والإدراكات السيئة يجب أن تزول عاجلاً أم آجلاً، لأنها ليست حقيقة النفس وشأناً من شؤونها، إذ هي عوارض على النفس ونقوش مرتسمة فيها، ولا بد لها من الزوال كما تزول الكتابة عن اللوحة بقوة العامل الخارجي. إن ديمومة الشقاء الأبدي وعدم زواله معناه أن الصلة التي تربطه بالنفس صلة ليست بعرضية على الإطلاق. ومن هنا، تعمق في اكتشاف حقيقة العلم وصلته بالنفس البشرية. وانتهى به التحقيق أن قدم نظريته المعروفة بـ **اتحاد العالم والمعلوم** كإنتاج خالص بـ **الحكمة المتعالية**.

- اتحاد العاقل بالمعقول؟ تساءل يقظان مندهشاً.

- رغم إنني ذكرت إتحاد العالم بالمعلوم، لكن ما تذكره

أنت أيضا من عنوان للنظرية يا يقظان، فصحيح أيضاً.

- ما معنى ذلك يا سيد ماهر؟ إيمان.

- معناه، أن سائر علوم النفس ومدركاتها ليست إلا النفس حقيقة. وبعبارة أخرى: المعلومات، تغدو بالوعي بها، عين ذات النفس. ليست هنالك ذات يعرض عليها العلم. كلا، وإنما هنالك ذات، تتحول إلى عين معلومها.

- ماذا؟ أتعني إنني وعندما عرفت بوجود تلك الشجرة خارج منزلنا، تحولت إلى الشجرة تلك؟ سألته إيمان متعجبة.

- كلا. ليس معنى ذلك، أن نفسي عندما تعلم بوجود الشجرة، تصبح عين ذات الشجرة الخارجية، وإنما معناه، أن نفسي عندما تعلم بوجود الشجرة، فإن علمها ذاك، يغدو عين ذاتها، لا ثمة فارق بين النفس وبين علومها، على الإطلاق. وعليه، فعندما نقول: صار الجسم أبيض، فإن الصيرورة هنا ليست حقيقية، لأن الجسم يظل محتفظاً بكيانه واستقلاله عن البياض، وهكذا البياض أيضاً. ولكن، عندما نقول: صارت النطفة إنساناً، هنا، الصيرورة حقيقية، لأنها أفقدت النطفة كيانها، وسلبته إياها تماماً، إذ غدت النطفة عبر الصيرورة، إنساناً. هكذا، فالنفس عندما تعلم أمراً ما، هذا العلم يقوم بصيرورة النفس عين معلومها.

- مذهل فعلا. وهل من أدلة على هذا المدعى الغريب؟ سأله يقظان.

- نعم. بالإضافة إلى العديد من الآيات والروايات التي

ساقها الشيرازي، قدم عدة براهين محكمة على نظريته، منها: إن الصورة المعلومة، ليست لها حقيقة مستقلة عن كونها صورة معلومة. وبعبارة أخرى، ليس للصورة المعلومة وجود مستقل، تصبح بعده وجوداً معلوماً بعد أن لم تكن كذلك. إن تمام حقيقة المعلوم، أنه معلوم فحسب، وليس له كيان خارج المعلومية على الإطلاق. الإدراك لم يكن في البداية أمراً ما، ثم تعرض للإدراك، وإنما هو وجود إدراكي، لا غير. وما حقيقته كذلك تحتم إنطواؤه في «الوجود العالم» حتى يغدو ذا حقيقة معلومة.

- لم أفهم. علق يقظان.

- كما أن الغذاء المهضوم لا يوجد إلا في معدتك وليست له حقيقة قبل الهضم، لا يكون المعلوم وجودا إلا إذا كان في ذهن أحدهم. أعني: إذا أردنا أن نبحث عن معلوم، فلن نجده إلا منطوياً في حقيقة العالم. حقيقة المعلوم تساوي حقيقة العالم بلا أدنى فارق. فلو كانت الصلة التي تربط المعلوم بالعالم صلة غير حقيقية، لكان بالإمكان تصور المعلوم خارج المعلومية، وهذا أمر يستحيل تحققه قطعاً.

- نعم فهمت جيداً يا سيد ماهر. علق يقظان بينما كانت إيمان مستغرقة في تأمل عميق.

- بموجب اتحاد العالم والمعلوم، لا بد من قبول النتائج التالية:

١ ـ حقيقة النفس هي كونها إدراكا محضا. النفس وجود واعٍ بحت، وجود علمي. إذا ما ارتبط بشيء ما وعاه وأدركه. أدركه يعني أن النفس تصير ذلك المعلوم في الواقع. لا توجد أدنى فاصلة بين النفس العالمة وبين معلومها على الإطلاق. النفس تشبه الثقب الأسود الذي يبتلع كل ما يقترب منه ويتصدر ضوء ضحيته بؤرة الثقب.

- ما هو الثقب الأسود؟ إيمان.

- عندما تموت النجوم تتحول إلى ثقب أسود ما يلبث هذا الثقب أن يتحول إلى بؤرة تلتهم كل نجم يقترب منه. كتب فيه كثيراً هو كنج العالم الفلكي الشهير.

- يا إلهي، تشبيه النفس بالثقب الأسود مرعب فعلا. علق يقظان.

٢ ـ عندما تعلم النفس، تتسع، ويمتد وجودها. العلم غذاء النفس يمدها وجوداً ويوسعها حقيقة. فكما أن الفضاء الخارجي في توسع وتمدد، النفس في توسع وتمدد. فهي فضاء علمي، يتمدد بلا توقف. كل معلومة تجعل النفس تتصف بسعة المعلومة وبحسب أفقها.

- ماذا؟ النفس تتمدد؟ سألته إيمان مندهشة.

- نعم يا إيمان. ثمة فضاءان: فضاء كوني، يمتد بسبب الانفجار العظيم، وفضاء علمي يمتد بسبب الوعي والإدراك. الصلة بين الفضاءان أن الثاني يحيط بالأول

علماً ويصير مثاله وعياً، بينما الأول يحيط بالثاني زماناً ومكاناً.

- أوافقك القول في أن الموضوع مذهل فعلاً يا سيد ماهر. علقت إيمان.

٣ ـ العلم والوعي والإدراك والتعقل ليست من أفعال النفس، بل عين وجود النفس.

- هلا أوضحت ذلك يا سيد ماهر؟ سأله يقظان.

- بما أن النفس وعلمها أمر واحد بوحدة حقيقية يا يقظان، لم يعد العلم والمعرفة من أفعال النفس. لأن الفعل لا يغدو عين ذات الفاعل. ولكن العلم يصبح عين ذات النفس، فهو إذن ليس فعلا من أفعالنا، بل نفسُ وجودنا.

٤ ـ العلم ظاهرة مجردة من المادة، وهذا قد مر عليكما قبل حين، وعليه فالنفس المتصفة بالعلم اتصافاً حقيقياً يغدو فيه العلم والنفس أمراً واحداً، لا بد أن تكون في أفق مجرد من المادة. مر ذلك أيضا قبل حين.

- نعم أذكر. علقت إيمان.

٥ ـ ليست صلة النفس بمعلومها، واحدة، بالرغم من أنها كلها عين ذات النفس.

- كيف؟ هذا مستحيل. علق يقظان.

- عذرا يا يقظان. عنيت الصلة الحبية.

- وما الصلة الحبية هذه يا سيد ماهر؟ سألته إيمان.

- أعني أن عامل الحب والممارسة ـ العمل ـ يجعلان بعض العلوم تغدو أشد وطأة في النفس، وتتخذ النفس شكلها منها. العلوم والإدراكات ليست على درجة واحدة في النفس. إنك مجمع هائل من المعارف، لكن بعضها لا توليها أدنى أهمية، وبعضها تعتنقها وتصبح عندك بمثابة أصول واعتقادات. صلة النفس بالمعارف والتصورات المحبوبة، والتي يصدر عملها عنها وفقها، يكون أشد، فالنفس بهذين العاملين ـ الحب والممارسة أو العمل ـ تتحدد هويتها النهائية.

- ما الذي تعنيه بالهوية النهائية؟ سألته إيمان بشغف.

- أعني جوهرها النهائي. الإدراكات السيئة والتي أنتجت أعمالا سيئة مثلها، تصبح شكل النفس النهائي، وهكذا الإدراكات الحسنة وتوابعها من الأعمال.

- يا لها من نتيجة خطيرة جداً. علق يقظان.

٦ ـ إذا كانت حقيقة النفس تتمثل في كونها صرف وحدة اتصال معلوماتية، فإن حياتها الحقيقية تتمثل في الإزدياد والاتساع من هذه الجهة. ولا يمكن تصور وجود وواقعية لا يمكن للنفس الاتصال الواعي بها.

- فعلا. علق يقظان.

٧ ـ رقي النفس وتكاملها وسعادتها ستتمحور وفق

معلوماتها. كما وأن انحدارها وشقائها سيرجعان إلى العامل ذاته. فكلما كانت النفس واعية للمعارف الحقيقية، ومتعلقة بها حباً، وتتصرف وفق معارفها الحقيقية المحبوبة، فإنها تكون قد ضمنت سعادتها.

- هذا شبيه جدا بما مر قبل قليل في النقطة الخامسة. علقت إيمان.

- نعم. ستغدو معرفة الله ـ تعالى ـ أعظم تلك المعارف على الإطلاق، هذا العلم سيمنح النفس صبغة إلهية، واتساعا اشتداديا كبيرا لكيانها، وحبه سبحانه والعمل طبق تعليماته تعالى سيمنح النفس هويتها النهائية، وهي الهوية الإلهية.

- وهذا معناه أن قيمة العلم تكمن في موضوعه. هل هذا صحيح؟ سألته إيمان.

- بلى. قيمة العلم وقدسيته تنبع من متعلق العلم. وهذه القيمة تصبح جزأ لا يتجزأ من كيان النفس.

- هل يمكنني أن أقول يا سيد ماهر، أن عظمة وأهمية العلم والمعرفة في الدين تنبع وتكمن في أنهما يصيران ويحولان ويمنحان النفس صبغتها النهائية؟ يقظان.

- لعل ملاحظتك تكون في محلها يا يقظان.

ـ ١٠ ـ

مراتب المعرفة

- إن من ضمن الاختلافات الأساسية بين **الحكمة المتعالية** والفلسفة الإسلامية البدائية موضوع مراتب المعرفة. لقد كانت الفلسفة الإسلامية، متمثلة في رئيس فلاسفتها **ابن سينا**، ترى المعرفة الحسية والمعرفة العقلية من أعمال النفس. فالنفس فاعل إلهي يصنع المعرفة العقلية بعد أن ينتهي من صنع المعرفة الحسية.

- كيف؟ لم أفهم. يقظان.

- يعني أن كلا من المعرفة التي تتم عبر المعطيات الحسية، والمعرفة التي تتم عبر العقل لوحده، هما من أعمال النفس الإنسانية التي تبدأ أولا بالمرحلة الأولى، ثم تأتي إلى المرحلة الثانية. فكما أن عامل البناء يصنع البناء أولا من الطوب، وبعد أن يفرغ منه، يبدأ بتلطيف البناء عبر صنع الطبقة النهائية، فيصبغها ليصبح شكله جميلا. المعرفة فعل إبداعي، والنفس لها القدرة على ذلك. ولكن **صدر الدين الشيرازي** لم يرق له هذا الحل، إذ وجده يخالف

أسسه التي اعتمدها في منظومته الفلسفية.

- وما تلك الأسس؟ إيمان.

- كان صدر الدين قد فرغ من البرهنة على نظرية مراتب الوجود ودرجاته، وأنها بالرغم من كثرتها الهائلة، يمكن صياغتها في مراتب كلية ثلاث، وهي مرتبة عالم الدنيا أو عالم المادة، ومرتبة التجرد غير التام، وفوقه المرتبة التجريدية التامة.

- على أي أساس صاغ هذه المراتب وحصرها في ثلاث فحسب؟ يقظان.

- على أساس القرآن والأخبار المأثورة عن أولياء الدين والبرهان الفلسفي.

- كيف؟ يقظان.

- في القرآن آية تقول ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾[1]، ومعنى ذلك أن للإنسان نقلتين إلى عالمين مختلفين ينتقل إليهما عبر موتتين. ينتقل من عالم الدنيا إلى عالم آخر أرحب وأوسع من الدنيا، ومن ذلك العالم بموتة ثانية ينتقل إلى عالم أكبر وأوسع من الثاني.

- هذا عجيب حقا. يقظان.

- عالم ما بعد الموت أرحب من العالم المادي بدرجات لا

---

(١) سورة غافر، الآية: ١١.

يمكننا أن نتصورها. لكن رغم ذلك فإنه ـ عالم ما بعد الموت ـ ليس مختلفاً جذرياً عن العالم المادي. كما في العالم المادي يوجد صباح ومساء، يوجد صباح ومساء في العالم الذي وراءه الذي ننتقل إليه مباشرة. لكن في العالم الذي يلي العالم الثاني، أعني ما وراء عالم ما بعد الموت، سعة وجودية لا يمكن بلوغها حتى في مخيلتنا. هناك تضيع الحدود؛ لا صباح ولا مساء. القرآن يتحدث عن العالم ما وراء الدنيا فيقول إن الصباح والمساء موجودان فيه، ولكن لا أثر لهما في العالم الذي يقع وراء عالم ما بعد الموت.

- أين في القرآن؟ سألته إيمان مذهولة.

- تأملي قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[1]. الآية تتحدث عن مصير السعداء بعد الموت، أما العالم الذي هو وراء عالم ما بعد الموت، فالقرآن ينفي وجود الأوقات فيه. قال تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾[2].

- إشارات قرآنية مذهلة حقاً. وماذا عن الأدلة العقلية؟ سأله يقظان.

- وفقا لقاعدة التناسب بين العلة والمعلول، هذا العالم المادي، يقع أسفل عوالم الوجود وأقلها درجة.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٢٦.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ١٣.

- كيف تم التوصل إلى ذلك؟ إيمان.

- ألا ترين أن الكائن في هذا العالم ينتقل من رحم العدم ليحبو على ساحة الوجود يا إيمان لأول مرة؟ يطلق على هذا العالم: عالم الصيرورة. عالم الصيرورة يعني العالم الذي يتكون فيه الموجود لأول مرة. لا يمكن تصور عالم أقل عنه درجة.

- فعلا. يقظان.

- وهذة الضآلة الوجودية لا تتناسب وسعة وجود ذات الحق الإطلاقية. وعلى هذا الأساس، يجب أن يتوسط بين السعة الإطلاقية وبين العالم المادي هذا مراتب وجودية هائلة عديدة. ولكن مع كثرتها، لا مانع من صياغتها في شكلين إجماليين ذكرتهما لكما قبل حين.

- تعني عالم ما بعد الموت وعالم ما بعد عالم الموت. أليس كذلك؟ يقظان.

- بلى. في عالم الدنيا، تتحقق الصيرورة وهو تواجد الموجود لأول مرة بعد أن لم يكن. وفيه درجة الوجود الجمادي، ودرجة الوجود النباتي التي هي أعلى من سابقتها، ودرجة الوجود الحيواني أعلى من النباتي، وهكذا نصل إلى درجة الوجود المتمثلة في الوجود الإنساني.

- واضح جداً. يقظان.

- وحتى الوجود الإنساني له مقامات ومراتب. وجود العالم أشد من وجود الجاهل. ووجود الأنبياء أعظم من جهة القدرات الروحية من وجود العلماء. لقد مر عليكما أن النفس تتسع بعلومها وإدراكاتها. ولأن علوم الأنبياء تنبع من الوحي الإلهي، فهي أعظم وجودا عن غيرها.

- واضح الآن. إيمان.

- هكذا الأمر في عالم التجرد الأول. المصطلح القرآني الذي يطلق عليه هو عالم البرزخ. القرآن أطلق البرزخ ومعناه الفاصل والحد على العالم الذي ننتقل إليه بعد الموت. لقد أسماه القرآن بالبرزخ لأنه برزخ بين عالم الدنيا وعالم أرحب وأشد يقع بعد عالم الموتة الأولى والذي ينتقل الإنسان إليه بعد الموتة الثانية.

- وحتى العالم الأخير له مقامات كثيرة جداً؟ يقظان.

- بلى يا يقظان. مقاماته أكثر ووجوده يكون على أشده.

- ولكن حتى ذلك العالم أيضا لا يمكنه أن يكون متناسبا مع سعة إطلاق وجود ذات الحق ـ تعالى ـ . لا يوجد تناسب بينه وبين الوجود الإطلاقي يا سيد ماهر. إيمان.

- أحسنت يا إيمان. المسافة بين المحدود والمطلق لا نهائية وهذا صحيح. ولكن المسافة بين العالم المادي وأوسع العوالم من جهة الوجود ليست لا نهائية. أريد القول: إن سعة الوجود الإطلاقي للذات الإلهية يقتضي إفاضة قصوى

درجات العطاء والخيرات إلى الحدود التي تسمح لأن يستوعبها العالم الإمكاني.

- وما أقصى هذه الدرجات؟ يقظان.

- الحد الذي لا يخرج الموجود من رتبة الإمكان وينقلب إلى رتبة الواجب. وهذا يعني أن الكائن الإمكاني سوف يظل يقبل المنح الإلهية ويقبل إفاضة الوجود طالما أن هذه الإفاضات لن تقلبه من إمكانه وتحيله إلى واجب الوجود بالذات. وهذا الانقلاب أساساً ممتنع وغير ممكن. لا يحمل الكائن الفقير بالذات إستعداداً لأن يصبح غنيا بالذات كما هو واضح لكما لأن ذلك يستدعي إلى تناقض صريح.

- فعلا. يا إلهي. معناه أن العالم الأرفع وجوداً سيكون من جهة الكمالات غير متصور أبداً. إيمان.

- لنرجع إلى حيث كنا. يرى صدر الدين أن المفاهيم العقلية لا تولد من المفاهيم الحسية بقدرة النفس الإبداعية. ليست المفاهيم العقلية ولا الحسية من أعمال النفس، وإنما هي درجات النفس.

- ما معنى هذا؟ يقظان.

- النفس تترقى لأجل بلوغ المعارف العقلية، لا أن توجدها وهي في مقامها. كما أن البستاني يصعد أعلى الشجرة لقطف الثمرة اليانعة، هكذا تترقى النفس إلى مقام وجودي أعلى لكسب المعرفة العقلية.

- أحتاج إلى مزيد من التوضيح. علقت إيمان وهي تعصر ذهنها.

- الحيوان والإنسان كلاهما يدركان المعارف الحسية، بل يفوقه الحيوان في هذا الإدراك. العقبان والنسور قدرتها الباصرة أقوى من الإنسان. وهناك من الحيوانات التي تفوق الإنسان في الشم، ولكن الحيوان يفتقد إلى الإدراك العقلي. وهذا لا تفسير له إلا على القول أن الإدراك الحسي لا يتأتى في الأفق المادي، وإلا لناله الحيوان الذي نال بقية الإدراكات الحسية بصورة أفضل حتى من الإنسان.

- أمر مذهل. يقظان.

- النفس تترقى درجة لكسب الإدراك العقلي وبلوغ الكليات. يعني أن النفس عندما تتكون فيها المقدرة العقلية، فمعنى ذلك أن النفس بدأت باكتشاف عالم التجرد.

- اكتشاف عالم التجرد؟ إيمان.

- نعم. الكليات مفاهيم تنطبق على عدد لا نهائي من الكائنات. لا يوجد هذا المفهوم في عالم المادة لأنه عالم لا يحتوي على عدد لا نهائي من الكائنات. الطفل لا يستطيع بلوغ المفاهيم الكلية في أوائل عمره. إن حاصل الجمع بين واحد وواحد يشرح له عبر الأمثلة الحسية. ولكنه وبعد نمو مقدرته العقلية، يتمكن شيئا فشيئا من بلوغ معارف عقلية لا صلة لها بالواقع المادي المحدود.

- هذا البيان مذهل فعلا. ولكن ألم نقل سابقا أن العلم الحضوري للنفس بالنفس ساعد العقل على انتزاع الكليات؟ إيمان.

- أحسنت. النفس كائن مجرد من المادة. ولكي يشاهد الإنسان صفحة ذاته يحتاج إلى أن يشاهد التجرد. يعني أن يعي بالتجرد. وبالرغم من أن الطفل منذ اللحظة الأولى يشاهد حقيقة نفسه، ولكن ولأن الذهن الذي يصنعه العقل عبر المفاهيم لم يتكون بعد، فإن الطفل يتصرف وفقا لعلمه الحضوري ولكن دون فهم منه لعلمه. الفهم صنيع الذهن، والذهن وعاء المفاهيم التي تساعد على الفهم، والمفاهيم صناعة عقلية.

- تعني إننا عندما كنا أطفالا، كنا ندرك معارفنا الحضورية دون أن نفهمها؟ يقظان.

- هكذا. إن المدة التي يقضيها الطفل البشري في أحضان العائلة تفوق الفترة التي تقضيها الحيوانات الحديثة الولادة بين أبويها. يفك الحيوان صلته وارتباطه بأمه وأبيه خلال فترة وجيزة، بخلاف الطفل البشري الذي يحتاج إلى رعاية الأم والأب والمعلمين لفترة طويلة جدا مقارنة بالحيوان. لا يحتاج الحيوان إلى انتظار مرحلة بلوغ الكليات لأنه لا يبلغها، والتكوين يصرفه عن المكوث مع العائلة لفترة الطويلة، بخلاف الإنسان.

- أمر غريب حقا. يقظان.

- المهم هو أن نبرهن على أن المعارف العقلية تصل من ينبوع تجريدي. وهذا ثابت بإثبات تجرد النفس، وشهود الإنسان لها حضورا. الشهود موجود منذ اللحظة الأولى، ولكن الفهم يتكون بتكرار مشاهدة النفس مع تكون شيء من المفاهيم في وعاء الذهن.

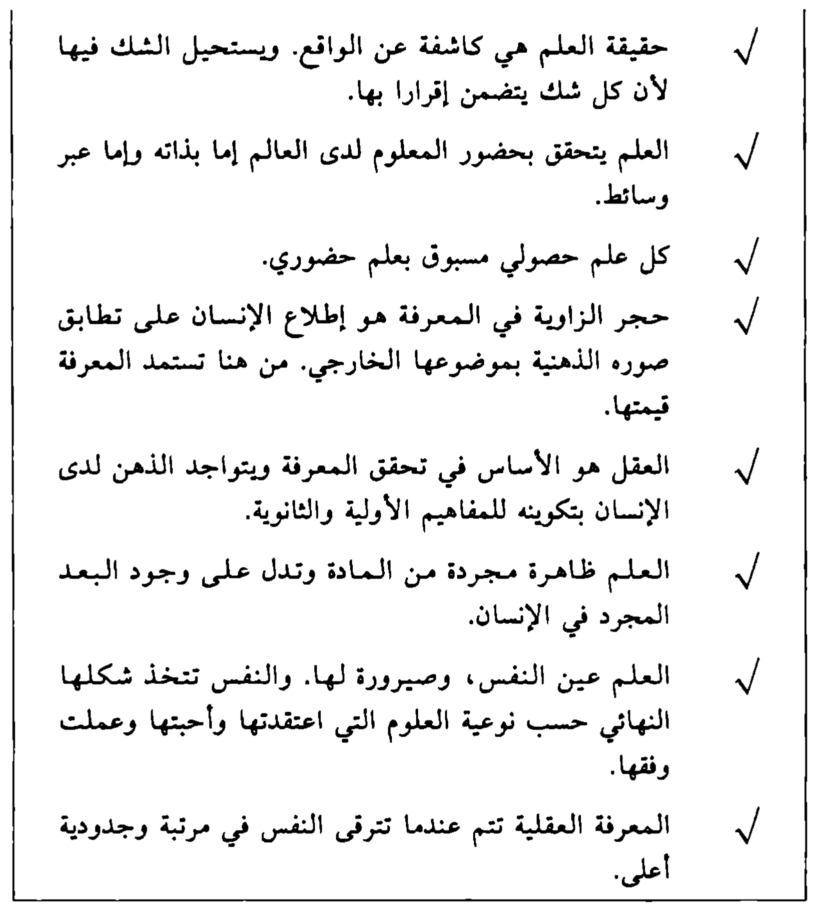
- يا سيد ماهر...

- نعم إيمان. ماذا هناك..

- وفقاً لما مر، العقلاء.. أعني أصحاب المقدرات العقلية سيكونون أقوى من أولئك الذين ليسوا من أهل التخصصات العقلية.

- فعلا يا إيمان. إذا قلنا إن المعرفة العقلية أرفع وجودا من المعرفة الحسية. والمعرفة التي تتصل بالوحي الإلهي أقوى من المعرفة العقلية، فالحاصلون على المعارف الإلهية عبر الوحي سيكونون أكثر تفوقا من غيرهم. وأصحاب العلوم العقلية البحتة سيكونون أكثر تفوقا من أصحاب العلوم الحسية. لنكتف بهذا ونقف عند هذا الحد. إليكما هذا الملخص:

√ الكيان المعرفي قائم على قاعدة استحالة اجتماع النقيضين، التي لا يمكن الشك فيها.
√ هذه القاعدة تعني أن الوجود يغاير العدم.
√ سائر المعارف البشرية قد أتت من خلال الإطلاع على الواقع ولا توجد في الذهن معارف أولية مخلوقة معه.



- √ حقيقة العلم هي كاشفة عن الواقع. ويستحيل الشك فيها لأن كل شك يتضمن إقرارا بها.
- √ العلم يتحقق بحضور المعلوم لدى العالم إما بذاته وإما عبر وسائط.
- √ كل علم حصولي مسبوق بعلم حضوري.
- √ حجر الزاوية في المعرفة هو إطلاع الإنسان على تطابق صوره الذهنية بموضوعها الخارجي. من هنا تستمد المعرفة قيمتها.
- √ العقل هو الأساس في تحقق المعرفة ويتواجد الذهن لدى الإنسان بتكوينه للمفاهيم الأولية والثانوية.
- √ العلم ظاهرة مجردة من المادة وتدل على وجود البعد المجرد في الإنسان.
- √ العلم عين النفس، وصيرورة لها. والنفس تتخذ شكلها النهائي حسب نوعية العلوم التي اعتقدتها وأحبتها وعملت وفقها.
- √ المعرفة العقلية تتم عندما تترقى النفس في مرتبة وجدودية أعلى.

بينما كان يقظان يودع السيد ماهر عند الباب، كانت إيمان تراجع بفضول شديد ما جاء في الملخص، وكأنها تطلع على هذه المعلومات لأول مرة.

الفصل الرابع

العِلِّيَّة

- ١ -

الأسباب والمسبّبات في الكون

أجواء مسقط ملبدة تماماً بالغيوم، يبدو أن البلد ينتظر، بعشق وبصبر فارغ، هطول أمطار غزيرة. اقترح يقظان على السيد ماهر أن يتجهوا إلى شاطئ القرم.

- أين؟ شاطئ القرم؟ ضحكت إيمان وأردفت قائلة: لا شك أنك جننت يا يقظان.

- ما المانع؟ الجو بديع جداً، وهذه أول زيارة للسيد ماهر لمسقط، لنقم بتعريف بعض جوانبها الجميلة له. سنجلس في ركن من الشاطئ ونستمع للسيد ماهر وهو يتكلم ويشرح. ما رأيك يا سيد ماهر؟

- أرى الاقتراح جميلا. وبإمكاننا المشي قليلا ونحن نتحدث.

- لكن، هل ستلقي الدروس ماشياً؟ قالت إيمان ضاحكة.

- حدث ذلك في العهد الفلسفيّ من تاريخ اليونان. كان أرسطو يدرس طلبته أثناء المشي، ولذلك عرفوا بالمشائين.

- المشائين؟ رددتها إيمان وهي تضحك وتقول: درس فلسفي على شاطئ القرم! مشاؤوا هذا العصر.

انطلق الجميع في سيارة يقظان باتجاه الشاطئ الجميل الذي لم يكن يبتعد عن منزل إيمان أكثر من ثماني دقائق فقط. اقترح يقظان أن يتوجه بسيارته صوب مدينة مطرح، حتى يتسنى للسيد ماهر فرصة إلقاء نظرة على كورنيشها الجميل. شد انتباه السيد ماهر نظافة وسعة شوارع مسقط، وعندما بلغت سيارة يقظان الكورنيش، اندهش السيد ماهر لجمال الشارع والمنازل الواقعة على الطرف المقابل للشارع، التي كانت قد اصطفت ملاصقة بعضها ببعض في طرازها المعماري القديم، وقد صبغت كلها بلون واحد وهو الأبيض. كان الأبيض قد أضفى عليها وقارا عجيبا. مدت إيمان إصبعها تجاه قلعتين عظيمتين تقفان بشموخ مذهل على جبل مطل على الكورنيش، وقالت:

- أنظر يا سيد ماهر إلى هاتين القلعتين. إنهما موجودتان منذ الغزو البرتغالي للسلطنة. هذه التي باتجاه الغرب، تسمى: قلعة الميراني، أكمل بناؤها العام ١٥٨٨م، بينما الشرقية تعرف بقلعة الجلالي أكمل بناؤها سنة ١٥٨٧م.

- لعل الغزاة أرادوا حراسة مسقط من جانب البحر، لذلك بنوها في هذا الموقع. قال السيد ماهر.

- ربما. ولكن هناك من الدراسات ما تشير إلى وجود القلعتين قبل الغزو البرتغالي. كانت تستخدم كمنازل للحكام، وكمدارس صغيرة أيضاً. علق يقظان.

- لقد أصبحتا الآن رافداً تراثياً، بعد أن كانتا حاميتين عسكريتين. علقت إيمان.

أكمل يقظان طريقه إلى قصر العلم العامر، وأدار سيارته عائداً إلى الكورنيش. أشارت إيمان بإصبعها صوب ميناء السلطان قابوس وهي تقول:

- أنظر يا سيد ماهر: هذا ميناء السلطان قابوس. لقد كان في عام ١٩٧٠م ميناء صغيراً جداً، أما الآن فهو من أهم الموانئ في المنطقة. بمقدور هذا الميناء استقبال أضخم الحاويات في العالم.

- إنه يستقبلها فعلاً. قبل ١٠ أعوام، كان الميناء يستقبل لا أقل من ١٥٠٠ سفينة وقرابة ٢٠٠٠٠٠٠ طن. قال يقظان وهو ينطلق بسيارته باتجاه شاطئ القرم الجميل، الذي أدهش جماله السيد ماهر.

- لقد زرت الشاطئ الذهبي في منتج غولد كوست باستراليا. أؤكد لكما أنني لا أجد فرقاً بينه وبين شاطئ القرم هذا. ما يفتقر إليه هذا الشاطئ الجميل، هو بعض المرفقات ومواقع الخدمات. قال السيد ماهر.

- إنها موجودة يا سيد ماهر. أدار يقظان سيارته وتوجه بها جهة مركز جوهرة الشاطئ، شاهد السيد ماهر محلات ومقاهي ومطاعم وفنادق.

- فعلاً. مكان جميل جداً يا يقظان. يظهر أن الاهتمام بنظافة البيئة بلغ أقصاه عندكم.

- حكومتنا تمنح سنوياً «جائزة السلطان قابوس للبيئة» للمشاريع التي تعمل للحفاظ على البيئة.

- أعتقد أنه يلزمني تذكير السيد ماهر بضرورة البدء بالدرس. علقت إيمان.

- نعم لنفعل. علق يقظان.

ركن يقظان سيارته في جانب من الطريق، وخرج الجميع يتمشون. وهنا بدأ السيد ماهر حديثه فقال:

- السماء تنذر بالمطر. فلو سقطت الأمطار لكانت السحب هي السبب. هذه العلاقة بين هطول الأمطار والغيوم نسميها علاقة السببية. والكون تحكمه هذه العلاقة. أعني أنه من المستحيل تواجد وتحقق شيء بلا سبب ولا منتج أو موجد له. يستحسن أن نعرف العلة أولاً. يطلق مصطلح «العلة» على موجود يسبب بوجوده وجود موجود آخر. أعني أن ذات الموجود العلة تقتضي وجود معلول لها. انتبها جيداً لما أقول. لقد قلت إن طبيعة العلة تنتج المعلول. يعني أننا إن أردنا أن نفهم السر في تحقق المعلول لكان علينا أن نغور في عمق وطبيعة موجِده. طبيعة الموجِد تقتضي تواجد المعلول. وفي هذه الحالة، أعني إذا كانت طبيعة الموجد وحدها هي المسؤولة عن وجود المعلول، فالموجد يكون علة تامة لوجود معلولها.

- وماذا عن المعلول؟ هل أن ذاته كذلك تقتضي أن يكون لاحقاً في الوجود لعلته؟ سأله يقظان.

- أحسنت يا يقظان. الأمر هكذا فعلاً. المعلول هو الموجود الذي لا يوجد بنفس ذاته، وإنما يسبب وجودَه عاملٌ آخر. طبيعة المعلول تقتضي ذلك. فهو كائن يفتقر إلى الوجود بذاته، ولا يتحقق إلا إذا مد موجِده يد المعونة له فأوجده. بالطبع لا يعني ذلك أن المعلول كان في مكان ما وقام موجده بسحبه إلى جهة أخرى. كلا. أعني أن المعلول بحاجة إلى منحة الوجود من خارج ذاته. هذا هو تعريف المعلول.

- لكن، الغيوم ليست العلة الوحيدة لوجود الأمطار. علقت إيمان.

- بالطبع يا إيمان. رد السيد ماهر واسترسل: العلل أنواع، فهنالك العلة التامة التي تقتضي بذاتها ولوحدها وجود المعلول، وهنالك العلل الناقصة التي تساهم بدور في إيجاد المعلول. السحب علة ناقصة لهطول الأمطار. فالرياح الباردة، البحار، أشعة الشمس، كل هذه الكائنات تلعب دورا لتحقق الأمطار.

- إذن العلل تنقسم إلى قسمين: علل تامة وعلل ناقصة. قال يقظان.

- نعم صحيح يا يقظان. العلل الناقصة علل معدة، بينما العلة التامة هي العلة الموجدة. قال السيد ماهر.

- سبق وأن ذكرنا أن البعض أنكر العلية. قال يقظان.

- نعم فعلا، لقد ذكرنا منهم «هيوم». وذكرنا سبب عدم اعترافه بنظام العلة والمعلول في الكون. ولكننا برهنا على وجود هذه العلاقة. قلنا حينها أن عقل الإنسان انتزع السببية من خلال إطلاعه على النفس وأحوالها وكيفية توقفها عليها وتوقف قواها الإدراكية عليها. هل تذكران ذلك؟

- نعم بالطبع. قالت إيمان.

- لكن يا سيد ماهر، افترض أن أحدهم سألك قائلا: ما دليلكم على وجود نظام العلية في الكون؟ سأله يقظان.

- نجيبه بمنتهى السهولة. بما أن العلية رابطة بين الموجود الحادث وبين موجده، وبما أن الموجود الحادث من المستحيل أن يتحقق دون علته، فإذا وجدنا في الكون موجوداً حادثاً، تحتم القول بوجود علته. والآن، لنلق نظرة على أرجاء الكون من حولنا، هل سنرى غير الكائنات التي تحدث بصورة مستمرة وبلا توقف؟ يذكر أن فيلسوفاً يونانياً قديماً قال ذات يوم: لا يمكن لأحد أن يضع قدمه في نهر مرتين. لماذا؟ لأن النهر الذي غمس قدمه فيه أول مرة قد تغير ماؤه، كما أن القدم وصاحبه أيضاً لم يعودا كما كانا. كل شيء يتغير. رياح الحدوث تعصف الكون باستمرار كما بدأت أمواج هذا البحر تعصف الشاطئ رويدا رويدا بفعل التيار الهوائي القوي. وهنا بدأت زخات الأمطار بالهطول فسكت السيد ماهر،

وبدأ يجيل بصره في أرجاء السماء، حيث الغيوم السوداء قد غطت الشمس كلياً، ثم قال: الجو مذهل حقاً، أشكرك على فكرتك الطيبة بالخروج إلى هنا يا يقظان.

- عمان جميلة جداً يا سيد ماهر. مع الأسف إنك مرتبط وإلا كان بالإمكان أن نرتب لك رحلات سياحية ممتعة. قالت إيمان.

- لكما الشكر على كرم الضيافة العمانية الأصيلة يا إيمان ويقظان.

- لا شكر على واجب يا سيد ماهر. قال يقظان.

- ولكننا لا نرى العلل يا سيد ماهر، سيما علة العلل والسبب الأعظم. فهل يجوز الاعتقاد بوجودها دون التحقق من ذلك؟ سألته إيمان.

- عدم الرؤية لا يضر يا إيمان. صحيح أن رؤية السبب هو المصدر الأقوى للعلم، لكن رؤية المعلول كاف جداً لإثبات وجود العلة. هل رأيت العمال عندما كانوا يقومون ببناء هذا الفندق الجميل أمامنا؟ سألها السيد ماهر وهو يشير إلى فندق «كروان بلازا» الرابض على تل كبير فوق البحر.

- لا. لم أرهم. أجابت إيمان.

- لكن ليس في وسعك إنكار وجودهم وبنائهم للفندق. لا يمكننا إنكار مصدر الدخان وإن لم نجده بأعيننا. يكفي في

ذلك رؤيتنا للأثر. وهكذا قيل إن الأثر يدل على المؤثر.

- يا إلهي إن في هذه النقطة يكمن برهان إثبات وجود الخالق الصانع للكون. صاحت إيمان.

- بلى يا إيمان. إن من ضمن البراهين برهان العلية، وهو توأم لبرهان آخر يسمى ببرهان الحدوث. ولقد مر عليك أن لكل حادث موجدا. قال السيد ماهر.

\- ٢ -

من أين جاءت العلة الأولى؟
أكذوبة أنَّ لكل شيء بداية

\- يعني أن قاعدة العلية ليست مطردة ولا تنطبق على كل شيء. قال يقظان.

\- بالطبع. لقد مر علينا أن الكائن الحادث هو المعلول. والعلية تدور مدار الحدوث. الواقع أنها تدور مدار الاحتياج، والحدوث علامة الاحتياج.

\- كيف؟ سألت إيمان.

\- سنتكلم عن ذلك بعد قليل. دعاني أشرح لكما بدقة موضوع العلة الأولى وخروجها على قانون السببية. لقد كان بعض من الفلاسفة، ومنهم سارتر، الذي ذكرت شبهته سابقاً، يظن أن قانون العلية مطرد وينطبق على كل شيء. يعني أن الموجود يجب أن يقع داخل نظام العلية حتى وإن لم يكن حادثاً. هذا الأمر جعله يتساءل عن سبب انشقاق القانون والاستثناء الذي وقع للعلة الأولى دون سائر

العلل. ولما لم يعثر على جواب واضح قام بنفي **العلة الأولى** وقال: إذا كان هنالك من يقبل الاستثناء والخروج عن القاعدة فلماذا لا يكون الكون؟ هذا الرجل لم يفهم مدار القاعدة. إنها تتحدث عن **الموجود الحادث** فحسب وليس كل موجود. ظاهرة الوجود بحد ذاتها لا تحتاج إلى موجد لأنها لا تنبثق من العدم كما مر علينا. الموجود الحادث فحسب هو الذي يخضع للعلية.

- إذن، جوابنا عن التساؤل حول استثناء **العلة الأولى** من **قانون العلية** هو أن **العلة الأولى** لا تحتاج إلى علة لأنها مرتفعة على الاحتياج إلى الوجود. **الحادث** هو وحده المحتاج إلى علة توجده. قالت إيمان.

- وإذن أين الاستثناء في القاعدة؟ لا يوجد. رد يقظان.

- كلامك سليم يا يقظان.

- يا إلهي. لماذا لم يفهم أولئك الفلاسفة هذا الموضوع كما ينبغي؟ قالت إيمان.

- ألّف مرتضى المطهري كتابا قيما عن الدوافع نحو المادية، ذكر فيه أن من ضمن الأسباب إلى جنوح الغرب صوب المادية هو قصور المفاهيم الفلسفية هناك. دعاني أعرض عليكما هذا البرهان الدال على أن العلل لا تتسلسل إلى ما لا نهاية، وان لا بد لها أن تتوقف عند **علة تامة** بالذات. هذا البرهان من مبتكرات الفلسفة الإسلامية.

- ومن هو مرتضى المطهري؟ يقظان.

- فيلسوف ومفكر إسلامي، صاحب كتابات عديدة في شتى أبعاد الفكر الإسلامي. ومن أشهر أعماله التي تنم عن عمقه الفلسفي، تعليقاته وشرحه لكتاب أصول الفلسفة والمذهب الواقعي للطباطبائي. لنرجع إلى البرهان.

- أتله علينا بكل سرور يا سيد ماهر. قال يقظان.

- لو تسلسلت العلل إلى ما لا نهاية لما وجد الكون، ولكن الكون وجد، إذ العلل توقفت عند علة أولى هي الموجدة للعالم.

- مهلاً يا سيد ماهر. اشرح ذلك لنا قليلا. قالت إيمان.

- لقد بدأت ملابسي تبتل يا إيمان وأفكر أن أدخل هذا الكوخ من سعف النخيل. لكنني لن أتمكن من دخوله إن لم تأذني لي. ولنفترض أنك في حاجة إلى إذن وإجازة من يقظان حتى تأذني لي. ولنفترض أن يقظان نفسه بحاجة إلى إجازة شخص آخر، لنقل هو مسؤول هذا الشاطئ. وذاك المسؤول لا يأذن إلا بإجازة من رئيسه. ورئيسه أيضاً محتاج إلى إجازة من جهة أعلى. ولنفترض أن سلسلة المسؤولين تتصاعد بلا نهاية، فهل سيحصل يقظان على إذن ليمنحك إياها فتمنحيه لي يا إيمان؟.

- كلا بالطبع. لقد قلت بأن سلسلة المسؤولين في تصاعد لا نهائي. ردت إيمان.

- ولكن، إذا دخلت الكوخ فعلا ، فماذا يعني ذلك؟

- يعني أنك قد حصلت على الإذن. أجاب يقظان.

- ومعناه إذن، أن السلسلة لم تكن لا نهائية، وإلا لما أمكنني أبداً دخول الكوخ. وبما أن العالم موجود، فإذن لا توجد علل لا نهائية وإلا لما تواجد ولا تحقق العالم.

- كم هو واضح وسهل هذا البرهان. قالت إيمان.

- الواقع أن هذا البرهان قد أثبت وجود صانع العالم، الغني عن الحاجة.

- نعم فعلا. علقت إيمان وأضافت: كنت أظن أن تقديم برهان قويم على وجود الله ـ تعالى ـ أمر صعب جداً إن لم يكن مستحيلاً.

- الواقع أن بعضهم حاول إسقاط هذا البرهان من قيمته قائلا «لا يجب أن نثق في هذه النتيجة أبداً، لأن العقل من طبيعته أن يؤسس من عند ذاته، ولطبيعة خلقته، كائناً أعلى وعلة كبرى لوجود العالم. لا يجب الإنصات إلى مثل هذه الحجج لأن طبيعتنا العقلية هي التي ترى الأشياء بهذا النحو. لقد خلق العقل هكذا وليس له إلا أن يتصور الأمر بهذا الشكل. العلة الأولى مسألة عقلية جداً تفرضها طبيعته». ولكن هذا المدعى غير دقيق وفقاً لما مر علينا من أن العقل ليست له طبيعة أتت معه. المفاهيم العقلية انتزاعات من الخارج.

- يا إلهي. الآن فهمت جيداً أهمية موضوع قيمة المعرفة الذي درسناه يا سيد ماهر. قالت إيمان.

- نعم. تبين لي الآن أهميته بمنتهى الوضوح. ما كان بالإمكان الرد على هذا الإشكال لو لم نكن نعرف أن المعقولات الثانية أوصاف للكائنات، قد قام العقل بانتزاعها منها ولم يأت بها معه. قال يقظان.

- أحسنتما كثيراً. لندخل في الكوخ الآن. صاح السيد ماهر وقد بدأت الأمطار بالانهمار.

ـ ٣ ـ

أنا موجود... فإذن أنا واجب

من داخل الكوخ، كان الأصدقاء الثلاثة يتأملون منظر انهمار المطر على تراب الشاطئ، وعلى أمواج البحر. منظر رائع جداً. مرتادو الشاطئ في ذلك الوقت كانوا قلة. بعضهم استمر في مشيه وبعضهم فضل الاختباء، والبعض اتجه صوب البحر وغطس! ولكن، لم تمضِ إلا دقائق، وإذا بالمطر ينهمر بشكل غزير بحيث تعذر المشي أو الغطس كلياً. سأل السيد ماهر:

- ما هي علاقة حبات المطر بانهمارها؟
- ما هذا السؤال يا سيد ماهر؟ سأله يقظان ضاحكاً.
- لست أمزح. لا زلت أسأل. حبات المطر قبل انهمارها لا تكون موجودة. فإذن سؤالي المار معناه: ما علاقة حبة المطر بتواجدها وتحققها؟
- السؤال كأنه لغز. قالت إيمان.
- إن علاقة الكائنات بوجودها يمكن أن تتصور بأحد شكلين:

الأول: علاقة الصدفة والاتفاق.

والثاني: علاقة الوجوب والضرورة.

علاقة الصدفة والاتفاق تعني أن المطر انهمر دون أن يكون انهماره هذا مفروضاً ومحتوماً. لو تساقطت شرارات النيران عوضا عن حبات الماء لكان الأمر سيان. بمعنى أن أياً منهما يمكنه الهطول، وغير ذلك أيضاً من الأشياء، يمكنها الهطول، طالما أن الذي يفرض ذلك هو الاتفاق المحض والصدفة العمياء. أما علاقة الضرورة والوجوب فلا تقر بذلك. إنها ترى أن الكائن لكي يتحقق، يجب أن يصبح تحققه واجباً أولاً. وهذا يعني أن يصل إلى حافة الحتمية والضرورة حتى يتسنى تحققه. والآن، ما العلاقة السائدة بين حبات المطر وبين وجودها؟ أهي علاقة الضرورة والوجوب، أم هي علاقة الاتفاق والصدفة؟

- إذا كان الكائن له علل توجده فلن تكون المسألة مسألة اتفاق. قال يقظان .

- أحسنت يا يقظان. عندما يكون للشيء علة توجده، فإن وجوده سيصبح ضرورياً بالنظر إلى أسباب وجوده التي تفرضه فرضاً. لنتأمل هذا المطر المنهمر، لقد غدا سقوطه ضرورياً لذلك سقط وانهمر. وهذه الضرورة فرضته علله الموجدة له. فالغيوم المحملة بالماء، والأجواء المحتمة للانهمار، تفرض المطر فرضاً. وتعبر الفلسفة الإسلامية عن ذلك بقاعدة: **إن الشيء ما لم يجب لم يوجد.**

- يعني أن الشيء يصبح واجباً أولاً قبل أن يوجد، ثم يوجد؟ أليس في ذلك تناقض يا سيد ماهر؟ سألته إيمان.

- كان بالإمكان أن يتحقق التناقض لو قلنا «ان الكائن قبل وجوده يكون موجودا بوجود ما، ويصبح واجبا بوجود ثان». لكننا لم نقل ذلك إطلاقاً. إن سبق وجوب الشيء وجوده يعني أن علله فرضت وجوده. الشيء يصل إلى مرحلة الوجوب والضرورة بعلته يا إيمان. عندما تصبح الأم على وشك الولادة، هل تغدو ولادة الطفل ضرورية أم لا؟.

- بالطبع نعم. ردت إيمان.

- فلو قال قائل بأن الولادة ليست ضرورية على الإطلاق. هل يمكن تصديقه؟ بالطبع كلا. ذلك لأن الضرورة تفرضها الأسباب التي أضحت لا تقبل التخلف.

- هل ذلك معناه، أن ما يجري في الكون حتمي وضروري؟ صاح يقظان.

- كل ما يقع في الكون من الحوادث يكون قد بلغ الضرورة وأصبح واجب الوقوع، ولذلك فقد وقع. إن العلاقة بين الشيء وبين وجوده علاقة الضرورة كما تبين. بالطبع إن ذلك لا يلغي اختيار الإنسان. هذا الموضوع سنبحث فيه أثناء الحديث عن القضاء والقدر.

- بقي عندي سؤال يا سيد ماهر. إن كل ما مر من كلامك

يثبت أن الأشياء تنال الوجوب، وعلى ضوء ذلك تتحقق. وهذا يعني أننا جميعا كائنات واجبة الوجود؟ سأله يقظان.

- سؤال وجيه. صحيح، الكائنات واجبة الوجود. ولكن وجوب الوجود تارة تفرضه الذات، وأخرى تفرضه عوامل خارجة عن الذات. الحال مع الحوادث أن وجوبها بالغير بحسب التعبير الفلسفي، أعني بعوامل خارجة عنها. إنها تستمد وجوبها من عللها كما تعلم. بينما الذي يستمد وجوبه من ذاته فهو العلة المطلقة أي واجب الوجود بالذات وليس بالغير. وهو الله ـ تعالى ـ . هدأت الأمطار وفي غضون ثوان توقفت كلياً. عندها خرجت إيمان من الكوخ، تبعها السيد ماهر فيقظان. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة. توجه الجميع باتجاه السيارة.

ـ ٤ ـ

تعقب السبب... إنها الرابطة الوجودية

- توجد قاعدة أخرى تنظر إلى الموضوع المار من زاوية مختلفة، في الواقع هي توأم القاعدة السابقة التي ذكرناها؛ قاعدة أن الشيء ما لم يجب لم يوجد.

- ما هي تلك القاعدة الأخرى يا سيد ماهر؟ سألته إيمان بينما أدار يقظان محرك السيارة وانطلق بها صوب مدينة السيب التي تقع إلى غرب ولاية بوشر، حيث هم الآن.

- تلك القاعدة تقول إذا وجدت العلة، فإن معلولها ضروري الوجود.

- إنها تنظر إلى الموضوع من جهة أعلى، جهة العلة. بينما كانت القاعدة السابقة تنظر إلى الموضوع من جهة سفلى، من جهة المعلول. قالت إيمان.

- أحسنت. سابقاً رأينا المعلول وتأكد لنا أن وجوده مسبوق بوجوبه. والآن نظرنا إلى العلة فتأكد لنا أن وجودها يحتم وجود معلولها. هذه القاعدة فسرت لنا من أين اكتسب وجود المعلول ضرورته ووجوبه. إنه يكتسبها من علته.

ـ واضح جداً. قالت إيمان بارتياح كبير. وسألت أخاها:

ـ هل أنت معنا يا يقظان؟

ـ بالتأكيد. المهم أن لا يتوقف المسجل عن التسجيل يا إيمان. قال يقظان.

أسرعت إيمان بإخراج مسجلها الصغير من جيبها فوجدته لا يزال يعمل. لقد كانت تستبدل الأشرطة قبل أن يحين وقت انتهائها بلحظات.

ـ هل أعيد تلخيص ما مر؟ سألت إيمان.

ـ بالتأكيد.

ـ ذكرنا أن المعلول لا يتواجد إلا إذا بلغ وجوده حد الوجوب والضرورة. وخلاف ذلك فإن وجوده سيكون وفقا للاتفاق والصدفة وهذا غير مقبول.

ـ غير مقبول على أساس أن العلل التي سبقت المعلول إما أن تكون سبباً لوجوده وإما لا. وفي الحالة الأولى وجود المعلول ضروري، وفي الحالة الثانية، وجوده مستحيل لأن العلل السابقة عليه لا تقتضي وجوده، فهي إذن ليست عللاً له اساسا. وأما أن يتواجد بالرغم من ذلك فمعناه أنه قد تواجد بلا سبب، وهذا تناقض لا يقبله العقل لأن الحادث لا ينبثق من العدم من ذات نفسه.

ـ واضح جداً يا سيد ماهر وأحسنت. قال يقظان وهو يقود السيارة التي بدأت تتجاوز دوار مطار السيب الدولي. علق يقظان قائلاً:

- القاعدة التي تعبر عن ذلك هي أن «المعلول ما لم يجب لم يوجد».

- ليس المعلول فحسب، بل كل موجود يجب أن يكون ضروري الوجود لكي يضع قدمه على أرض الواقع. قال السيد ماهر ذلك وأضاف: بالطبع فإن وجوبه من وجوب علته وليس من ذات نفسه. فالوجوب، منه ما يكون بالذات، ومنه ما يكون بالغير.

- واضح جداً. علقت إيمان.

- ومع ذلك فسوف اشرح الموضوع بصورة أعمق. اسمحا لي.

- تفضل. علق يقظان.

- إذا وجدت العلة ولكن معلولها لم يوجد، فلدينا هنا ثلاثة افتراضات تفسر سبب انفصام الرابطة الوجودية بين العلة ومعلولها. الفرض الأول يتعلق بعامل خارجي تدخل ومنع تحقق المعلول بالرغم من وجود علته. هذا العامل الأجنبي عن ذات العلة وذات المعلول، تارة يمكن أن يحد من وجود المعلول، كما لو أن جرما ظهر في السماء فمنع أشعة الشمس من أن تصل الأرض. تلحظان أن هذه الحالة لم تمنع من تحقق المعلول، وإنما تحققه كان محدوداً. وفي هذا الفرض لا نرى أن المعلول تأخر ولم يتحقق بعد أن تواجدت علله وأسبابه. وربما يقال أن العامل الغريب منع صدور المعلول عن ذات العلة، كأن يجرد الشمس من

خاصية الإضاءة، أو أن يجرد النار من خاصية الإحراق. في هذه الحالة، لم تكن العلة علة تامة لظهور المعلول، بل ناقصة، وظننا أنها تامة. والفرض الثاني يتعلق بذات المعلول، ويفترض أن ذات المعلول رفضت الانصياع للعلة الموجدة ولم تخضع لها.

- هذا مستحيل. لأن المعلول ليس بشيء قبل أن يوجد. ردت إيمان.

- الفرض باطل فعلا يا إيمان. لأنه يجعل من المعلول موجوداً قبل وجوده. بقي الفرض الأخير المتعلق بالعلة نفسها. فلسبب من الأسباب لم يصدر المعلول عن العلة. قال البعض إن العلة المختارة ربما تقرر عدم منح الوجود للمعلول في وقت ما، وتمنحه في وقت آخر. وقال البعض إن طبيعتها ربما تتغير فلم تعد تقبل منح الوجود لمعلولها بعد أن كانت كذلك. ثمة انقلاب حدث في عمق كيانها. الفرضان باطلان، فالأول أراد أن يحرر العلة الأولى من عقدة الجبر، ولكي يجعلها مختارة، اخترع الزمان بين العلة وبين المعلول وجعل العلة تختار في أي وقت تشاء فيه إيجاد معلولها. وهكذا يصبح الزمان كائناً مستقلاً لم توجده العلة، في الوقت الذي يكون الزمان متعلقاً بالمعلول وبعداً من أبعاد وجوده. لا يمكن تصور الزمان مستقلاً عن الكائن الحادث أبداً.

- يا إلهي. غريب فعلاً. قالت إيمان.

- «الزمان بعد من أبعاد وجود المعلول» موضوع يحتاج إلى شرح يا سيد ماهر. ولكن بالرغم من ذلك، فإن الفرض جعل الزمان بلا موجد فعلاً. قال يقظان.

- أحسنت يا يقظان. وهذا كاف لرد الفرض حتى لو لم نتحقق من موضوع صلة الزمان بالكائن الحادث.

- ألست تريد شرحه لنا؟ سألته إيمان.

- ليس الآن على الأقل. الفرض الثاني باطل أيضا، لأنه يجعل العلة تقبل التغير والتبدل. ومن الواضح أن العلة الناقصة تقبل أن تغير ذاتها لأنها ليست علة تامة للمعلول. ولكن العلة التامة لا تقبل ذلك. وإلا لما كانت علة تامة.

- أوضح لنا صلة المعلول بعلته التامة. طلب يقظان ذلك من السيد ماهر.

- تذكران أنني أخبرتكما أن العلة أصبحت علة لأن ذلك مما تقتضيه ذاتها. دعاني اشرح أكثر. الماء يوجد الرطوبة. الرطوبة معلولة للماء. لماذا؟ لأن ذات الماء تقتضي ذلك. الماء بذاته موجود يحقق الرطوبة. كيفية الماء هكذا. الرطوبة لم تكن كائنا مستقلا عن الماء، ثم لسبب مجهول، ارتبط بالماء وأصبح من آثار وجوده. كلا ليس الأمر كذلك. الرابطة الوجودية بين الماء والرطوبة رابطة عميقة جداً. الواقع أن الرطوبة كائن تعلقي بالماء. لنقل بأنه مظهر دال على الماء. الرطوبة تتعقب الماء لأن الرابطة بينهما مما تقتضيها ذواتهما معاً.

- هل ذلك يعني أن الكون أثر ورابط بعلته الموجدة وبالتالي لا استقلال له أبداً عنها؟ سأله يقظان.

- بالطبع. سائر الفروض الأخرى محل نظر ونقد كما مرت علينا. العلية رابطة وجودية بين ذات العلة التامة ومعلولها. ولا يمكن فكها أبداً، بل لا يمكن تصور ذلك.

- في هذه الحالة، ستكون العلة مجبرة على إيجاد معلولها. علقت إيمان.

- ما معنى الجبر يا إيمان؟ الجبر هو الفعل الذي يصدر عني بلا رغبة ولا إرادة أو اختيار. هل يمكن لأحد أن يصف حبك لأمك بأنه فعل جبري لأنك ليس بإمكانك أن لا تحبيها؟ بالطبع كلا، لأنه يصدر عنك برضا تام ورغبة شديدة ولا ثمة معنى لفرض رغبتك يوماً بفكه عنك.

- المثال جيد ولكنني أريد توضيحا أكثر. قالت إيمان.

- العلة الأولى شأنها إيجاد المعلول. ذاتها هكذا. فهي، إذن، تفعل ذلك برضا منها وحب، إذ لا يتصور أن تكون العلة كارهة لكيفية وجودها.

- يبدو انني فهمت. قال يقظان.

- أرى اننا دخلنا في موضوعين دقيقين جداً. الأول: عن سبب ارتباط المعلول بالعلة، والآخر عن فكرة الجبر العلي.

- ما معنى الجبر العلي؟ سأله يقظان.

- معناه أن العلة الأولى مجبورة على إيجاد معلولها. الموضوعان يريدان معالجة أقوى، وبما أن الساعة قد قاربت منتصف النهار، فلنقف عند إحدى المساجد يا يقظان ونصل.

- بلى. نحن قريبون من مسجد الزلفى. إنها تقع في مدينة السيب. وهنا مرت سيارة يقظان عبر الطريق البحري الحديث، الذي أدهش جماله وروعته السيد ماهر .

- لولا فضل الصلاة في المسجد، لطلبت منك يا يقظان أن توقف السيارة على جانب هذا الشارع الراقي، فنصلي على الشاطئ المطل عليه. توجهت السيارة بعد ذلك إلى المسجد. خرجوا جميعاً وتوجهت إيمان جهة مصلى النساء. وبعد قرابة ربع ساعة، عاد الجميع إلى السيارة.

- يمكنك البدء بالدرس لو سمحت يا سيد ماهر. طلبت إيمان منه ذلك.

- بكل سرور.

ـ ٥ ـ

الحدوث، الإمكان، الفقر
أيهم يحوي سر المعلولية؟

باشر السيد ماهر بالحديث:

- من الواضح لنا جميعا، أن سر المعلولية كامن في نقص الوجود. وبالتالي فإن سر العلية يكمن في الغنى من جهة الوجود. يعني أن الذي جعل المعلول معلولا ومتعلقا بالعلة وعاجزا عن نيل حصة الوجود بلا معونة العلة، هو نقصه من جهة الوجود. لو كان الكون يتمتع بأعلى درجات الوجود، لما كان يوما ما غير موجوداً.

- بلى حتماً، وإلا كيف يكون معدوما من يملك الوجود؟ هذا تناقض. قالت إيمان .

- جيد. وهكذا، فإن العلة أضحت علة ومستغنية عن مد يد الاحتياج إلى موجود آخر يوجدها، بسبب غناها الوجودي. هذان أمران لا يقبلان الشك. ولكن السؤال هنا، هو عن العامل الذي جعل من العلة علة، ومن المعلول معلولا. ما

الذي جعل المعلول ناقص الوجود، وما ملاك الغنى في العلة؟ هل عرفتما السؤال جيدا؟.

- واضح يا سيدي. قال يقظان.

- توجد لدينا ثلاث فرضيات:

الفرضية الأولى: ترى أن السر كامن في الحدوث. يعني أن الحدوث هو الذي جعل الموجود معلولا وناقصاً من الوجود. اقترح بعض علماء الكلام، أن يكون السر الذي جعل من المعلول معلولاً هو الحدوث. الكون بما فيه حادث، وحدوثه هذا هو سبب حاجته إلى العلة. نقص الوجود الذي يعاني منه الكون راجع إلى حدوثه. هذا هو الحل الذي ابتكره وتشبث به التفكير الكلامي للعلماء المسلمين.

- كلام جميل. قال يقظان.

- لكنه غير دقيق. علق السيد ماهر

- ولماذا؟ سألته إيمان بكل شغف.

- لنعرف الآراء الأخرى في الموضوع أولا.

الفرضية الثانية: ترى أن سر الحاجة كامن في الإمكان. وبالمقابل فإن سر الغنى موجود في الوجوب.

- اشرح لنا ذلك يا سيد ماهر. يقظان.

- الإمكان وصف للموجود الذي ذاته لا تأبى العدم ولا تأبى

الوجود. يعني أنها تقبل أن تتحقق كما تقبل أن تظل معدومة. إذا توفرت لها أسباب الوجود تتواجد وإلا فلا. الكائن بهذا الوصف يعرف بالممكن، يعني: ممكن الوجود، وممكن العدم كذلك، هذا الوصف يعرف بالإمكان.

- هذا يعني أن الكون كله ممكن الوجود. إيمان.

- صحيح. فعلى هذه الفرضية، يكون الإمكان هو الذي جعل من الموجود ناقص الوجود. والوجوب، بالمقابل، جعل من العلة غنية عن الحاجة. الوجوب يعني الضرورة. والآن أي الفرضين أدق برأيكما؟.

سكتا ولم يجيبا بشيء.

- الإمكان أدق من الحدوث. لأنه قد يكون هنالك موجود ما، دائم الوجود وغير حادث بسبب علته، يعني **واجب الوجود بالغير**، فهو من جهة محتاج، ومن جهة غير حادث. يعني أن صفة عدم الحدوث من الممكن أن تجتمع مع الاحتياج. ولن يفسر الاحتياج في هذه الحالة غير الإمكان.

- تعني أنه لو وجد موجود غير حادث، ولكنه معلول في نفس الوقت. فسوف يعجز الحدوث عن تفسير حاجته للعلة، باعتبار أنه غير حادث. لذا الإمكان أقوى من الحدوث في وصف الاحتياج. علقت إيمان.

- مذهل حقاً يا إيمان. بالضبط هذا الذي أردت قوله. لقد أجدت شرحه.

ابتسمت إيمان فرحة.

- والفرض الأخير؟ سأله يقظان.

- الإفتراض الأخير: تقرر أن السر الذي يجعل من المعلول ناقص الوجود هو فقره الذاتي إلى الوجود وليس الإمكان.

- وما الفرق بينهما؟ سأله يقظان مجدداً.

- الإمكان كما عرفت وصف لحال الموجود الخالي من الوجود. والفقر أيضاً وصف للموجود الخالي منه. ولكن الإمكان حالة تزول عندما يتحقق الموجود ويتواجد. الإمكان وصف لذات قبل تحققها، ولكن بعد تحققها يزول عنها هذا الوصف تماما لأنها تغدو واجبة بالغير. سبق أن أثبتنا أن الموجود إذا تحقق، يكون قد بلغ رتبة الوجوب. لقد نبه صدر المتألهين مراراً إلى عجز الإمكان من أن يفسر تعلق المعلول بعلته.

- إنه فرق دقيق للغاية. كلا الوصفان يدلان على الحاجة، ولكن أحدهما يدل عليها مرحلياً وبالتحديد قبل تحقق الشيء، بينما الآخر يدل عليها بصفة دائمة. قال يقظان.

- رائع جداً يا يقظان. هكذا هو الأمر فعلا. لقد أجدت بيانه.

- ولكن يا سيد ماهر، بعد أن يتواجد الموجود لا يعود فقيراً، فكيف يمكن القول أن سر الاحتياج هو الفقر؟ هذا الوصف أيضا سيغدو مرحليا. علقت إيمان.

- إن ما طبيعته وذاته يتساوقان مع الفقر يا إيمان فسوف

يكون دائماً كذلك حتى بعد التحقق. إذا تحقق موجود ما، طبيعته تساوي فقره، فذلك يعني أن ما نرى منه من وجود ليس منه. إنه يستعيره فحسب. قال السيد ماهر مبتسماً.

- ما معنى هذا؟ قالت إيمان.

- معناه، أن الكون خال من الوجود من ذاته، الكون فقير فقراً تاماً إلى الوجود بالرغم من وجوده وتحققه. وجوده مستعار وحقيقته التي تقبع خلفه هي الفقر والخلاء الكامل. هذا الفقر أطلق عليه صدر المتألهين «الفقر الوجودي».

- هل تريد القول أن ما نراه من أشكال الوجود في العالم مستعارة؟ سأله يقظان.

- بالطبع. الكون يستعير الوجود من صانعه وموجده تبارك وتعالى. ومن هنا فالقرآن يطلق على الكائنات اسم «آيات». والآية علامة تدل على ذي الآية ولا تدل على ذاتها أبداً. توضَّح لنا الآن أن السر الذي يجعل من الموجود معلولاً هو نقصه الوجودي، والذي يجعل هذا النقص متحققاً هو الفقر وليس الإمكان ولا الحدوث. الإمكان يدل على الفقر، والحدوث يدل كذلك عليه. ولكنهما لا يفسران منشأ الحاجة إلى العلة. الفقر هو المفسر لهذا المنشأ. ومن الجهة الثانية، فاستغناء العلة الموجدة عن الحاجة إلى الوجود، سببه غناها الذاتي. وهذا الغنى له ثلاثة تفاسير: الأول، القدم. فالبعض يرى أن سبب غنى العلة الأولى راجع إلى قدمها. يعني أزليتها. والتفسير الآخر يرى أن

السر يكمن في الوجوب والضرورة، بينما يرى التفسير الأخير أن سر الغنى يكمن في إطلاق الوجود.

- ما الفرق بين هذه التفسيرات الثلاثة؟ سألته إيمان.

- القدم يقابل الحدوث. وهو مناسب جداً لو كان الحدوث هو السر في سبب الاحتياج إلى الوجود. ولكننا بعد أن ناقشناه سابقاً وتبين لنا عدم صلاحيته لتفسير سر الاحتياج، فإن مقابله أيضا يزول وهو القدم. وللتوضيح، أقول: لنفترض أن لدينا موجودا قديم الذات، لكنه محتاج أيضاً ومعلول في نفس الوقت. هل من مانع؟ المانع هو أن ترتفع حاجته للعلة، ولكن الفرض يراعي ذلك، فهو محتاج وواجب الوجود بالغير، لكنه دائمي الوجود من جهة الزمان. وهنا لن نتمكن من تفسير ارتباطه بالعلة مع عدم حدوثه. إذن لن يكون الحدوث ولا القدم مفسران لهذه الظاهرة.

- نعم فعلا. قال يقظان متأملاً.

- أما الوجوب والضرورة فتعني الحتمية. والفرض يقول بأن العلة استغنت عن الاحتياج لأن رابطتها بالوجود رابطة الضرورة والوجوب. فهي ضرورية الوجود نظراً لأن الوجود عين ذاتها. فهي ليست بشيء والوجود شيء ارتبط بها بطريقة ما. كلا، العلة التامة ووجودها أمر واحد وحتمي.

- يبدو ذلك منطقياً جدا. قال يقظان.

- ليس إلى ذلك الحد. رد السيد ماهر واسترسل: الوجوب هنا يقابل الإمكان في المعلول والذي سبق أن ناقشناه ولم يثبت أمام نقدنا له.

- نريد شيئا من التوضيح إذا أمكن. علقت إيمان.

- الإمكان كان وصفا للشيء قبل وجوده، لأنه يزول بعد تحققه. كذلك الوجوب والضرورة، وهذه الحالة تنال الجميع، حتى أولئك الذين يصبحون واجبي الوجود بالغير. لا يوجد فاصل بين وجود الكون وبين ذاته. هما أمر واحد. ولكن الكون حياته ووجوده بغيره. قصارى ما تفعله الضرورة أنها تفرض الوجود فرضاً. هذا الفرض ينال العلة التامة من ذاتها وينال المعلولات بواسطة العلة التامة، والكل في مصاف واحد أمام الفرض والحتمية.

- وما الضير فيه؟ سألت إيمان بانتباه.

- إطلاق الوجود يعني سقوط الحدود عنه. يعني امتداده نحو اللانهاية. هذا التوسع يجعل من الوجود المطلق غير متناهٍ من جميع الجوانب. هذا الوصف ينطبق على من الوجود يصدر عن ذاته لأنكما تعلمان أن ذات الوجود لا تجتمع مع ذات العدم. إطلاق الوجود وصف لا يناسب واجب الوجود بالغير، لأن واجبية الوجود مشتركة بين ما هو واجب الوجود بالذات وما هو واجب الوجود بالغير. وقصارى ما ينتج عن واجبية الوجود بالغير هو الحتمية الوجودية لا الارتفاع عن حدود الوجود. أي أن زوال

العدم من جميع الجهات عن الموجود بالغير لا يتحقق بضرورة وجوده، بل يتحقق بإطلاق وجوده. الغنى الذاتي لا يفسره الوجوب. الوجوب يؤكد على استمرار الوجود وضرورته فحسب. إنا يا إيمان نبحث عن سر الغنى والاستقلالية التامة. إطلاق الوجود يفسر الغنى المحض، ويوجد فرق جوهري بين **واجب الوجود بالغير، وواجب الوجود بالذات**، بعد أن عجز وجوب الوجود عن إيجاد هذا الفرق الجوهري.

- مفهوم جداً يا سيد ماهر. قالت إيمان.

- أرجو التكرم بإعادة ما ذكرت ملخصاً جداً يا سيد ماهر، وعذراً. طلب يقظان منه ذلك.

- بكل سرور. كنت أقول، بأننا لن نستطيع اكتشاف سر غنى العلة الأولى عبر ضرورة الوجود. إنها لا تعني أكثر من حتمية التحقق. الضرورة ليست رافعة لأطراف العدم بعكس إطلاق الوجود. العلة التامة استغنت عن الاحتياج بسبب فرط وجودها وإطلاقه وليس لضرورة وجودها. هكذا توضح الفارق العميق بين ذات الوجود المتعالي تبارك وتعالى وبين الكون. **الحكمة المتعالية** ترفض أن يكون الفارق يكمن فحسب في أن الحق المتعالي وجوده من ذاته، والكون من وجوده من غيره، وتنص هذه الحكمة بأن ذات الوجود المتعالي هو الوجود الإطلاقي الوحيد، والذي لا ند له أبداً ولا شبيه، بينما الكون، لكي لا

يكون شبيهاً للحق من أي ناحية، فقر محض. هل لكما أن تكتشفا الشبه بين الغني المطلق، والفقير المطلق؟.

- يا إلهي، لا يوجد للشبه وجه.

- **بينما وجه الشبه قائم بين وجوب الوجود بالذات ووجوب الوجود بالغير.**

- لقد فهمت جيدا. قال يقظان.

- الكون غارق في الحاجة لأنه فقر محض سابقا والآن ولاحقاً، لأن ذاته خلو تام من الوجود بنحو دائم. وحتى بعد استعارته للوجود، يبقى فقيراً بالذات، ووجوداً بالغير.

- إذن، وجوب الوجود فعلا لا يصلح لأن يكون سر الغنى في ذات العلة التامة. الإطلاق هو الحل الأمثل. قالت إيمان.

- وكذلك في الجهة المقابلة، ما يصلح لأن يكون مفسراً لاستغراق المعلول في الحاجة ونقص الوجود هو الفقر. قال يقظان.

- ها أنتما الآن عرفتما الموضوع كما ينبغي معرفته.

ـ ٦ ـ

الحب والرضا أم الجبر والاضطرار؟

كانت سيارة يقظان قد بلغت قلعة الخوض. ومنها انطلقت باتجاه سور «جما» التي كانت تستخدم لحراسة المدينة، وبناؤها يرجع إلى ما قبل ٢٠٠ عام من الآن. توجه يقظان جهة سور الرواية، الذي بني قبل ١٥٠ عاماً من الآن ويتكون من ٦ حجرات ومجلس. بعدها انطلق بسيارته عائداً جهة مسقط.

- قال السيد ماهر: في الحديث مرت الإشارة ضمناً إلى الجبر العلي. أتذكران؟.

- نعم. بعضهم يقول إن قاعدة إذا وجدت العلة فمعلولها ضروري الوجود مؤداه الجبر. قالت إيمان.

- فعلاً. ولكن كلامهم غير دقيق. أشرنا إلى أن العلة التامة طبيعتها إفاضة الوجود. هذا الأمر ليس شيئا لاحقا بوجود العلة. ذات العلة تقتضيه معناه أن طبع العلة ذلك. الاضطرار لا يتصور في فعل هو من طبيعة الشيء.

- هل لديك مثال توضيحي؟ سأله يقظان.

- ذكرتُ قبل قليل مثالَ حب إيمان لأمها. ربما لم يكن دقيقاً. حسناً، بعد أن توجد العينان في الإنسان، هل أن استخدامه لهما يعد اضطراراً؟ فلو قال له قائل: إنك مجبور على المشاهدة ومضطر على النظر، وعليه فالرؤية فعل إجباري اضطراري، أكان كلامه صحيحاً؟

- لا أجد فيه خطأ. علق يقظان.

- كلا يا يقظان. ليس صحيحاً. إن طبيعتك تقتضي أن ترى الأشياء. ومثل هذه الأفعال التي نأتي بها طبقاً لتكويننا لا يقال لها اضطرار. ردت إيمان.

- الاضطرار يا يقظان يكون على فعل مكره لنا. فعل لا نريده ولا نرتضيه وثمة من يجبرنا على الإتيان به.

- ربما تكونان محقين. قال يقظان.

- العلة التامة، محبة لذاتها كما هي، وراضية بفعلها. وفعلها مما تقتضيه ذات العلة وليس بأجنبي عنها. فلا معنى للاضطرار أساساً. فضلا عن هذا، فمنكرو هذه القاعدة العقلية الصريحة، بابتكار فكرة الزمان الأزلي الواقع بين العلة التامة ومعلولها، قد أخرجوا الزمان من قانون العلية. إنهم يقولون بأن العلة الأولى مختارة متى شاءت في إيجاد معلولها. ولا ينطبق عليها أيٌّ من قواعد العلية المارة علينا سابقاً. فلنسألهم: هل للزمان موجد؟ إن قالوا نعم، فسوف نسألهم: وفي أي زمان أوجدت العلة الزمانَ؟ نراهم يعجزون عن الإجابة. إن فكرة الاضطرار سيطرت على

العديد من المفكرين وجعلتهم ينكرون تطبيق القاعدة على العلة التامة. ومنهم من حاول ابتكار نمط ثانٍ من أنماط العلاقة بين الموجد ومعلولاته، هروبا من هذه الإشكالية. الخلاصة: علينا أن نفهم أن ما يقتضيه الشيء بذاته لا يعد اضطراراً له، لأن ذلك طبعه.

- مفهوم يا سيد ماهر. هل بقي شيء؟ سألته إيمان.

- نعم بقي أمران. رد السيد ماهر. أطراف العلية، وقاعدة التناسب بين العلة وبين معلولها.

ـ ٧ ـ

لنلقِ بالأطراف بعيداً

- قال السيد ماهر: عندما نتحدث عن العلية كقانون. ترتسم في أذهاننا خمس أطراف لها. العلة، وهي المانحة للوجود، والمعلول، وهو المتلقي لمنحة الوجود، والمنحة نفسها، أعني الوجود، والإعطاء، وهو فعل العلة، والتلقي، وهو فعل المعلول.

- صحيح. قال يقظان.

- كلا. ليس بصحيح. رد السيد ماهر مبتسماً.

- كيف؟ قالت إيمان مبتسمة.

- المعلول ليس له وجود قبل التواجد، حتى يتلقى فيض الوجود كما يتلقى حارس المرمى الكرة.

- فعلا. قال يقظان.

- وبالتالي، فلا يوجد تلقٍّ، وهو فعل المعلول.

- نعم. قالت إيمان معلقة.

- والمنحة، أعني فيض الوجود، لا يوجد في مكان فيتناوله

الموجد ويقذفه أو يوجهه صوب العدم. وعليه فالإعطاء كما نتصوره ليس بموجود.

- غريب فعلاً. علق يقظان متعجباً.

- لا غرابة في ذلك. الإعطاء يكون للمعطي. وأين المعطي قبل الإعطاء حتى يأخذ؟

- فعلاً. مذهل حقاً. علق يقظان مجدداً.

- بقي الموجد وهو العلة. العلة ذاتها الوجود بنحو الإطلاق. هذا الوجود يظهر بشكل علامة وآية تدل على العلة الموجدة.

- ما أعجب ذلك؟ كيف؟ أكاد لا أصدق. علقت إيمان.

- كنا صباح اليوم على شاطئ البحر. ورأينا الأمواج تتقاذفها الرياح. هل الأمواج غير البحر؟.

- كلا. رد يقظان وقد بدا عليه الاهتمام والجد.

- الأمواج هي البحر وقد ظهر بمظهر الموج. ذات الموج واقعية تدل على البحر. ليس الموج إلا مظهرا للبحر.

- يا إلهي. هل تريد القول بأن الكون برمته مظهر لذات الحق تعالى؟ قالت إيمان.

- الواقع إن هذه النتيجة مرت علينا سابقاً أيضاً يا إيمان. قال يقظان.

- أين؟ سألته إيمان مندهشة.

- عندما توصلنا إلى أن الكون فقر محض.

- آه. فعلاً. علقت إيمان.

- المهم، أن العلية تعني العلة التي توجد المعلول. ولا ثمة أطراف خمسة للموضوع.

- ٨ -

حجم الأثر

- إليكما آخر ما تبقى لديَّ: قاعدة التناسب بين العلة والمعلول، قال السيِّد ماهر وقد قارب الوقت الدقيقة الأربعين بعد الساعة الواحدة ظهراً. كانت شوارع مسقط مكتظة بالسيارات. في الواقع كانت الشوارع تختنق من الزحمة.

- ما هي هذه القاعدة؟ سألته إيمان.

- هذه القاعدة تعني أن بين المعلول وعلته تناسبا. هل يمكنك الضغط على زر بوق السيارة مرة واحدة فقط يا يقظان؟، قال السيد ماهر مبتسما. ابتسم يقظان وضغط ضغطة خفيفة على زر البوق لأنه لم يكن بمقدوره لا التكرار ولا الضغط الشديد نظراً لأن ذلك فيه إزعاجا لبقية السيارات ولفت أنظار إليه دون سبب، هذا فضلاً عن أن استخدام البوق بلا مبرر في شوارع مسقط يعد مخالفة مرورية صريحة يعاقب عليها القانون. لم يكن السيد ماهر يعلم ذلك.

- الحظا أن صوت البوق قد خرج بمستوى ضغطة يقظان على الزر. والحظا أيضا أن الذي صدر عن السيارة هو الصوت لا شيء آخر. وأخيراً الحظا أن هذه القوة التي ظهرت متمثلة في الصوت يتضمنها الجهاز المعد لغرض إخراج هذا الصوت، وإلا لاستحال أن يصدر عن السيارة. هذه هي قاعدة التناسب.

- سهلة للغاية. قالت إيمان.

- نعم يا إيمان. من المستحيل أن يصدر بالتصفيق صوت بوق السفينة أو القطار، لأنه حينئذ سيكون صدور شيء بلا سبب ولا علة. تصفيق يقظان لا يتناسب وصوت بوق الباخرة. فيكون الصادر قد صدر بلا علة وهذا تناقض.

- واضح جدا، قالت إيمان. وهنا دوَّى صوت الرعد بقوة. برقت السماء، وإذا بالمطر مجدداً يسقط بانهمار مثير فوق السيارات.

- من المستحيل أن يصدر عوضا عن صوت ارتطام اليدين بالتصفيق، شيء آخر من قبيل شرارة النار، أو أشعة شمس، زمردة، أو أي شيء آخر غير هذا الصوت فحسب. وإلا، لكان قد صدر شيء بلا علة.

- واضح جداً. علق يقظان مبتسماً.

- إذن، ما يصدر من العلة لا شك أن العلة تملكه في ذاتها حتى تعطيه إذ أن فاقد الشيء لا يعطيه. البعض اشتبه عليه

الأمر فظن أن معنى التناسب بين العلة والمعلول هو أن المعلول منكمش في ذات العلة قبل وجوده. وهذا غير صحيح على الإطلاق. العلة تملك كمال ما تمنح. مع الأسف أصر البعض على موقفهم إصراراً شديداً ورفضوا قبول وجود السنخية بين العلة ومعلولها.

- ما السنخية؟ سألته إيمان.

- السنخية تعني التناسب وأن هذا من ذاك. التفاحة من سنخ شجرتها.

- واضح. رد يقظان.

- يكفي إذن. ستَرِد هذه القواعد لأجل تطبيقها عندما نتحدث عن صنع العالم وغاياته. قال السيد ماهر وأردف: أتعبتكما كثيرا، وأشكر لكما رحلة اليوم. لقد شاهدت مدينة أخرى جميلة جداً وهي السيب.

- معنى ذلك أن الرحلة قد استهوتك. إذن نحن ماضون في تطبيق برنامجنا السياحي. قال يقظان.

- كما تشاءان ولكن ألا يكون ذلك محرجاً لكما بأي نحو من الأنحاء.

- سنأخذ السيد ماهر في جولة حول مدينة مسقط، ستشاهد غداً مبنى غرفة تجارة وصناعة عمان، ومبنى سوق مسقط للأوراق المالية، وشارع الوزارات، ومدينة الأعلام، والمستشفى السلطاني، وجامعة السلطان قابوس. ما رأيك؟

- هائل جداً.

بلغت السيارة بيت السيد ناصر، ترجل السيد ماهر، وصعد سيارة الفندق الذي يسكنه. كانت السيارة تنتظره عند بيت السيد ناصر. فتح السيِّد ماهر حقيبته التي تركها اليوم في السيارة، استخرج منها ملخص الدرس، وأعطاه لكل من إيمان ويقظان، ثم ودَّعهما. انطلقت السيارة به بعيداً، حتى توارت تماماً عن أعين يقظان وإيمان. نظرا في الملخص وبدءا يقرآنه:

√ العلة هي ذلك الموجود الذي تقتضي ذاته وجود معلوله، والمعلول هو الموجود الذي يرتبط بعلته لكي يوجد، وفقاً لطبيعته.

√ العلل تامة وناقصة.

√ إثبات وجود العلية يتوقف على إثبات وجود الحدوث في العالم.

√ العلية من المنتزعات العقلية بالتجربة الوجدانية.

√ الشيء ما لم يجب لم يوجد.

√ إذا وجدت العلة فوجود معلولها حتمي.

√ ملاك الغنى في العلة هو الإطلاق الوجودي، بينما منشأ الحاجة في المعلول هو الفقر الوجودي.

√ فعل العلة الأولى مصاحب للرضا والحب ولا صلة له بالجبر.

√ بين العلة والمعلول تناسب وسنخية.

الفصل الخامس

الوَجُود

- ١ -

ما هو أوضح شيء في العالم؟

تحركت سيارة يقظان صباح الاثنين، حيث كان الوقت الساعة الثامنة وخمس دقائق، باتجاه مبنى **سوق مسقط للأوراق المالية** في مسقط، الذي تم إنشاءه في العام١٩٨٩م. في السوق يحدث العرض والطلب على أسهم الشركات المساهمة. قدم يقظان فكرة موجزة عن القوانين السائدة فيه، وكيف أن السوق يستقبل استثمارات تربو على ٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ريال عماني. ثم عطف في شارع الحي التجاري، حيث شاهد السيد ماهر مبنى **غرفة التجارة والصناعة**، وأدهشه مبنى **البنك المركزي العماني**. وقفل يقظان عائداً إلى بوشر ولكن عبر طريق **الوادي الكبير** الجبلي، ليتسنى للسيد ماهر مشاهدة هذا الطريق الجميل، فأدهشه موقع **فندق قصر البستان**، الذي حاز على جائزة أفضل فندق في الشرق الأوسط في الأعوام ٩٣ و٩٤ و٩٥م. بعدها سلكت السيارة طريق منتجع جبلي حديث اسمه بر **الجصة**، أذهل السيد ماهر المنتجع بروعته وجماله وخدماته، حيث قضى الجميع بعض الوقت بالتجوال فيه، ثم خرجوا جهة بوشر، وبعد

حوالى نصف الساعة، وصلت السيارة عند مبنى المستشفى السلطاني الذي تأسس العام١٩٨٧م، ولحظ السيد ماهر القسم الخاص بعلاج مرض السرطان، بينما كان يقظان يخبره بأن قسم العناية بمرضى القلب سوف يستقل عن المستشفى ويكون له مبنى خاص به عن قريب. ومن بوشر سلك يقظان طريقه متوجهاً إلى منطقة الرسيل الصناعية.

- هل لديك فكرة يا سيد ماهر عن أصل تسمية السلطنة باسمها الحالي؟ سأله يقظان.

- تقصد: «عُمان»؟. كلا.

- وأنا كذلك أجهل سر التسمية. هيا أفدنا. علقت إيمان.

- في الواقع كان يقال لها «مجان» بلغة السومريين. وكذلك أطلق عليها مزون. ولكن اشتهرت أخيراً باسمها الحالي «عُمان» نسبة إلى عُمان ابن النبي إبراهيم الخليل عليه السلام.

- إيمان: لم أسمع بذلك من قبل.

- هذا ما تؤكده الوثائق التاريخية يا أختي.

- فعلاً مدهش. علق السيد ماهر.

- مع أن المعلومة التي تلقيناها منك الآن كانت مذهلة وقيمة، ولكن أرجو أن تمنح السيد ماهر فرصة للبدء بالدرس. علقت إيمان.

- طيب أصمتُ. علق يقظان مبتسماً.

- هذه إشارة من يقظان بالبدء. طيب، هل تتصوران وجود شيء يتمتع بدرجة عالية جداً من الوضوح بحيث يصعب، بل يستحيل تعريفه أكثر من وضوحه، أي أن تعريفه أكثر لا يفيد أكثر؟.

- بما أن موضوع اليوم هو عن الوجود، فأكيد انك تقصد بسؤالك الوجود. قال يقظان.

- هذا صحيح. يمتاز موضوع الوجود بأهمية عظمى في **الحكمة المتعالية**. يؤكد صدر **المتألهين** أن من جهل معرفة الوجود سيسري جهله هذا في كل شيء، سيما الإلهيات. إن **الحكمة المتعالية** في الحقيقة تخصصت في الوجود.

- لكن، كيف يكون هذا الوضوح الشديد يا سيد ماهر؟ سألته إيمان.

- لو أردنا تعريف الوجود، للزمنا أن نعرفه بشيء أوضح منه. ومن خلال ذلك الأمر الأوضح منه، نتعرف إليه.

- كيف؟ سألت إيمان مجدداً.

- لو سألتك عن موقع منزلكم يا إيمان، فسوف تحاولين تعريفه بإمارات وعلامات معروفة جداً لي، كأن تصفي لي لونه المميز، أو قربه من معلم بارز معروف. لا يمكنك شرح موقعه لي عبر شيء أشد غموضاً منه لدي.

- فعلا صحيح. ردت إيمان.

- والآن، ما هو ذلك الشيء الأوضح من الوجود في ذهن

البشر؟ وقبل أن تنطق إيمان ببنت شفة، قال السيد ماهر: لا تجهدي ذهنك بالبحث عنه إيمان، فهو غير موجود.

- لماذا؟ سألته إيمان.

- لأننا نعرف ما نعرفه بالوجود. أعني أن الأشياء عندما لبست ثوب الوجود، عرفناها. فبالوجود عرفنا ما نعرف، فكيف وبم سنعرف الوجود؟ هل هناك شيء أظهر وأشد وضوحاً؟

- فعلا. لا يمكن أن يكون هنالك أمر أوضح عندنا من الوجود. علق يقظان.

- أعطني مثالاً توضيحياً سيد ماهر إذا أمكن، طلبت منه إيمان ذلك.

- من المفضل دائماً أن نفهم المسائل العقلية بعيداً عن الأمثلة الحسية، حتى تتقوى فينا المقدرة العقلية المجردة، ولأن الأمثلة الحسية لا تستطيع في أغلب الأحوال إعطاء الفكرة الصحيحة عن المسائل العقلية..

- فهمت يا سيدي. قالت إيمان بخجل.

- كلا يا إيمان. لم أقصد ألا تطلبي أمثلة توضيحية. لك كل الحق في ذلك. وإنما قصدت ألا تعتمدي دائماً على الأمثلة الحسية. أنظري إلى نور الشمس يا إيمان، كيف ينشر ضياءه على الأرض فيبدد الظلام. والآن لو طلب أحدهم أن ندله على نور الشمس، فبم سنفعل ذلك؟ إن

أقوى مصباح كهربائي على وجه الأرض لن ينفع للغرض. أليس كذلك؟

- بالطبع يا سيد ماهر.

- هكذا هو الوجود. إنه أظهر الأشياء. الأشياء بالوجود ظهرت من كتم العدم، فكيف سنعرفه وبم؟ هذا هو معنى القاعدة التي تقرر بأن مفهوم الوجود أبده البدهيات وحقيقته من أشد الواضحات.

ـ ٢ ـ

لفظ واحد يستوعب كل الكائنات

- إن للفظ «الوجود» خاصية عجيبة. إنه يستوعب حقائق الوجود برمتها دون أن يهتز معناه ويضطرب.

- كيف؟ سأله يقظان.

- يوجد في اللغة نوعان من الألفاظ. الأول هو تلك الألفاظ التي تطلق على عدة أشياء، وفي كل إطلاق لا تحمل إلا معنى ذلك الشيء. يعني أن معناه يتغير بتغير موضوعاته.

- لم أفهم شيئاً. قال يقظان.

- لفظ العين، يطلق علام يا يقظان.

- يطلق على عين ماء، وعلى العين الناظرة في الإنسان. رد يقظان.

- أحسنت. يعني أن لفظ «العين» يشير إلى حقيقتين منفصلتين عن بعضها. نبع الماء يختلف عن أداة النظر. إذن هٰهنا حقيقتان مختلفتان عن بعضهما ولكن اشتركتا في لفظ واحد.

- صحيح. قالت إيمان.

- لنسم هذا الاشتراك لحقائق مختلفة في لفظ واحد بالاشتراك اللفظي. ولكن لفظ الوجود ليس كذلك. لفظ الوجود يطلق على حقائق لا حصر لها، دون أن يتغير معناه بتغير موضوعاته. «الشارع»، «القلعة»، «السيارة»، «البحر»، عدِّد ما شئت من الأشياء، إنها كلها تشترك في لفظ «الوجود»، لكن هل تغير معنى الوجود عندما أطلقته على منزلك، عن معناه عندما أطلقته على قلاع مسقط؟.

- كلا. لم يتغير أبداً. قالت إيمان بدهشة وتعجب.

- والآن لنسم هذا الاشتراك لسائر حقائق الوجود في لفظ واحد دون أن يصيب اللفظ أدنى تغيير في معناه، بالاشتراك المعنوي.

- سائر حقائق الوجود يا سيد ماهر؟ سألته إيمان.

- نعم إيمان. سائر حقائق الوجود بما فيه ذات الحق ـ تبارك وتعالى.

- عجيب. كيف؟ سأل يقظان.

- الكائنات تتصف بالوجود يا يقظان لكي تكون واقعية ومتحققة. ذات الحق ـ تعالى ـ تتمتع بأعلى درجات الوجود، وهي الدرجة الإطلاقية. البعض تخيل أن إطلاق لفظ «الوجود» ليشمل ذات الحق ـ تعالى ـ غير صحيح لأنه، بحسب ظنه هذا، سيغدو ـ تعالى ـ في مصاف

مخلوقاته الموجودة، الأمر الذي جعله يقرر أن الحق ـ تعالى ـ لا يطلق عليه لفظ «موجود»، وأن واقعيته ـ تعالى ـ واقعية مغايرة للوجود. ولأن ما يغاير الوجود هو العدم فقط، زعم صاحبنا بأن حقيقته ـ تعالى ـ لا يتصورها ولا يفهمها أو يدركها العقل. وهكذا عطل العقول عن أن تعرفه ـ تعالى ـ . فهو ـ سبحانه ـ ، بحسب هذا المنطق، ليس بموجود، ولا معدوم، ولكنه متحقق بنحو تعجز عقولنا عن فهمه. ما رأيكما؟

- منطق غريب فعلاً. قال يقظان.

- كلام غير واقعي ولا يمكن قبوله. قالت إيمان.

- إليكما برهانان آخران يثبتان أن لفظ «الوجود» مشترك معنوي وليس لفظيا. هذان البرهانان يستندان على قاعدة **استحالة اجتماع النقيضين**. الدليل الأول: لو لم يكن الوجود مشتركا معنويا لتغير معناه عند تغير موضوعه كما هو الحال مع لفظة «العين»، إذ يتغير معناها بحسب موضوعها، ولكن لا تغير في معنى «الوجود»، وعليه فالوجود مشترك معنوي.

- ما أسهله من دليل. قال يقظان.

- والدليل الآخر هو أن ما يناقض الوجود ويغايره من سائر الجهات بالذات هو العدم. والعدم معناه واحد، فيلزم أن يكون نقيضه ذا معنى واحد أيضاً، وإلا لما أصبح نقيضاً له.

- واضح. قال يقظان.

- أنا لم أفهم. قالت إيمان.

- حسنا. الوجود والعدم متغايران كما تعرفين يا إيمان.

- نعم. ردت إيمان.

- العدم يعني اللاوجود.

- نعم مفهوم. ردت إيمان.

- والوجود معناه التحقق. فلو كان له معنى آخر أو عدة معاني أخر، لما كان العدم مناقضا لبقية المعاني، لأنه يناقض الوجود فحسب. وفي هذه الحالة، لا يكون العدم مناقضاً للوجود.

- الآن فهمت. ردت إيمان.

- والواقع خلاف ذلك. إذ ليس في العدم إلا معنى واحد، فيجب أن يكون الوجود ذا معنى واحد أيضا ليكون مناقضاً له.

ـ ٣ ـ

هل يوجد فاصل بيننا وبين وجودنا؟

ـ ومن خواص مفهوم الوجود، أنه لا يختلط بأي مفهوم آخر فيصبح جزءا منه دالا عليه. بالطبع، هذا في عالم الذهن وليس في الواقع الخارجي.

ـ كيف؟ سألته إيمان.

ـ إننا إذا وضعنا التفاح والموز في خلاطة الفواكه،، فسوف نحصل على خليط. في هذا الخليط، أينما رأينا التفاح، سنلمس بجانبه مخلوطا به شيئا من الموز كذلك. لو أردنا من هذا الخليط أن يقدم لنا طعم الموز لوحده، لما أمكن ذلك لمكان الخلط الواقع بين الموز والتفاح كما مر. لكننا عندما نضع في أذهاننا أي شيء من الوقائع الموجودة أمامنا فإن الذهن يفصل الوجود عن سائر الأشياء المتلبسة به ويمنع تكون خليط يجمع بين مفهوم الوجود ومفاهيم سائر الأشياء الأخرى بالرغم من الوحدة الظاهرة بين الشيء ووجوده في الخارج.

ـ لم استوضح المعنى بعد. قالت إيمان.

- الشارع موجود. بمجرد أن ينطبع صورته في ذهني، نرى أن الذهن لا يعترف بوجود الشارع ما لم أربطه بالوجود، هذا فضلا عن عدم اعترافه بدلالة أيٍّ منهما على الآخر. لا مفهوم الشارع في الذهن يدل على وجوده ولا مفهوم الوجود يدل على الشارع. أعني أن ذهننا يفهم من الوجود التحقق، ويفهم من الشارع ذلك الطريق الذي تقطعه السيارات. ولو أردنا أن نجعل من أحد المفهومين دالا على الثاني لعجزنا. هذا الخليط يعجز الذهن عن صنعه. يظل مفهوم الوجود مستقلا تماماً عن مفاهيم سائر الأشياء الأخرى، كما أن الأشياء الأخرى لا يدل أي منها على مفهوم الوجود.

- الآن فهمت تماماً.

- هذا يعني أن الذهن مارس تفكيكاً بين الأشياء ووجودها، ولم يعترف بأن الوجود والأشياء أمر واحد. تأملا عشرات المرات صورة الجبل، أو مفهوم الألم، إن تصوركما هذا لن يجعل من الجبل والألم موجودين فعلاً ما لم تضفيا عليهما مفهوم الوجود. كل واحد منهما محتاج إلى أن يضفى عليه الوجود لكي يثبت ويتحقق. فلو كان تصور الوجود جزءا من تصورنا لبقية الأشياء، لكنا قد أدركناه مباشرة ولكن الأمر خلافه.

- ما الذي نريد أن نصل إليه من خلال هذه النقطة؟ قال يقظان.

- نريد أن نصل إلى وجود تغاير بين مفهوم الوجود وبين مفاهيم سائر الكائنات الأخرى. تتكون في ذهن الإنسان إزاء كل شيء نتصوره ونفهمه حقيقتان؛ الأولى تلك التي تحكي عن ذات الشيء، كتصورنا للجبل والبحر والسيارات والناس والمدن والقرى. والثانية تلك التي تحكي عن وجود ذلك الشيء وتحققه. ولنسم الحقيقة الأولى بـ **الماهية**، والأخرى بـ **الوجود**.

- لماذا هذه التسمية الغريبة؟ أعني «الماهية»؟ سأل يقظان.

- «الماهية» مأخوذة من سؤالنا عن الأشياء «ما هي». الجواب عن هذا سؤال «ما هو هذا أو ذاك أو ذلك الشيء»، دائما يأتي ليوضح خصوصيات الشيء دون وجوده.

- إذن، الخلاصة هي أنه في عالم الأذهان، هنالك أمران متحققان؛ الأول هو الشيء بمواصفاته وقد أطلقنا عليه الماهية، والثاني هو الوجود. قالت إيمان.

- بالضبط نعم. علق السيد ماهر.

ـ ٤ ـ

بلوغ الواقعية

ـ سوف أسألكما الآن سؤالاً في غاية من الأهمية. جوابه سيغدو الأساس الذي تبنى عليه **الحكمة المتعالية** سائرَ قواعدها. إننا على وشك بلوغ الواقعية، وسوف نشرب من ينبوع الوجود عن قريب.

ـ لقد شوقتنا لسماع السؤال. علقت إيمان.

ـ في أذهاننا شيئان تجاه كل أمر متحقق، هما ذلك الأمر نفسه، والوجود. أليس كذلك؟

ـ نعم. قال يقظان.

ـ ترى أي منهما يحكي عن الواقع الخارجي ويدل عليه بحيث يكون العالم مصداقا له؟.

ـ لم أفهم السؤال؟ قالت إيمان.

ـ وأنا كذلك. علق يقظان.

ـ دعاني أحدثكما عن الواقعية أولاً. ما الواقعية؟

ـ التحقق. رد يقظان فوراً.

- فعلاً، الواقعية هي التحقق. وما التحقق؟

- التحقق هو التواجد. يعني ما هو خلاف العدم. أي الوجود. قالت إيمان بحذر .

- بالفعل. أحسنت. إذن الواقع والتحقق والتواجد كلها تشير إلى الأمر ذاته. فلو أن شخصاً شك، أو أنكر التحقق والواقعية؟ كيف نرد عليه؟

سكتا ولم يجيبا.

- يكون كاذباً. لأنه في الحقيقة لم ينكر ولم يشك في وجود نفسه. لقد اعترف بالواقعية والتحقق على مستوى ذاته وإن ادعى بأنه شاك وناكر للواقع.

- كيف؟ سألت إيمان.

- لأنه مارس عميلة الشك أو الإنكار. وهو لا يشك في شكه، ولا يشك في إنكاره. يطلق على منكري الواقعية بالسوفسطائيين.

- ما هذه التسمية الغريبة؟ قال يقظان.

- السوفسطائية تأتي في مقابل الواقعية. وأول عمل الحكمة المتعالية هو أن تبرهن على الواقعية بدحض السفسطائية.

- وكيف ندحضها؟ سألت إيمان.

- بإثبات عجز واستحالة الشك في الواقعية. الطريق مغلق كلياً لإنكار الواقعية. لأن في كل إنكار اعترافا ضمنيا

بواقعية ما، واقعية الذات، وتفكيرها، وشكها، أو إنكارها.

- قد يقال بأن الذهن يبتدع من ذاته هذه التصورات ويعجز عن التخلي عنها كلياً. قالت إيمان.

- نعم. هذا الإنكار استند على استحالة اجتماع النقيضين. سبق وأن تبين أن هذه القاعدة تأسست على أساس الإطلاع على الواقعية.

- فهمت يا سيد ماهر. البحوث السابقة حول نظرية المعرفة تقدم لنا عوناً كبيراً على المضي قدماً. قالت إيمان ذلك بسرور.

- لنرجع إلى ما كنا فيه. إيمان أنت أنثى، وطالبة جامعية، وإنسان، وابنة، وأخت. هل كل ذلك صحيح؟

- نعم.

- ولكن، هل كل تلك العناوين تحكي عنك بدرجة واحدة، أم أن بعضها تحكي عنك بصورة أكبر، أم أن ثمة عنوانا ومفهوما واحدا هو الذي تكونين أنت مصداقاً له بصورة أكبر من سائر العناوين؟ هل حقيقتك تكمن في كونك ابنة، وسائر المفاهيم الأخرى تنبع من صفة البنوة تلك؟ أم أن حقيقتك تساوي كونك أنثى، أم أختا، أم إنسانا؟ ما رأيك يا إيمان؟

وجدها تتأمل ملياً.

- صفة المدير، ومتعلقات هذه الصفة من قبيل الراتب، والاجازات، والمخصصات والبدل، والدورات التدريبية، كلها متوقفة على وصف التوظيف. ينال الإنسان تلك الخصوصيات لكونه موظفاً، وليس ابناً أو أباً. ومهنة التدريس تبعث عناوين تدور في فلكها وتتعلق بالإنسان عن طريق تلك المهنة. من قبيل، الحضور في المدرسة، وضع الامتحانات، التعليم، التأديب.

- فهمت يا سيد ماهر. عنوان الإنسانية يسبق بقية العناوين كما يبدو لي. ردت إيمان.

- رائع. هكذا هو الحال فعلا. لا يمكنك أن تكوني أختا أو ابنة أو طالبة وإلى غير ذلك من العناوين ما لم تكوني إنساناً. ولكن، هل عنوان الإنسان نفسه مسبوق بعنوان آخر لولاه لما أمكنه حتى أن يكون إنساناً؟.

- نعم. أن أكون موجودة. ردت إيمان بوثوق.

- أحسنت يا إيمان .الوجود هو المانح لك التحقق. ولا يمكن أن يسبقه أي مفهوم آخر على الإطلاق. ولنرجع إلى الذهن. هناك مفهوم الماهية الذي يحكي عن خصوصياتك، كونك إنسانا، وأنثى، وطالبة، وابنة، وأختاً، وهناك مفهوم يحكي عن وجودك، ولقد عرفنا بأن أحدهما لا يدل على الآخر أبداً. والسؤال هنا هو «هل إن ما يحكي عن واقعيتك وتحققك، هو مفهوم الوجود أم مفهوم الماهية؟». انتبها جيداً يا إيمان ويا يقظان، هذه

ليست لعبة ذهنية نريد بها أن نضع المفاهيم صفاً بترتيب أفقي كما لو كنا نصفف قطع الشطرنج لتبدو في موقعها الصحيح. كلا، إننا نريد أن نكتشف الخارج. نريد أن نعرف هل إن إيمان مصداق لمفهوم **الوجود** أم هي مصداق لمفهوم **الماهية**؟ لو كانت إيمان مصداق ومؤشر على مفهوم **الوجود**، لأضحى الواقع الخارجي كله وجودا، وعليه يصبح **الوجود** هو المتحقق وهو الواقعية التي لا يمكن إنكارها. يجب علينا عند ذلك التعامل مع الخارج على أساس التعامل مع **الوجود**. سيتوجب علينا معرفة **الوجود** وأحكامه حتى نعرف كيف نتعامل معه. هل العالم الخارجي وجود؟ هل هنالك وجود بحر، ووجود سماء، ووجود شجر؟

- وماذا عن الماهيات؟ سأله يقظان مستفهماً.

- علينا أن نجد لها تفسيراً بعد أن اكتشفنا **الوجود**. وسوف نفعل ذلك وبمنتهى السهولة واليسر.

- يا سيد ماهر، عذراً، ولكنني أرى أن الموضوع سهل بسيط للغاية. بلا شك يجب أن يكون **الوجود** هو المحكي الحقيقي عن العالم بما فيه. أعني أن العالم يفترض أن يكون مصداقاً لظاهرة التحقق. هل أخطأت؟ قالت إيمان متعجبة.

- إن ما ذكرته صحيح تماماً. المسألة كما تفضلت واضحة جداً. ولكن، مع الأسف، عدم التعامل مع الواقع على

أساس الوجود جعل الذهن لا يلتفت إلى أحكامه، وتدريجياً غفلنا عن الوجود كلياً، فأصبحنا نعامل الماهيات وكأنها أصيلة، وكأن الوجود مفهوم ابتكره العقل اضطراراً وليس حاكياً عن الواقع، بينما الأمر خلافه. لقد ضاعت علينا فرصة اكتشاف حقائق عديدة لأننا لم نتعامل مع الوجود معاملة صحيحة. إن الحكمة المتعالية تطلق على هذه النظرية، أعني كون العالم الخارجي بما فيه من الحقائق مصداقا لمفهوم الوجود في أذهاننا، وأن هذا المفهوم، أعني مفهوم الوجود، يحكي عن متن الواقعية، ?أقول تطلق الحكمة المتعالية على هذه النظرية نظرية أصالة الوجود.

- ولكن هل هذه نظرية؟ سألت إيمان.

- كلا. وليس هو اكتشاف بقدر ما هو التفات. ولكن لأن المسألة دارت بين الإثبات والنفي، غدت على هذا الأساس تعرف بـ «نظرية».

- وهل توجد براهين على هذا الموضوع الواضح؟ سألت إيمان باستغراب.

- بلى، توجد. وسوف أستعرضها الآن حتى تفهما الموضوع بصورة أعمق.

ـ ٥ ـ

ينبوع الوجود

- سوف تنتابكما الحيرة إذا اطلعتما على البراهين التي أوردها صدر المتألهين لإثبات أصالة الوجود.

- لماذا الحيرة؟ سألته إيمان.

- لأنها تثبت موضوعاً أسهل من براهينه. تخيلا أن ما نريد إثباته أوضح من براهينه؟.

- دعنا نسمع. قال يقظان.

- ما رأيكما إن قلت لكما أن الوجود لو لم يكن حقيقة واقعية لاستحال تحقق أي شيء؟.

- كيف تكون بقية الأشياء متحققة ولكن ما به التحقق غير موجود؟، قال يقظان.

- هذا كان أحد البراهين التي ذكرها صدر المتألهين في كتابه المشاعر.

- إنه يحاول إثبات الشمس في رابعة النهار. قالت إيمان.

- إليكما برهانه الثاني: كل ما هو أصيل، فهو دائماً أصيل.

- عفواً أستاذ، ماذا تقصد من كلمة «أصيل»؟ سأله يقظان مقاطعاً.

- أي متحقق بالذات. كنت أقول، لو كانت الماهيات المنتشرة في أرجاء الكون أصيلة، فإن ذواتها عين الوجود. أعني أنها والوجود أمر واحد، دائما وأبداً أينما وجدت. لكننا نلحظ وجودها في أذهاننا يفقد خصوصياتها وآثارها. الرياحين والورود في أذهاننا فاقدة لروائحها، والسيارات التي نتخيلها في أذهاننا تمشي بلا وقود، والنار المحرقة لا تُحرق في عالم الذهن. إن وجودها الذهني فاقد لخصوصياتها الثابتة لها في الخارج. علماً بأن ما في ذهننا من ماهيات هي نفسها في الخارج.

- كيف تكون نفسها؟ سأله يقظان.

- هي نفسها بدليل أننا نتعامل مع صورتها على نحو الحقيقة. ألست تستذكر أمراً رأيته بالأمس وتصفه لصديقك على أساس أن ما تصفه له وصف حقيقي للشيء الذي رأيته؟ لن تطلب الاعتذار منه على أساس أن ما تتذكره لا ينطبق ولا يحكي عما رأيت.

- نعم. هذا الموضوع مر علينا سابقاً. إن العلم الحضوري يؤمن يقيننا بصدق تصوراتنا. قالت إيمان.

- أحسنت. الآن نقول، بأن الماهية لو كانت أصيلة، أعني أن مفهومها الذهني لو كان عين الواقعية وحاكياً عن الكائن الخارجي وكان الواقع الخارجي مصداقاً لمفهوم

الماهية لما وجدنا الماهية في الذهن فاقدة لخصوصياتها؟ لماذا فقدت خصوصياتها في الذهن؟ الصورة الذهنية ليست حاكية عن الوجود، وليس الوجود الخارجي مصداقاً لها.

- تريد القول، أن الماهية التي توجد في الخارج مع الآثار، وتوجد في الذهن بلا آثار، لو كانت تساوي الوجود لما فقدت آثارها أبداً؟ سأله يقظان.

- بلى يا يقظان. أحسنت على هذا الاختصار المباشر.

- إليكما دليلاً آخر: هل الشجر والبحر أمر واحد؟

- كلا. بالطبع والوجدان. قال يقظان.

- وهكذا كل شيء غير الآخر.

- أكيد. ردت إيمان.

- وعندما نريد أن نحمل شيئا على شيء نقول مثلا «الكتاب أبيض». ماهية الكتاب تغاير ماهية اللون، وعليه، يجب أن يكون ثمة عامل خفي يبيح لنا ربط المغاير بالمغاير له. ربط المغاير المطلق من جميع الجهات بالمغاير له من جميع الجهات غير ممكن. بعض الماهيات تربطها ببعضها علاقة ما، تبيح لنا حملها على بعض. فمثلاً، ماهية الأسد، يمكن حملها على ماهية الحيوان، فنقول الأسد حيوان. فالأسد محمول، والحيوان محمول عليه، وما يبرر الحمل، أن الأسد ينتمي إلى الحيوانات. وهذا الحمل الذي يربط بين ذوي علاقة يعرف بـ الحمل الأولي. ولكن،

ما الذي يبيح حمل اللهب على اللون الذهبي؟ لا توجد بينهما أدنى علاقة. نحن نحمل اللهب على اللون الذهبي فنقول اللهب لونه ذهبي، وهذا الحمل يعرف بـ **الحمل الصناعي**، فكيف تم لنا الحمل الصناعي وعلى أي أساس بينما المغايرة صارخة بينهما؟

- توجد علاقة. قالت إيمان. إنهما موجودان.

- أحسنت. هذا هو الجواب. الجهة الرابطة هي **الوجود**. فلو كان الوجود مفهوماً لا مصداق له لاستحال الحمل الصناعي. ولكن الحمل الصناعي متحقق، ذلك لأن الوجود أصيل والواقع العيني مصداق له.

- دعني ألخص لك ما تريد قوله من خلال هذه الأدلة: إننا نريد أن نقول إن العالم بما يزخر به من كائنات، كلها متحققة بفعل الوجود. إنها وجودات، أعني أشكالا وجودية مختلفة. هذه الأشكال الوجودية عندما ظهرت في أذهاننا، تصرف الذهن فيها ففكها إلى شقين؛ شق يفهم الذهن منه تحقق هذه الكائنات، وشق يفهم منه خصوصياتها. قالت إيمان.

- ما أروع هذا الاختصار يا إيمان. ومع كثرة التعامل مع خصوصيات الأشياء، وقلة الالتفات إلى الجانب الوجودي، غفلنا تماماً عن الوجود، حتى أصبح الالتفات إليه مجدداً صعبا جداً .**أصالة الوجود** تلفت أذهاننا إلى الوجود الذي يلبس لباس الماهيات .**أصالة الوجود** تقول

لنا إن الماهيات متحققة بقوة الوجود، وظاهرة في نور الوجود، وتسبح في بحر الوجود، علينا إذن أن نلتفت إلى ما يحققها، ونؤسس علماً يدرس هذه الظاهرة، فهل ظاهرة الوجود، تتمتع بالوحدة، أم أنها تقبل الكثرة؟ وهل هي قديمة أم أنها تقبل الحدوث؟ وهل هي غنية أم أنها تقبل الفقر والاحتياج؟ وإلى غير ذلك من المسائل التي تتعلق بها.

ـ ٦ ـ

الأشكال الوجودية..
أم الأشباح الذهنية

- حقاً الموضوع عجيب. الماهيات إذن، أشياء تلبس لباس الوجود يا سيد ماهر؟ هذه الجملة ربما تحتاج إلى شيء من التوضيح. علق يقظان.

عندها تناول السيد ماهر ورقة من دفتر يقظان، وأخرج قلماً من جيبه، ورسم مربعاً متوسط الحجم على الورقة البيضاء، ثم قال:

- لقد رسمت مربعاً أزرق اللون على ورقة بيضاء. بعد تأملكما له، سيحدث أن يتواجد في الذهن مفهومان اثنان؛ الأول عن مفهوم البياض، والآخر عن مفهوم المربع الأزرق.

- واضح جداً. قالت إيمان.

- والآن، هل هنالك أمران متحققان على الورقة البيضاء، البياض والمربع الأزرق؟

سكتا ولم يجيبا.

- ما الذي جرى؟ المتحقق في الخارج هو البياض. ولكن محدودية هذا البياض من الجهات أربع أدى إلى حدوث قالب له في أذهاننا. وأصبح مفهوم المربع الأزرق في الذهن حاكيا عن حدود البياض.

- ما أوضح ذلك. قالت إيمان بتعجب وارتياح.

- لمع في ذهني مثال رائع يا سيد ماهر. قال يقظان.

- تفضل يا يقظان أسمعنا.

- لنفترض أن لدينا قطعة ضخمة من الطين. قمنا برسم أشكال عليه. ثم عدنا نتأمله، فسوف يلحظ الذهن الطين، كما سيلحظ الأشكال. ولكن المتحقق في الخارج ليس غير الطين، إلا أن الخطوط جعلت أذهاننا ترى الأشكال وترى الطين وكأنهما أمران اثنان. قال يقظان متحمساً.

- ما أروع مثالك. لقد فهمت الموضوع بعمق يا يقظان.

- مبروك يا يقظان. قالت إيمان بابتسامة كبيرة.

- التفتا جيداً، لو غضضنا النظر عن الخطوط فسوف نرى الطين فحسب، أعني الوجود فقط. لكن التأمل المستمر للخطوط يجعلنا نذهل عن الطين فلا نلتفت تدريجياً له. يمكننا الآن القول بأن الماهيات، أعني تلك الرسوم على الطين، قوالب وجودية تحكي عن حدود الوجود. وهناك تعبير آخر لها يتعلق بوجودها في الذهن، وهو أنها أشباح الوجود التي تظهر في أذهاننا فقط.

- لكنها موجودة في الخارج. ردت إيمان.

- نعم بالطبع ولكن أذهاننا تنظر إليها وكأنها حقائق مستقلة، وكأن الوجود مفهوم انتزعناه من هذه الماهيات. لدرجة اننا نحمل الوجود على الأشياء فنقول إن الإنسان موجود، بينما كان المفترض أن نقول، هذا الوجود إنسان. هل لاحظتما الفرق؟

- أصبح الموضوع واضحاً بشكل كبير يا سيد ماهر. لقد قلت أن نظرية أصالة الوجود هي القاعدة الأهم في بنيان الحكمة المتعالية، ولكن كثيرا من الناس يعجز عن فهمها كما ينبغي. قال يقظان.

- إن بعض شروح هذه القاعدة، مع الأسف، تصرف الذهن عن أغراضها الحقيقية، ربما بسبب المصطلحات المعقدة التي تحيط بها، فلا يحس الدارس أنه يدرس أمراً يتكلم عن واقعيته هو وواقعية سائر الحقائق من حوله .أصالة الوجود توجه العقل صوب الحقيقة، وتقدم له رؤية كونية عظيمة جداً.

- نشكرك على الجهد الذي تبذله يا سيد ماهر. لا ندري كيف نكافئك. قالت إيمان .

- لا شكر على واجب. ها أنا ذا ألف وأدور في أرجاء مسقط الجميلة وأتعرف إلى معالمها. كل هذا على حساب وقتكم وجهدكم أيضاً. ولكن، بالمناسبة، أين نحن الآن؟

- هذه منطقة الرسيل الصناعية، أجابه يقظان واستطرد: إنها قلعة اقتصادية هامة في مسقط، تقبع فيها كبرى مصانع السلطنة، على مساحة تصل إلى ١,٥ مليون متر مربع.

- أظن أن عدد المصانع فيها يصل إلى ١٣٧ مصنعاً. علقت إيمان.

- بالضبط يا إيمان.

- ما أضخمها. جالت السيارة في المنطقة، وألقى السيد ماهر نظرة فاحصة على المصانع التي كانت سيارة يقظان تمر عليها، وبعد ذلك، خرجت السيارة من المنطقة متوجهة إلى جامعة السلطان قابوس.

ـ ٧ ـ

غرفة من معين الوجود

- من الآن فصاعداً، لن نتحدث إلا عن ظاهرة الوجود، وليس عن مفهومها.
- أكنا نتحدث عن مفهومها سابقاً؟ سأله يقظان.
- نعم. أتذكران بداهة ووضوح مفهوم الوجود؟ واشتراك مفهوم الوجود المعنوي؟ وكذلك غيرية مفهوم الوجود عن مفهوم الماهيات؟ هذه المواضيع الثلاثة، كانت تتعلق بمفهوم الوجود وليس بواقعيته. وبدأنا بعد ذلك باكتشاف واقعيته. والان، سنتحدث عن هذه الواقعية.
- طيب. ردت إيمان.
- هل تذكران مسائل المعرفة؟ كيف أن الوجود يغاير العدم بالذات ولا يجتمع معه؟ ها نحن الآن نتحدث عنه مجدداً ولكن متى؟ بعد أن عثرنا على واقعيته. حقيقة الوجود تأبى العدم. وإذا كانت حقيقة الوجود لا صلة لها بالعدم بتاتا، فمعنى هذا أن حقيقة الوجود حقيقة إطلاقية.
- الإطلاق هو الامتداد. أليس كذلك؟ سألت إيمان.

- الإطلاق أفضل من الامتداد. الامتداد عادة يرتبط كلياً بالزمان والمكان. أما الإطلاق فانطباقه على غير الماديات أدق. المهم أن الإطلاق معناه سقوط الحدود العدمية سقوطاً كلياً من جميع الجهات، وتاليه أن **الوجود** يصبح لا نهائياً من جميع الجهات. يعبر عادة عن ذلك بـ **الوجود** الذي هو فوق ما لا يتناهى بما لا يتناهى مدة وعدة وشدة. إنه **الوجود** المحض الذي ليس فيه غير **الوجود** والتحقق والواقعية.

- تحقق فوق تحقق، نور على نور. يا له من أمر عجيب. قال يقظان.

- سائر الكمالات التي لا مصدر لها إلا **الوجود**، تصبح على نحو إطلاقي في حقيقة **الوجود**. هناك الغنى على الإطلاق. هل القوة، والقدرة، والإرادة، والحياة، والعلم، والحقانية، تنبعث من العدم أم أنها تنبعث من **الوجود**؟

- كيف تنبثق من العدم؟ بالطبع من **الوجود**. قال يقظان.

- إذن، متن **الوجود** يتساوق مع الغنى التام والكمال اللانهائي والإطلاق من جميع الجهات. القوة والقدرة والعلم والإرادة والحياة، كل ذلك هناك غيرُ محدود، لا نهائيٌّ وإطلاقي.

- إذن ذات **الوجود** الإطلاقي يعني ذات الحق ـ تعالى ـ ، قالت إيمان.

- بلا شك. رد السيد ماهر.

- ولماذا إذن نذهب بعيداً لإقامة الأدلة على وجوده؟ وجود الله ـ تعالى ـ بدهي. قالت إيمان.

- أصبح سهلا عليك يا إيمان ان تستنتجي أن مسألة **الوجود** والواقعية أمر مسلم به ولا مجال للشك فيه. حقيقة **الوجود** بسيطة جداً. يعني أنها غير مركبة. كل مركب هو غير بسيط. البسيط في الحكمة يطلق على من ذاته غير مركبة. **والوجود**، إذا كان مركباً، يكون مركباً إما من **الوجود** وإما من غيره. غيره عدم. فبقي أن يكون مركباً من نفسه، وهذا الكلام غير منطقي، إذ كيف يتركب الشيء من نفسه ونفسه؟ إن للصديقين نظرة خاصة يا إيمان للوجود. إنهم عندما يرون متنه يرون ذات الحق ـ تعالى ـ ، ولا يحتاجون إلى أدلة وبراهين على الإطلاق .**أصالة الوجود** تقودهم إلى شهوده أولا قبل شهود أي شيء آخر. سيأتي ذلك مفصلا. المهم أن نعرف أن فقدان صلة العدم بمتن **الوجود** وحقيقته يجعلها حقيقة إطلاقية .

- ما أروع الانسجام بين ما نقوله الآن وبين ما تقرر سابقاً حول الفروق بين الضرورة والإطلاق. لقد أثبتنا فيما سبق أن ما يستطيع تفسير الغنى هو الإطلاق وليس الضرورة. ها نحن الآن نؤيده بمزيد من الدعم. قال يقظان.

- حقا إن مسائل الحكمة مترابطة جداً فيما بينها. قالت إيمان.

- إذا كانت حقيقة الوجود إطلاقية، فهل يوجد لوجودها سبب؟

- كلا. إذا كان السبب وجودا، عاد الأمر كما كان. ولا يكون الشيء سبب نفسه. قال يقظان.

- والعدم لا يصلح لأن يكون سببا للوجود. قالت إيمان.

- أحسنتما، إذن لا يوجد لحقيقة الوجود مصدر .الوجود يتكئ على نفس ذاته الإطلاقية. يتفرع على هذا الأمر، أن لا يكون للوجود ضد أو غير.

- ما الغير؟ سألت إيمان.

- أعني لا يكون للوجود ثانٍ، لأن ضده هو العدم، والعدم بطلان وهلاك.

- مفهوم. قالت إيمان.

- لقد أثبتنا وجود ذات الحق ـ تعالى ـ الإطلاقي، وعدم وجود شريك له، وقدمه وأزليته، وسائر صفاته الكمالية، وبساطته. قالت إيمان.

- هل وجدت في ذلك أدنى صعوبة يا إيمان؟

- كلا. على الإطلاق. ردت إيمان فرحة.

ـ ٨ ـ

الكثرة تطفو على سطح الوحدة لنغطس إذن...

- بقي علينا الغطس في حوض الكثرة الوجودية لبلوغ وحدته.
- يا إلهي، هل سنطفو؟ قالت إيمان ضاحكة.
- بلى، في الوحدة إن شاء الله ـ تعالى ـ . مستعدان؟
- بالتأكيد. قال يقظان متحمساً.
- لقد تحدثنا إلى حد الشبع حول حقيقة الوجود التي هي ذات الغنى والاستقلالية. ولكن، ما تفسير ما نراه من ألوان الوجود المحدودة وما علاقتها بمتن الوجود الإطلاقي؟ عادة، هذا الموضوع يطرح بنحو آخر وهو: هل الوجود ظاهرة تقبل الكثرة أم هي ظاهرة متوحدة ومنحصرة في فرد واحد؟ أنت تقود السيارة يا يقظان منذ الصباح الباكر، فهل رأيت في طريقك شيئا واحدا، أم أن بصرك قد وقع على مئات الأشياء؟
- بل مئات الأشياء مؤكداً. رد يقظان.

- إذن لقد أدركت الكثرة. علينا أن نبحث عن الصلة بين الكثرة الوجودية وبين الوحدة. الواقع، في هذا الموضوع بالذات أطروحتان شهيرتان جداً؛ الأولى ترى أن الوجود عبارة عن حقائق هائلة لا حصر لها أبداً. وتقابلها النظرية التي تقول أن الوجود عبارة عن واحد لا غير. وهؤلاء تفننوا في تفسير الكثرة التي لا تقبل الإنكار، فمنهم من قال أنها أوهام وخيالات تبدو لأذهاننا وكأنها حقائق وواقعيات، ومنهم من طرح آراء أخرى، كلها تشترك في إنكار الكثرة بأي نحو من الأنحاء. ومن الواضح أن محاولات إلغاء الكثرة خلاف الحقيقة والواقع المشهود عياناً.

- إذن الحكمة المتعالية ترفض الوحدة؟ سألته إيمان.

- إنها ترفض إلغاء الكثرة واعتبارها وهماً، لأن الأصول المعرفية التي مرت علينا تأبى ذلك.

- يعني تقبل الكثرة وتقبل الوحدة أيضا؟ قال يقظان.

- نعم .الحكمة المتعالية تؤمن بالكثرة وترى واقعيتها. ولكنها توجد بين الكثرة والوحدة صلة مذهلةً. إنها تقول أن «الوجود حقيقة واحدة مشككة».

- مشككة؟ سألت إيمان.

- مشككة تعني ذات مراتب. كل حقيقة تشكيكية ـ وهذا اصطلاح منطقي ـ تقبل المراتب والدرجات.

- يعني ماذا يا سيد ماهر؟ سألته إيمان.

- يعني أن الوجود، في الوقت الذي هو واحد، هو حقيقة ذات درجات هائلة ومقامات عديدة لا حصر لها. مقاماته تبدأ من الوجود الإطلاقي، وتنتهي إلى أسفل درجات الوجود. دعاني أوضح لكما: الوجود في مظهر الجماد وجود ولكنه أقل رتبة من وجود النبات.

- أقل رتبة في ماذا؟ سألت إيمان.

- أقل رتبة في كمالات الوجود يا إيمان. ألا ترين أن الصفات الكمالية تتواجد في النبات أكثر مما هي عليه عند الجماد؟ هذا هو المعنى بالدرجة العليا والدرجة الصغرى. وهكذا، فإن درجة وجود الحيوان أعلى عن درجة وجود النبات. والإنسان أعلى درجة عن الحيوان. ذات الحق - تبارك وتعالى - في أعلى درجة وجودية متصورة. إنها الرتبة الإطلاقية كما مر علينا.

- وكيف تثبت الوحدة بهذا الأسلوب؟ سأله يقظان.

- الحقائق الوجودية مشتركة كلها في الوجود.

- أريد توضيحاً أكثر يا سيد ماهر. قالت إيمان.

- أنتما تسمعان عن درجات الحرارة العظمى والصغرى. أليس كذلك؟

- بلى. قال يقظان.

- والآن أسألكما، الدرجة الصغرى والدرجة العظمى مختلفتان من جهة ومشتركتان من جهة أخرى. ما هي جهة

الاشتراك وما هي جهة الاختلاف والامتياز؟

- الدرجة العظمى والصغرى اشتركتا في الحرارة، واختلفتا في الدرجة. علق يقظان.

- اختلفتا في درجة ماذا؟

- درجة الحرارة. رد يقظان.

- والنتيجة؟

- الإشتراك والاختلاف في حقيقة واحدة وهي الحرارة. لقد فهمت جيداً. ردت إيمان.

- الحقائق التشكيكية كثيرة. فالنور أيضاً، له مراتب عديدة جداً. النور الضعيف، والنور القوي يشتركان في النورانية ويختلفان في الشدة والضعف. هكذا الأرقام، فالأرقام العليا والأرقام الدنيا كلها مشتركة في الرقمية ولكنها تختلف كثرة وقلة. إن لدينا الآن حقيقة واحدة تقبل الشدة والضعف، والكثرة والوحدة. إنها حقيقة الوجود.

- لماذا لا نقبل الكثرة الوجودية؟ أعني هل ثمة دليل يقودنا إلى هذا التوجه دون ذاك؟ بالطبع لا يمكن قبول الوحدة الوجودية المنكرة لسائر الحقائق. سأل يقظان.

- بالطبع لدينا أدلة مقنعة جداً تجعلنا لا نقبل الكثرة والاختلاف دون أن يكون هناك جانب يوحد حقائق الوجود. لقد مر عليكما سابقاً أن حمل مفهوم على آخر لا يصح ما لم تكن جهة اشتراك بينهما تجيز ذلك. ووجدنا

أن الوجود وحده يصحح الحمل الصناعي. وإليكما برهاناً آخر، وهو أن انتزاع مفهوم واحد من حقائق متباينة بالذات غير ممكن. إن صفاً مدرسياً يضم طلبة عدة من شتى دول العالم، ألوانهم متعددة،، وأشكالهم مختلفة، ولباس بعضهم لا يشابه لباس البعض الآخر، إن أردنا أن نجمعهم في وصف واحد يناسبهم منتزع من كيانهم يكون معبراً عنهم تماماً ويكونون هم مصداقاً فعلياً لذلك الوصف، علينا أولا أن نعثر على أمر جامع فيهم جميعاً. والأمر الجامع سيكون طلب العلم، فيصح أن نجمعهم في عنوان طلبة العلم. ولو أحضرنا سمكة، ووضعنا بجانبها قطعة من الزجاج، وحجرا صغيرا، وحبة خردل، ومجموعة من أدوية الصداع، ثم وضعناها على صحن فضي، وأردنا أن نجمع الأشياء في وصف يشير إليها جميعاً، لكان وجودها جميعا على الصحن الفضي نافعا جدا لأن يكون عنوانا جامعاً لها على الرغم من شدة اختلافها فيما بينها. فما الذي يجمع حقائق الكون كلها على تنوعها وكثرتها واختلافها؟ إنه وعاء الوجود .الوجود هو بمثابة الصحن الفضي هنا.

- ولكننا سبق ان برهنا يا سيد ماهر أن الوجود حقيقة، وبذلك قد أثبتناه وبالتالي لسنا بحاجة إلى تقديم أدلة أخرى. سألته إيمان.

- كلامك سليم. إن أصالة الوجود تنفع هنا أيضا لكي تكون

دليلا على المدعى. فلقد ثبت أن الوجود هو المتحقق، وأن الماهيات قوالب ذهنية قوامها بـ الوجود، وعليه فلقد برهنا عن وجود الجامع لسائر الحقائق، المتمثلة في حقيقة الوجود. ولكن أحببت أن أشير إلى أدلة أخرى أيضاً تقوي المدعى وتؤكده من جهات عدة. لهذه الرؤية تسمية وهي نظرية الوحدة في عين الكثرة وما به الاشتراك هو عين ما به الامتياز.

ـ ٩ ـ

الحقيقة الواحدة والمرايا الكثيرة

ـ سأختم الموضوع الآن بالإشارة إلى النظرات المتعددة التي يمكن أن ينظر إلى الموضوع من خلالها، وسوف أقوم بتحليلها وإرجاعها إلى نقطة مشتركة واحدة إن شاء الله. الواقع أن أشهر تلك النظرات هما نظرتان، أولهما ترجع إلى الفلاسفة، والأخرى ترجع إلى العرفاء. الفلاسفة، ومن المنظور الفلسفي، يرون أن الوجود واحد، ولكنه ذو مراتب عديدة هائلة لا يمكن حصرها. وأعظم المراتب على الإطلاق هي رتبة ذات الحق تعالى التي تتمتع بالإطلاق الوجودي. وأقل المراتب على الإطلاق هي مرتبة الصيرورة، حيث الموجود يظهر من رحم العدم لأول مرة ويحبو على بساط الوجود. ويرى الفلاسفة أن المراتب العليا علة لما دونها، فكل رتبة دنيا معلولة لما فوقها، إلى أن تنتهي المراتب إلى الوجود الإطلاقي، علة العلل. ووفقاً للقواعد التي تحكم علاقة العلية، يغدو كل ما هو في المراتب الأدنى من كمال موجوداً في المراتب العليا بنحو أعلى واشد، بينما كل

ما هو نقص وفقر في الأدنى، لا يرتفع ولا يتواجد في الأعلى.

- لماذا؟ سأل يقظان.

- لأن النقص من مختصات المرتبة النازلة ولا يصعد إلى أعلى. بينما الكمال يأتي من الأعلى.

- لم أفهم. قالت إيمان.

- تأملا الرقم ٧. إنه يدل على كثرة عددية تساوي سبعة. أعلى منه درجة هو الرقم ٨. الرقم ثمانية يحوي سبعة ولكن لا بنحو يغدو هو نفسه سبعة، بل بنحو كمالي، فما في السبعة من كثرة توجد في الثمانية ولكن بنحو تصاعدي. أما محدودية السبعة وعدم تجاوزه إلى أكثر من رتبته فليست متحققة في الثمانية.

- يا إلهي. كم هو غريب فعلا. قالت إيمان.

- ما وجه الغرابة فيه يا إيمان؟

- لست أدري بالضبط. ربما لأنني أسمعه لأول مرة. ردت إيمان مبتسمة.

- إنني استصعبت فهم مثال الأرقام سيد ماهر. قال يقظان.

- في الرقم ٩٠٠ هل يوجد رقم ٩؟

- نعم. قال يقظان.

- هل التسعة موجود بحده؟ لو كان موجوداً بحده لتحول ٩٠٠ إلى ٩.

- فعلا. رد يقظان.

- إذن وجود التسعة وجود بلا حدود. يعني أن عقلنا يدرك أن رقم ٩٠٠ يحوي هذا العدد في داخله، مما يعني أن سائر الأرقام الأقل منطوية فيه بنحو تصاعدي يحقق له رتبته وعدديته.

- الآن فهمت جيداً. رد يقظان.

- إذن الحدود تتعلق بالرتبة ولا تسري إلى ما هو في الأعلى. قالت إيمان.

- نعم بالتأكيد. تلك كانت نظرة الفلاسفة للوجود ومراتبه وسريان العلية فيه.ولننظر إلى رؤية العرفانيين للموضوع. يقول العرفانيون إن شخص الوجود واحد حقيقي، وهذا الواحد الحقيقي ظاهر في الملايين من المرايا الوجودية. العالم، بما فيه من الكائنات، تجليات للواحد الحقيقي. أنا وأنت ويقظان والبحار والسماوات والأراضي والفضاء وما إلى ذلك، لسنا أكثر من مرايا تظهر وجوده ـ تعالى ـ . هذا معناه التجلي وظهور الموجود الحقيقي الواحد في سائر الكائنات .

- إنها نظرة تتوافق مع ما انتهينا إليه في مبحث العلية. لقد أثبتنا فقر الكون من نفسه، ووجوده من غيره. قالت إيمان.

- ولكنا أيضاً أثبتنا صحة نظرة الفلاسفة كذلك. قبل قليل أثبتنا أن الوجود حقيقة واحدة ذات مراتب. أي النظرتين هي الصحيحة؟ سأله يقظان.

- البعض يعتقد أن بين رؤية الفلاسفة للوجود ورؤية العرفانيين له تناقضا صارخا، وبالتالي يجب أن تكون واحدة من النظرتين هي الصحيحة فحسب والأخرى باطلة. لكن الأمر ليس كذلك. في الحقيقة لا يوجد تناقض بين النظرتين. والحكمة المتعالية تجمع بينهما. صدر المتألهين أكد أن النظرتين ترجعان إلى نمط الرؤية التي نرى بها الحقيقة الواحدة، وهما يلتقيان حتماً. إن العلية عند صدر المتألهين تعني الظهور والتجلي. ففي مقام المعلول، هنالك ظهور لكمال العلة بالنحو الذي يتناسب وسعة وجود المعلول.
- لم أفهم طريقة الجمع بين النظرتين. قالت إيمان.
- لقد تبين لنا في المواضيع السابقة، أن الذي يصلح لأن يفسر لنا حاجة المعلول إلى العلة ليس حدوثه، ولا إمكانه، وإنما فقره من جهة الوجود. الفقر الوجودي هو المسؤول عن حاجة المعلول إلى العلة. وبموجب الفقر الوجودي، ليس في المعلول شيء من المعلول وشيء من العلة. هل تذكران مناقشاتنا حول أطراف العلية؟ لقد تبين لنا أن تمام المعلول محض فقر وتعلق بموجده. وفقاً لذلك، كل ما هو في المعلول جاء من العلة. إذن المعلول يظهر العلة ويكشف عن كمالها وعطائها.
- واضح جداً كوضوح الشمس يا سيد ماهر. قالت إيمان.
- فإذا أضحى المعلول مظهراً وآية، اجتمعت نظرة العارفين ونظرة الفلاسفة.

- كيف؟

- يقول الفيلسوف أن المعلول درجة من الوجود أنزل من درجة وجود العلة. لا يوجد بين هذا القول وبين إثبات الفقر الوجودي للمعلولات تعارض. ألم تجتمع النظرتان؟

- بلى، بمنتهى الوضوح. قال يقظان.

- إنها خطوة جبارة من صدر المتألهين أن يجمع بين هاتين النظرتين بهذه الطريقة المبتكرة. قالت إيمان.

- قاعدة الفقر الوجودي هي التي أباحت هذا الجمع. إن جهداً فكرياً جباراً بذل من قبل صدر المتألهين لكي يكتشف ضعف تفسير حاجة الأشياء إلى العلة بسبب الإمكان، أو الحدوث.

- فعلا لقد كان يتمتع بعقلية فذة. قال يقظان.

- لقد استفاد كثيرا جداً من تعليمات الأولياء وآيات القرآن والروايات الشريفة، وإنتاج الفلاسفة والعارفين من أقدم الدهور. كان يتأمل ويتساءل: «إن عدم استخدام كتاب **نهج البلاغة** لمصطلح «واجب الوجود»، واستخدامه المتكرر لمصطلح «الغني» ومصطلح «الذي لا تحيط به الحدود» ألا يدل على أن الأول لا يترجم كمال ذات الحق ـ تعالى ـ وغناه؟». وهكذا تدريجيا انبثقت في ذهنه الفكرة التي دلته على الوجود الإطلاقي ليكون ملاكا لغنى الباري ـ تعالى ـ، والفقر الوجودي ليغدو ملاكا يفسر سبب حاجة

الكائنات إلى الموجد الغني. بجانب ذلك، سلك الشيرازي مسلك العارفين المعتمد على تربية الروح لأجل نيل المعارف بواسطة العلم الحضوري. في العديد من المواقع، كان يؤكد على أن الحقائق قد انكشفت له شهوداً. ذكرنا كل ذلك سابقا فلا نطيل هذه المرة.

- إذن لدينا الرؤية الفلسفية التي ترى مراتب الوجود، والرؤية العرفانية التي ترى ظهور الوجود وتجليه، والحكمة المتعالية ترى أن مراتب الوجود وظهور الوجود أمر واحد. قالت إيمان.

- رائع. وهكذا انتهت المقدمات وسوف نباشر غداً موضوع إثبات وجود الله ـ تعالى ـ وتوحيده. علق السيد ماهر، في الوقت الذي وقفت سيارة يقظان في الموقف المخصص لزوار الجامعة.

- لقد تأسست هذه الجامعة عام ١٩٨٦م، درس فيها ٥١١ طالب وطالبة في عامها الأول. ولكن هذا العدد ارتفع الآن ليربو على أكثر من ألف ١٠٠٠ طالب وطالبة.

- ما هي التخصصات التي توفرها الجامعة؟

- التربية والعلوم الإسلامية، الهندسة، الطب، العلوم الزراعية، الآداب، التجارة والاقتصاد، علوم الحاسب الآلي، وغير ذلك.

جال السيد ماهر في الجامعة برفقة يقظان وإيمان، وألقى

نظرة على الكليات، كما شاهد المختبرات الملحقة بكلية الطب، ودهش لوجود أحدث الأجهزة العالمية فيها. وعندما حان وقت آذان الظهر، صلى الجميع في مسجد الجامعة، ثم توجهوا عائدين. وزع السيد ماهر ملخص الدرس كالعادة، وكان كالتالي:

√	مفهوم الوجود من أبده الأشياء وأوضحها، بحيث يمتنع تعريفها.
√	مفهوم الوجود مشترك معنوي.
√	مفهوم الوجود غير مفهوم الماهية.
√	الوجود حقيقة أصيلة
√	الوجود حقيقة واحدة ذات مراتب.
√	نظرية مراتب الوجود لا تتعارض مع نظرية وحدة الوجود، وفقاً لقاعدة الفقر الوجودي، وأن المعلول ظهور وتجلي للعلة.

الفصل السادس

إثباتُ وُجُودِ اللّهِ وتوحيده

ـ ١ ـ

القناديل التي تريد أن تدلنا على الشمس

بسبب تأخر الوقت، لم يتمكن يقظان من زيارة **مجمع السلطان قابوس الرياضي** و**مدينة الإعلام** كما كان مخططا. ولذلك، قاد سيارته مع بداية هذا اليوم جهة **مدينة الإعلام**.

ـ لقد أصبحت مجمعاً إعلاميا بارزاً. علق السيد ماهر.

ـ فعلاً. فقد تكاملت مرافقها الفنية والإدارية والترفيهية والرياضية. علقت إيمان.

ـ بدأ البث الإذاعي في عُمان العام ١٩٧٠م، بقوة ١ كيلو واط فقط. الآن هنالك ٢٥ استديو تعمل في خدمة البث الإذاعي ليصل إلى العالم كله. قال يقظان.

ـ إلى العالم كله؟ سأله السيد ماهر مندهشاً.

ـ نعم. يصل البث إلى معظم دول العالم من خلال قمر «عربسات». بينما تتولى شركة «جلوب كاسيت» إيصاله إلى استراليا ونيوزلندا.

ـ بدأ الإرسال التلفزيوني عام ١٩٧٤م، وها هي وكالة

الأنباء العمانية. إنها تابعة لوزارة الإعلام. قال يقظان.

- إنها تمدها بالأخبار في شتى الحقول. لديها شبكة ضخمة من المراسلين في مختلف أنحاء العالم. علقت إيمان.

- هذا هو النادي الصحافي. إنه ملتقى رجال الصحافة والإعلام. تقام فيه أنشطة إعلامية متنوعة. علقت إيمان. نزل الضيف مع مضيفيه ليطلعاه على النادي، فقضوا بعض الوقت فيه ثم تحركوا باتجاه **مجمع السلطان قابوس الرياضي**.

- تم افتتاحه عام ١٩٨٥م، يقع على مساحة ٨٠٠,٠٠٠ م٢. يقظان.

- إنه ضخم جداً. علق السيد ماهر.

- تقام فيه مختلف الأنشطة الرياضية والمسابقات الخليجية والعالمية. يضم العديد من المرافق الرياضية. هناك الاستاذ الرئيسي على مساحة هائلة وهو مغطى بالعشب الطبيعي. ويشمل مضماراً لسباقات ألعاب القوى على مساحة ٤٠٠ م٢ بسطح أولمبي كامل، قابل تحويله إلى ملعب لكرة الهوكي. دارت السيارة حول وحدة الإسعاف الأولي، ومركز الشرطة، واستراحة اللاعبين والحكام.

- يقظان: تتسع المدرجات لأكثر من ٣٠,٠٠٠ متفرج. وهناك ٢٨ بوابة، ومواقف للسيارات تتسع لأكثر من ٣,٥٠٠ سيارة. فيه أيضا مسبح أولمبي تم تجهيزه الكترونياً،

وحوضاً للغطس، وصالة للتمارين، وصالة للجمباز، وملاعب للاسكواش وكرة المضرب، ورفع الأثقال. توجد فيه قاعة مغلقة تستوعب ٢,٤٠٠ شخص، ومكتبة حديثة، وقاعة لتناول الطعام كذلك.

- إنه مجمع عملاق ومتكامل. قال السيد ماهر.
- لقد فاز بجائزة اليونسكو كأفضل صرح رياضي.

توجهت السيارة خارج المجمع، وهنا طلبت إيمان من السيد ماهر أن يباشر درسه. بدأ السيد ماهر بالحديث قائلا :

- عرض العلماء أدلة عديدة تثبت وجود الله ـ تعالى ـ . فهناك **برهان العلية، وبرهان الحركة، وبرهان الحدوث، وبرهان النظام، وبرهان الغاية، والبرهان الوجودي،** وبرهان فكرة الكامل، وبرهان الحقائق الأزلية، والبرهان الأخلاقي، وبرهان الفطرة والمعرفة الحضورية، وبرهان واجب الوجود، وبرهان الصديقين، وغير ذلك.
- يا إلهي، أكل هذا العدد من البراهين؟ سألته إيمان متعجبة.
- بلى.
- هل ستقدم لنا فكرة موجزة عن كل هذه البراهين؟ سأله يقظان.
- سنمر عليها بسرعة وسنذكرها بصورة خاطفة. أروع وأمتن البراهين على الإطلاق هو **برهان الصديقين**. أرى أنه يتوجب علينا إعطاءه أهمية فائقة.

- لنبدأ إذن. قال يقظان.

- يظن بعض المحققين أن تاريخ البرهنة على وجود الله تبدأ من عند أرسطو. ولكن نقل عن أفلاطون مجموعة من الأقوال تحتضن أدلة على وجود الله. ومن هنا، يمكن القول أن تاريخ البرهنة يبدأ من عند أفلاطون فعلا. عرض أفلاطون **برهان العلية**، ثم تناوله من بعده المحققون عبر التاريخ حتى عصرنا هذا. يمكن صياغة **برهان العلية** في ثلاث مقدمات ونتيجة كالتالي:

١ ـ كل حادث محتاج إلى علة توجده.

٢ ـ الكون حادث، له علة أوجدته.

٣ ـ سلسلة العلل لا يمكن أن تتصاعد إلى ما لانهاية.

٤ ـ النتيجة: للكون علة أوجدته.

الحظا، ان المقدمة الأولى للبرهان بدهية وواضحة جداً، وقد مرت علينا أثناء مناقشاتنا في مباحث المعرفة والعلية.

- صحيح، أذكرها جيداً. ردت إيمان.

- كذلك المقدمة الثالثة قد مر علينا ذكرها.

- نعم فعلاً وأذكر ذلك جيداً. كنا نعدو باتجاه الكوخ فراراً من المطر. قال يقظان ضاحكا.

- فعلا. يصنف البعض هذا البرهان ضمن البراهين العقلية، لأن مبدأ العلية مبدأ عقلي، وهو الأساس في البرهان.

ويميل البعض إلى تصنفيه ضمن البراهين الطبيعية على أساس أن النقطة الجوهرية فيه هي الحدوث، وهو يثبت عبر التجربة .

- توضح لدي جيداً أن الاعتراض على البرهان على أساس أن العلة الأولى يجب أن يكون لها موجد أيضاً باطل تماما. قال يقظان.

- نعم. صفحة **الوجود** لا تنبثق من العدم .**الوجود** لا بداية له ولا نهاية. علقت إيمان.

- أحسنتما. الواقع أن هذا الاعتراض ناشئ من القاعدة الفاسدة **إن لكل شيء علة**، لكننا صححناها وبينا أنه **ليس لكل شيء علة**. لكن الشيء الحادث هو المحتاج إلى موجد. مع الأسف فإن الفيلسوف الألماني الشهير عمانوئيل كانط قد اعترض على البرهان ولم يقبله بحجتين واهيتين جداً.

- ما هما؟ سألته إيمان.

- الأولى، نحن نقيس الغائب بالشاهد. يعني أننا لم نر كيف تكون العالم، ولأننا رأينا أن الأشياء المحسوسة تحتاج إلى أسباب، ظننا أن للعالم أيضاً سببا. والثانية، أن أدلة **استحالة تسلسل العلل إلى ما لانهاية** غير مقنعة بحسب رأيه.

- كيف نرد على الشبهة الأولى؟ سألته إيمان.

- أنت التي من يجب أن يرد عليها يا إيمان، فلقد مر عليك ذلك. هل نسيتِ أننا لم نثبت العلية على أساس التجارب المحدودة التي ربما تنطبق على جانب من العالم ودون جانب آخر منه؟ لقد تم اكتشاف العلية من خلال علمنا بأنفسنا الحضوري، وتبين للعقل هناك أن الحادث، مهما كان شأنه، سيكون محتاجاً إلى علة أوجدته. الأحكام العقلية تنطبق على موضوعاتها على أساس أن **حكم الأمثال فيما يجوز ولا يجوز واحد**. لسنا بحاجة إلى أن نشاهد شيئا حتى نتيقن.

- نعم أذكر الموضوع جيداً. قالت إيمان بتأسف.

- ولكن.. حتى لو استندنا على التجربة، ما الضير في اعتماد النتيجة يا سيد ماهر؟ ألم نقل بأن التجربة تستند لتعميم نتائجها على الدليل العقلي وهو حكم الأمثال واحد؟ سأله يقظان مستغرباً.

- أحسنت. بارك الله فيك. هكذا هو الأمر فعلاً.

- يعني أن كانط أخطأ من جانبين. الأول رفضه الاستناد على المعطيات التجريبية والثاني تصوره أن البرهان العقلي لا يمكن تعميمه. يقظان.

- رائع جداً يا يقظان.

- وماذا عن الشبهة الثانية يا سيد ماهر. إيمان.

- لقد رددتها أنت يا إيمان عندما ذكرت أن صفحة الوجود

لا تنبثق من العدم. فضلا عن أن تسلسل العلل إلى ما لانهاية يمنع تحقق العالم، والعالم متحقق .

- نعم. واضح جداً. قالت إيمان.

- لنبدأ بمعرفة **برهان الحركة**. قال السيد ماهر واسترسل: كان الدكتور عبد الرحمن بدوي يصر على اعتبار **برهان الحركة** أول برهان في تاريخ الفكر الفلسفي وأن واضعه هو أرسطو الفيلسوف اليوناني الشهير.

- من هو عبد الرحمن بدوي؟ سألته إيمان.

- فيلسوف معاصر، مصري، صاحب مؤلفات وتحقيقات عديدة في الفلسفة، وصاحب أطروحة خاصة به تعرف بالزمان الوجودي. لنتعرف الآن على مقدمات **برهان الحركة**.

- ولكن ماذا عن المقدمة الثانية للبرهان المار يا سيد ماهر؟ يقظان.

- لماذا تريد من السيد ماهر أن يتكلم حوله يا يقظان؟ نحن جميعا نعلم أن الكون حادث. إيمان.

- لا مانع من التحدث حول ذلك أيضاً يا إيمان. استمعا إلي جيداً: رغم أننا لا نحتاج إلى تعمق لأجل معرفة حدوث العالم، ذلك لأننا نرى بأم أعيننا أن الأشياء في هذا العالم تحدث بنحو متصل بلا انقطاع، لكن، لنتعرف إلى **نظرية الانفجار الكبير** التي توصل إليها العلماء. إنها تبرهن

على أن الكون على عظمته قد بدأ من نقطة صفر انطلق منها ولا يزال يتوسع. الكون حدوث مستمر لا قرار له أبداً. أول من تعرض لمسألة نشأة الكون من وجهة علمية هو العالم الشهير «أينشتاين» وكذلك العالم الروسي «فريدمن»، وذلك في بداية القرن العشرين. وفي العام١٩٢٧م أطلق العالم الفلكي البلجيكي «جورج لوميتر» نظريته التي كانت تقول **إن الكون في أول أشكاله كان كتلة غازية عظيمة الكثافة واللمعان والحرارة، وبسبب تأثير الضغط الهائل وقع فيه انفجار فتت الكتلة وألقى بأجزائها في كل اتجاه فتكونت الكواكب والنجوم**. هذه النظرية وقع فيها تعديل سأشير إليه لاحقاً، ثم تمكن العلماء من البرهنة على صحتها فيزيائيا.

- كيف؟ يقظان.

- لقد اكتشف العالمان «بانزياس» و«ويلسون» موجات شعاع منتشر في جميع أرجاء الكون، له نفس الميزات الفيزيائية أينما وجد. لم يكن ممكنا تفسير هذه الظاهرة إلا بأن هذا النور هو بقايا الانفجار الذي وقع لكتلة الكون. سمي هذا النور بالنور الأحفوري أو النور المتحجر. ثم توصل العلماء إلى حقيقة مذهلة وهي أن الكون في توسع مطرد. ففي العام١٩١٢م، أثبت العالم «سليفر» تباعد المجرات عن مجرتنا. ثم في عام ١٩١٦م أثبت أنشتاين توسع الكون عبر النظرية النسبية. وأخيراً تحولت النظرية إلى حقيقة

علمية على يد كل من «همسن» و«هابل». هل تعلمان لماذا الليل أسود؟ أعني سر السواد والحلكة والظلام في العالم؟.

- أليس ذلك يحدث بسبب غياب قرص الشمس؟ إيمان.

- الكون يا إيمان مملوء بالمليارات من النجوم والمجرات والشموس التي تلمع لمعانا يفوق الوصف. لدرجة أنه يمكننا، على الرغم من بعدها الهائل منا، مشاهدة تلألئها. ومع وجود هذه الكثرة من النجوم، فالليل والحلكة تخيم على أرجاء الكون بصورة مذهلة. وما ذاك أيها العزيزان إلا لتوسع الكون المطرد والهائل، الذي يشتت الضوء ويؤدي إلى انبثاق هذه الظلمة.

- مذهل وعجيب. تعني لولا توسع الكون لزال الليل؟ يقظان.

- كلياً يا يقظان. ولكنت قد أصبحت يقظان ٢٤ ساعة متصلة. ضحك السيد ماهر وهو يقول ذلك.

- يا لها من حقيقة علمية عجيبة فعلاً. إيمان.

- الخلاصة هي أن الكون يحدث بصورة مستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ستتعرفان إلى هذا الموضوع أكثر خلال الدروس القادمة. سأنتقل الآن إلى برهان **الحركة**.

- حسنا. يقظان.

- برهان الحركة يتألف من مقدمتين ونتيجة كالتالي:

١ ـ الكون متحرك.

٢ ـ المتحرك لا يكون علة لحركته.

٣ ـ للمتحرك محرك غير متحرك دفعاً للتسلسل.

- غريب أمر هذا البرهان. قال يقظان.

- ما وجه الغرابة فيه؟

- كيف لا يكون المتحرك علة لحركته؟ سأله يقظان.

- لعلك لم تستوضح معنى الحركة. الحركة تعني خروج المتحرك من القوة إلى الفعل بالتدرج.

- لم أفهم شيئا. قالت إيمان.

- القوة تعني الإمكانيات الموجودة في المتحرك وتصبح بالحركة فعلاً وتتحقق. البذرة تحمل في أعماقها إمكانية التحول إلى شجرة. هذه الإمكانية تسمى القوة. وعندما تخرج الإمكانية من القوة، تصبح متحققة، أي تصبح الإمكانية فعلية وتحققاً. ومن الواضح أن الشيء لا يمكن أن يضفي على نفسه أمراً وجودياً كان يفقده ففاقد الشيء لا يعطيه.

- ولكنه كان موجوداً فيه بنحو الإمكانية والقوة. قالت إيمان.

- الإمكانية تعني الاستعداد. وهذا الاستعداد يتطلب تحقق مجموعة من العوامل تؤدي إلى خروجه من حالة الاستعداد إلى حالة التحقق. بالحركة يكتسب الشيء وجوداً جديداً لم

يكن لديه سابقاً إلا بشكل الاستعداد فقط. ليس معنى الإمكان أن الحالة الوجودية التي سنكتسبها بالحركة موجودة في غطاء. كلا. بالحركة نكتسب وجوداً لم نكن نمتلكه، كنا فقط نمتلك الاستعداد لنيله. أنت الآن يا إيمان تملكين إستعداداً للتعلم. وهذا الاستعداد يمنحك القدرة على تلقي العلوم. لكن ليس بوسعك إضفاء علوم على ذهنك لا تعلمينها.

- واضح جداً. قالت إيمان.

- بالطبع هذا البرهان قد وقع له تطور كبير في الحكمة المتعالية. كان أرسطو، مبتكر برهان الحركة، يظن أن الحركة ليست خروج الشيء من القوة إلى الفعل بالتدرج، وإنما بالدفعات.

- بالدفعات؟ ما معنى هذا؟ إيمان.

- الدفعة تعني الحركة التي تتخللها السكنات. بين كل دفعة وأخرى يوجد سكون. الحركة الدفعية تتطلب سكوناً بقدر الحركة. تخيلا المتحرك بالحركة الدفعية كيف تكون حركته؟ يمشي خطوة، ثم يقف، فيمشي ويتحرك مجددا ثم يقف، فيعود يتحرك، ثم يقف، وهكذا. هذه هي الحركة الدفعية. وهي لا تساعد على إثبات الحركة للكون لأنها تثبت بمقدار الحركة قدراً من السكون للكون.

- فعلاً. رد يقظان.

- لقد غيَّر صدر **المتألهين** مفهوم الحركة من الخروج الدفعي إلى الخروج التدريجي. لا مجال للسكون في حالة خروج الشيء بالتدرج. وبالتالي تصبح المقدمة الأولى صحيحة وهي أن الكون متحرك فعلاً. وعلى كل حال فعلماء الفيزياء الكونية أيضاً توصلوا إلى أن الكون عبارة عن طاقة هائلة لا قرار لها ولا سكون .

- عرفنا ذلك من خلال قانون الانفجار الكبير وقانون توسع الكون أيضاً. إيمان.

- إن العلماء من خلال تحقيقاتهم في علم الذرة قد توصلوا إلى هذه النتيجة أكثر فأكثر.

- علم الذرة؟ يقظان.

- نعم. إن المادة السحيقة المكنونة في عمق الذرة ليست إلا دفقاً من الطاقة. جزئيات الذرة في تبادل مذهل يفوق التصور.هنالك في العمق عرض ديناميكي تخلق فيه الجزئيات وتتهدم دون نهاية في تنوع متواصل لأنماط الطاقة. البنى التحتية للعالم المادي تهتز أبداً في حركة إيقاعية. الكون أيها العزيزان منهمك في حركة. البعض يسميها بالرقص الكوني للطاقة، أما أنا شخصيا فأحب أن أطلق عليه: التسبيح المتواصل الذي تؤديه ذرات العالم لخالق العالم.

- معنى ذلك اننا الان بتمام أجزائنا في حالة حركة مستمرة. يقظان.

- بلى يا يقظان. الأمر هكذا فعلاً. دعاني أتكلم عن الذرة قليلاً.

- تفضل بكل سرور يا سيدي. إيمان.

- في عام ١٨٠٨م وضع العالم «دالتون» علم الذرة في شكل نظرية. نظريته تقول بأن عناصر العالم تتألف من جزئيات أولية أطلق عليها اسم «أتوم» ويعني الجزء الذي لا يتجزأ، إكراماً لديمقراطيس، وهو فيلسوف يوناني قديم، ابتكر نظرية الذرة أو الجزء الذي لا يتجرأ. ولكن في سنة١٨٩١م اكتشف «ستوني» و«تومسون» الألكترون، أحد جزئيات الذرة والوحدة الأساسية للطاقة الكهربائية. وفي سنة ١٩١١م اكتشف «ردذرفورد» نواة الذرة، والبروتون الذي يدخل في تركيبها. ثم توالت الاكتشافات، وتم أيضا معرفة الوزن الذري للذرات.

- إذن فكرة الجزء الذي لا يتجزأ قد زالت، أليس كذلك؟ إيمان.

- نعم. تأملا معي في ذهنيكما مكعبا من النحاس. ما الذي تجدانه؟

- مادة كثيفة جامدة. يقظان.

- لكن الواقع غير هذا. ثمة اهتزاز مستمر لجزئيات النحاس. هذا الاهتزاز تصل سرعته إلى ٨,٠٠٠ ذبذبة في الثانية.

- ماذا؟ ما هذا؟ يقظان.

- تفصل بين الجزئيات فراغات تتداخل فيها الجزئيات، عندما نتحقق منها نرى أن هذه المجالات الفارغة تتناسب مع الفراغات أو المجالات التي تفصل بين الأجرام السماوية. يعني يمكن مقارنة نظام الذرة بنظام المجموعات الشمسية. المهم أن سرعة دوران الالكترونات حول النواة يتراوح ما بين مائتي ألف وستمائة ملايين دورة في الثانية.

- يا إلهي.. هل هذا معقول؟ كل هذه السرعة في عمق مكعب نحاسي؟ يقظان.

- هذا لا شيء.

- ماذا؟ إيمان.

- عندما نتوغل في مركز النواة، الحركة هناك تصل إلى مليار مليار مرة. إذن لا مناص من التخلي عن فكرة الجمود في عالم الطبيعة. نحن أيها العزيزان في كل لحظة نتحرك حركات لا يستطيع عقلنا تصورها. نحن كيان متجدد على الدوام. هل بقي شيء في ذهنيكما يصر على إضفاء صورة الجمود على العالم المادي؟

- كلا على الإطلاق. بل ذهني نفسه أضحى يهتز. يقظان ضاحكا.

- نأتي على ذكر برهان الحدوث. وهو في الحقيقة شبيه ببرهان العلية. هناك كنا نلحظ حاجة الحادث إلى علة توجده، وهنا نلحظ الحدوث واحتياجه إلى محدث. إليكما تقرير هذا البرهان كما صاغه محمد حسين الطباطبائي:

١ ـ العالم ما هو إلا مجموعة من الوقائع المادية، تكمن حقيقته في أجزائه الطبيعية.

٢ ـ العالم يعيش حركة لا قرار لها. والحركة تعني حدوثا تدريجيا مسبوقا بعدم زماني.

٣ ـ العالم إذن برمته وبجميع أجزائه حادث حدوثاً زمانياً.

٤ ـ كل حادث محتاج إلى محدث.

٥ ـ للعالم محدث أحدثه دفعاً للتسلسل.

- إنه برهان صعب. قال يقظان.

- أين مكمن الصعوبة فيه يا يقظان؟

- ما معنى مسبوق بعدم زماني؟ سأله يقظان.

- عندما يتحرك الشيء، يتواجد تدريجيا. كل جزء تواجد، كان قبل تواجده معدوماً. وربط هذا المعدوم بالزمان يعني أن في زمن معين، لم يكن جزء معين قد تحقق بعد.

- هل هنالك شرح سهل له سيد ماهر؟ سألته إيمان.

- بلى. دعاني أوضح أن التقرير المار غرضه إثبات الحدوث الزماني للعالم برمته. كان بعض الفلاسفة يرون أن إثبات حدوث العالم زمانياً غير ممكن. وكان هؤلاء يقولون بأن العالم حادث حدوثاً ذاتياً. الحدوث الذاتي يعني: بما أن العالم معلول، ومسبوق بالعلة سبقاً ذاتياً، فهو حادث حدوثاً ذاتياً.

- لم أفهم. إيمان.

- أنظرا إلى يدي. أخرج السيد ماهر مفتاحاً من جيبه وبدأ يحركه، وقال: الحظا أن المفتاح تحرك بسبب حركة اليد. إن حركتها معلولة لحركة اليد. ولكن كلتا الحركتين وقعتا في وقت وزمن واحد. إذن حركة اليد لم تسبق حركة المفتاح سبقا زمانياً. ولكن لأنها علة له، وصفها هؤلاء الفلاسفة بالسبق الذاتي. يعني ذات العلة أسبق من ذات المعلول بالذات لا بالزمان وهم يريدون بالذات هذا، التقدم الذي رأيتماه في حركة اليد الذي مع كونه قد تحرك في وقت حركة المفتاح لكنه هو الأسبق. هذا هو السبق الذاتي وليس الزماني.

- مذهل حقاً. علق يقظان.

- ابن سينا هو الذي ابتكر الحدوث الذاتي للعالم. كان يعتقد بأن العالم لم يحدث زماناً، وإنما حدوثه ذاتي. على العموم، لا مناقشة في صحة السبق الذاتي والحدوث الذاتي. ولكن المناقشة في الحدوث الزماني. إن صدر المتألهين يرفض أن لا يكون العالم حادثاً بالحدوث الزماني. وقد برهن على ذلك بأدلة جيدة، وذاك الذي ذكرناه على لسان الطباطبائي، هو إحدى تلك الصيغ.

- هل يمكن إعادة سريعة لبرهانه مجدداً يا سيد ماهر؟ سألته إيمان.

- نعم. يقول صدر المتألهين، أن العالم حقيقته تكمن في

أجزائه المادية المرتبطة بعضها ببعض. هذا العالم خاضع للحركة من أوله إلى آخره. الحركة تسبب حدوثه التدريجي، وبالتالي الزماني، لأن كل جزء، قبل أن يحدث، يكون قد سبقه زمن لم يكن فيه. وبما أن العالم كله خاضع للحركة التدريجية، فالعالم حادث كله حدوثاً زمانياً.

- واضح الآن. قال يقظان.

- نعم. علقت إيمان.

- أنتقل إلى برهان النظام. سأصيغه لكما في أربعة مقدمات ونتيجة:

١ ـ العالم تحكمه أنظمة غاية في التعقيد لولاها لاستحالت الحياة فيه.

٢ ـ هذه الأنظمة تستبطن غرضاً.

٣ ـ النظام الهادف من المستحيل أن توجده صدفة عمياء، بل لا بد من فكر واع وقدرة مبدعة وتصميم خلاق حتى يتحقق ما تحقق.

٤ ـ ذلك الفكر الموجد لا تختزنه ولا تختزله المادة.

٥ ـ تحتم وجود الموجد للكون ونظامه دفعاً للتسلسل.

- سيد ماهر يحتاج البرهان إلى قليل من الشرح. كيف نقول أنه لولا الأنظمة لاستحالت الحياة؟ سألته إيمان.

- تدور الأرض حول محورها ١٦٠٠ كيلومترا في الساعة، فلو انخفضت هذه السرعة قليلا، لكان النهار يدوم أياماً عدة، ولأحرقت الشمس حياة النبات، وبفقدان النبات، ضاعت فرصتنا للحصول على الأوكسيجين الذي نتنفسه. فهل ضبط سرعة الأرض على هذا الرقم لا يعد نظاماً؟ ثم، إن موقع الأرض من الشمس يأتي بدقة مذهلة بحيث إن الأرض لو تحركت مبتعدة أو مقتربة برقم واحد فقط، لاحترقت أو لتجمدت. هل هذا تنظيم أم لا؟ قشرة الأرض التي نمشي عليها، لو زادت سمكها ثلاثة أمتار أخرى، لتلاشى مولد الحموضة اللازم لكل حياة حيوانية. فهل هذا نظام أم لا؟ والأمثلة العلمية التي عرفها الإنسان من خلال الاكتشافات لا تعد يا إيمان ولا تحصى.

- وما معنى استبطان النظام للغرض يا سيد ماهر؟ سأله يقظان.

- التنظيم، هو ترتيب علاقة بين عدة أشياء ببعضها بحيث تؤدي نتيجة، أو تساعد على أداء عمل. المحققون يؤكدون أن هذا التنظيم العجيب للكون، إنما جاء تمهيداً للإنسان، لكي يوجد، ويحقق أغراض وجوده. تحقيقات عدة علماء أوصلتهم إلى هذه النتيجة ومنهم استيفن هوكنج، الفيزيائي الشهير. ألا ترى يا يقظان أننا نرتب المنزل كل صباح؟ فلماذا نفعل ذلك؟ لكي نستطيع أن نحقق أغراضنا المنزلية فيه، من عيش وجلوس واستراحة ومذاكرة وتأمل، بسهولة ويسر.

- واضح يا سيد ماهر. قال يقظان.

- هل من المحتوم أن توجد الأنظمة من قبل وعي؟ سألته إيمان.

- حتماً يا إيمان. إن الكون بدأ بالانفجار الكبير كما عرفتماه وتنص عليه أشهر النظريات الفيزيائية. فقبل ١٥ مليار سنة تقريبا، كان الكون كله مختزلا في أقل من الجزء من مليارات الأجزاء من الثانية، وفي حقل ذات كثافة حرجة جداً لا يمكن للعقل أن يتصورها. فلو أن هذه الكثافة انخفضت قليلا أو زادت، لما كان هناك انفجار على الإطلاق. هل يمكن بالصدفة أن يحدث ذلك كله؟

- ما معنى الصدفة؟ سألته إيمان.

- الصدفة سبب لا يتمتع بالوعي. يعني أن أحداثاً تقع بنحو غير مقصود وتجر أحداثاً غير معنية. لو أنك وضعت في جيبك عشرة نقود مرقمة من الواحد إلى العشرة، وحاولت استخراجها بالترتيب، فإن احتمال نجاحك في استخراج القطعة رقم ١ في المرة الأولى، هو رياضيا بنسبة واحد إلى عشرة. ونسبة ١ إلى مائة لاستخراج قطعة رقم ٢ بعد الأولى، ونسبة ١ إلى ألف لاستخراج القطعة رقم ٣، أما احتمال استخراج القطع العشر بالترتيب فنسبة نجاحه هي ١ إلى عشرة مليارات مرة. إن الصدفة لكي توجد شرطا واحد من شروط تحقق الحياة، تحتاج إلى احتمال نجاح ١ إلى مليارات ومليارات من الاحتمالات.

- سيد ماهر، بالمقدمة الرابعة سعيت لأن تمنع المادة أن تكون بنفسها موجدة لنظامها. أليس كذلك؟ سأله يقظان.

- بلى. إن أرقى شكل المادة يتمثل في الدماغ البشري. هذا الدماغ لا يزال يجهل العديد من أسرار نفسه، فكيف بالكون؟

- ولكن.. لعل هناك في مكان ما في هذا الكون الفسيح دماغا هائلا جداً يا سيدي. إيمان.

- اتفق أن ما ذكرتُه ليس بالدرجة الكافية من القدرة على الاقناع. إن أفضل ما يدلنا على أن المادة ناقصة ولا تستطيع إضفاء كمالها على ذاتها من نفس ذاتها هو حركتها وسيلانها المتواصل كما عرفتما. إن المادة متحركة كما هو ثابت، والمتحرك ينال وجودا في كل حركة، فهو كائن ناقص ويتواجد تدريجياً، فكيف يهب ما يفتقر إليه؟ إن فاقد الشيء لا يعطيه.

- فعلا. إيمان.

- وإذاً، فالمادة حادثة، وكل حادث لا بد له من محدث. ولا يمكن لسلسلة العلل الموجدة للمادة أن تتصاعد إلى ما لا نهاية كما عرفتما.

- مرة بعد مرة نستعين بقاعدة استحالة تسلسل العلل إلى ما لا نهاية لإثبات وجود العلة الأولى. قالت إيمان.

- سوف نتخلى عنها عن قريب. لننتقل إلى برهان الغاية. هذا

البرهان شبيه ببرهان النظام وتوأم له. ويتألف من هذه المقدمات:

١ ـ إن هذا النظام الثابت في الكون يدل على أن لوجوده غاية.

٢ ـ إن الغاية تدل على وجود مصمم للكون، صممه لبلوغه غايته.

٣ ـ سلسلة المصممين ليس لها أن تتسلسل إلى ما لا نهاية.

٤ ـ النتيجة هي أن للكون مصمما نهائيا وموجدا.

- لقد شرحت لنا لماذا يجب أن نستنتج أن النظام يدل على الغاية. ليست لدي أسئلة. قال يقظان.

- البراهين الأربعة التي سأشير إليها بعد قليل، تنطلق من أساس واحد، وهو أن ثمة فكرة لدينا في أذهاننا عن أمر عظيم، ووجود هذه الفكرة دال على وجود موضوعها.

- كيف؟ سألته إيمان.

- البرهان الوجودي من ابتكار القديس أنسلم، ومقدمته الأساسية هي أن لدى البشر فكرة عن وجود كائن لا أعظم منه. فلو لم يكن هذا الكائن موجوداً، لكان ما هو في الخارج أكمل منه. وعليه لاحتوى الذهن على فكرتين متناقضتين، أولها تؤكد على وجود الكائن الكامل،

والأخرى تثبت عدم وجوده. وهذا التناقض لا يمكن تحققه. فالنتيجة هي أن الكائن الذي لا أعظم منه موجود. وهو الخالق.

- برهان غامض. قال يقظان.

- لقد نقده القديس توما الأكويني وكانط، بينما أخذ عنه ديكارت، وابتكر برهان فكرة الكامل.

- ما هو هذا البرهان؟ سألته إيمان.

- ينطلق البرهان من ذات الركيزة. وهي أن لدينا تصوراً عن اللامتناهي والكامل. ومن غير المعقول أن يبتكر الذهن هذه الفكرة، لأنه محدود وناقص فأنى له ابتكار ما هو أعظم منه؟ والنتيجة هي أن فكرة الكامل من المعطيات الإلهية في الذهن البشري. هذه الفكرة توقيع الخالق في تكوين الإنسان.

- ما أجمل هذا التشبيه. قالت إيمان.

- إنه تشبيه رائع وجميل. ولكن برهانه، مع الأسف، ضعيف ولا يستطيع إثبات المطلوب. إن اختراع فكرة عن وجود الكائن الكامل لا يتطلب ذهناً غير محدود. الفكرة تظل محدودة، تخيلنا لوجود كائن مطلق لا يعني أن هذا التخيل تخيل كامل ومطلق وأرفع عن حدود وإمكانيات الذهن.

- فعلاً. قال يقظان.

- برهان الحقائق الأزلية هو نفسه برهان ديكارت، ولكن

عوضاً عن الإله، تم استبدال الحقائق الأزلية به. هذا هو كل ما في الأمر. وجد هذا البرهان في مؤلفات الكاتب الفرنسي الشهير بوسويه.

- البراهين الثلاثة كلها من ابتكار الفكر الفلسفي الغربي؟ سأل يقظان.

- نعم. والبرهان الأخلاقي أيضا. لقد صممه الفيلسوف الشهير كانط.

- هل هو أيضاً على غرار تلك؟ سألته إيمان.

- بلى. هكذا هي مقدماته:

١ ـ يرى الإنسان من ذات نفسه، أن المجازاة على الخير، والعقاب على الشر، أمران وجدانيان وضروريان.

٢ ـ ولكن الحياة التي نحياها نحن اليوم، لا تسمح بتحقيق ذلك كما ينبغي، فالأشرار يعيثون في الأرض فساداً، والأخيار مضطهدون غالباً.

٣ ـ من الضروري وجود موجود عادل، فوق الطبيعة، يحقق القانون الأخلاقي الفطري الذي يؤمن به الإنسان وجداناً، حتى لا يغدو القانون الأخلاقي الوجداني باطلا.

٤ ـ إذن الله موجود. وهو الذي بعهدته تحقيق ذلك بإيجاد حياة أروع وأفضل وأكمل من هذه.

- صدقت يا سيد ماهر. إنها الانطلاقة ذاتها. قال يقظان.

- البراهين الثلاثة الفائتة كانت تنطلق من فكرة وتصور، بينما ينطلق هذا البرهان من حالة معنوية. علقت إيمان.

- بالضبط. ولذلك سمي ببرهان القانون الأخلاقي.

- ٢ -

إلى أين تتجه بنا الميول؟

باتجاه محضر المطلق؟

- هٰهنا، برهان ربما يشبه في انطلاقته البراهين المارة، ولكن الأمر ليس هكذا. إنه برهان الفطرة. ويطلق عليه أيضاً، برهان المعرفة الحضورية.

- ما موجزه يا سيد ماهر؟ سألته إيمان.

- موجزه يا إيمان، أن الإنسان لديه معرفة حضورية بخالقه وموجده. وهو يتوجه بميوله الحقيقة تجاه هذا الخالق الكامل اللامتناهي. فهو يطلبه ويريد الوصول إلى معرفته والمكوث بقربه دائماً.

- جميل. قال يقظان.

- أهو أيضاً من مبتدعات الفكر الفلسفي الغربي؟ سألته إيمان.

- كلا. إنه من تصميم الفلاسفة المسلمين. وله جذور في القرآن الكريم أيضاً .

ـ كيف؟ سأله يقظان متعجباً.

ـ يتألف البرهان من المقدمات التالية:

١ ـ للإنسان توجه غريزي، وميل فطري تكويني نحو الكمال. الإنسان عاشق للكمال وباحث عنه. سائر الحركات التي تصدر من الإنسان، لا تطلب إلا الكمال. يعمل الإنسان لكي يتكامل مادياً، يتعلم لكي يتكامل معنوياً، يرتاح وينام، يقوم ويجلس، لا يطلب في كل هذه الحركات إلا الأفضل والأكمل، الذي لا أفضل ولا أكمل منه. وحتى أولئك الذين ينتحرون، فهم بهذا العمل لا يريدون إلا الخلاص من الآلام والتملص إلى جهة الراحة.

٢ ـ لا يمكن أن يتحقق الميل تجاه شيء، إلا بعد الإطلاع على ذلك الشيء ومعرفته. المعرفة أسبق من الميل وجوداً وهي التي توجد الميل. وهكذا، فالميول متأخرة درجة واحدة عن «من الميل إليه» تكويناً. أعني أن «من الميل إليه» يتحقق أولاً، وبعده تتحقق المعرفة، ويحدث الميل.

٣ ـ وبما أن الإنسان باحث وعاشق وطالب للكمال اللانهائي والأبدي، ولديه ميل تجاه هذا الكمال، وهذا الميل هو المحرك له لطلبه، تحتم القول بأن لدى الإنسان إطلاعا ومعرفة بموضوع الميل، وهو اللامتناهي من الكمال. إذن، الموجود الكامل بنحو مطلق موجود، بل ومعروف، ومطلوب. ما رأيكما؟

كان الذهول بادياً على قسمات وجه كل من إيمان ويقظان.

- ما الدليل على أن الإنسان طالب للكمال اللامتناهي؟ سأله يقظان.

- تأملا مسيرة الإنسان في الحياة، وانظرا ماذا يطلب وما الذي يبحث عنه. كلما يحصل على كمال يمله ويطلب كمالا أعلى منه. هذه سيرتنا يا يقظان. يمكنك ملاحظة هذا الأمر في وجدانك. لو أن أحدهم عرض عليك لذة محدودة، وأخرى مطلقة وغير نهائية، فهل ستقبل المحدود وتهمل اللانهائي؟ إن فعلت ذلك فستعمله جهلاً حتماً، وإلا، فطلب الأمر المحدود نهايته مؤكدة، ومصيره إلى الزوال، وأساساً لا يكون الطلب لنيل الزائل أبداً. الإنسان بطبعه لا يريد الزائل والمحدود إطلاقاً.

- ما هو الفرق الدقيق بين هذا البرهان وبين ما أسلفت من البراهين الغربية؟ سألته إيمان.

- تلك البراهين، الثلاثة الأولى منها شخصت وجود فكرة في الذهن عن الكامل، بينما الرابع منهم شخص القانون الأخلاقي، أما برهان الفطرة، فقد شخص أمراً واقعياً نلمسه وجداناً جميعنا، وهو الميل إلى الكمال المطلق. الميل، يعني الانجذاب. والانجذاب حركة وفعل. إنه أمر ملموس.

- ولماذا أسميناه ببرهان الفطرة وبرهان العلم الحضوري؟ سأله يقظان.

- سمي ببرهان الفطرة لأن فطرة الإنسان تطلب الكمال. الفطرة تعني كيفية الخلقة. كما أن جهاز الخلقة أوجد في الإنسان أجهزة بدنية، أوجد فيه فطرياً، أعني تكوينياً إدراكا عن الله ـ تعالى ـ .

- لكن، هذا يخالف ما برهنا سابقاً من أن الإنسان لا يملك معارف ذاتية في ذهنه؟ سألته إيمان.

- لم نقل إن هذا الادراك إدراك حصولي. الإدراك الحصولي هو الذي لا يمكن أن يكون موجوداً لدى الإنسان لحظة ولادته لأن ذهنه لم يبنى بعد. أما الإدراك الحضوري فمما لا مفر عن القول بوجوده، ولكن لا بنحو ذاتي، وإنما بالاطلاع على الواقع. إليكما تقريراً آخر لهذا البرهان يشرح هذا الجانب منه، ربما يوضح الفكرة التي نتحدث عنها:

١ ـ الكون مرتبط في وجوده بموجده وخالقه. ليس له إنفكاك عنه أبدا. تذكرا أصول العلية وما انتهت إليه نتائجنا هناك. لقد تبين لنا أن الكون محض فقر وارتباط تام بالعلة.

٢ ـ فلو زودنا الكون بالإدراك، أو زودنا بعض موجوداته كالإنسان، بالقدرة على المعرفة والوعي، لأدرك تماماً أن حقيقته محض فقر إلى باريه وموجده.

٣ ـ ففي مورد إدراك الإنسان لذاته، ماذا سيجد؟ سيجد ذاته محض تعلق، وصرف فقر. إن أدرك الإنسان حقيقته فلن

يدركها إلا كما هي في الحقيقة. وهي ليست إلا هكذا، وهذه هي الحقيقة. استطرد السيد ماهر قائلا:

لعلكما عرفتما الآن لماذا سمي البرهان باسم برهان العلم الحضوري. ليس لأن ذهن الإنسان كان يحمل منذ ولادته فكرة عن الخالق، وإنما وعي الإنسان لحظة تكونه، بذاته، يساوي وعيه بموجده، لأن وعيه بذاته يساوي وعيه بفقرها وتعلقها بموجدها.

- سيد ماهر، سابقاً كنا نقول ان الإنسان استخلص قاعدة أن الوجود لا يجتمع مع العدم، عند إدراكه لذاته، والآن تبين أنه أدركها في الحقيقة عندما تحقق عنده الوعي بباريه وموجده. علقت إيمان.

- أحسنت. هكذا هو الأمر.

- إنه بيان مذهل حقاً يا سيد ماهر. غاية الأمر، إن في هذا التقرير، أخذنا مسألة وجود الله تعالى كقضية ثابتة، بينما كان المفروض على البرهان أن يثبتها، لا أن ينطلق من خلالها كمسلمة. علق يقظان.

- أحسنت يا يقظان. التقرير الأول عن الميول، هو الذي ينهض بهذه المسؤولية. أما هذا التقرير فقد عرضته لتوضيح برهان الميل نحو اللامتناهي.

- ولكن، لماذا لا نحس بهذه المعرفة؟ إذا كانت حضورية، فيجب أن تكون شديدة جداً، ولكننا لا نحس بها. فضلا

عن وجود العديد من الملحدين ممن ينكر وجوده تعالى. فكيف يتفق هذا مع القول بوجود معرفة عنه لدى البشر؟ سألته إيمان.

- سؤال وجيه جداً آنسة إيمان. إن عدم انتباهنا لوجود هذه المعرفة في أعماقنا، ليس معناه عدم وجودها من الأساس. كلا. إن المعارف الحضورية تقبل الانكماش والاشتداد. عندما يصاب المرء بجروح في بدنه، علمه بجروحه هذه يكون حضورياً كما تعلمان، وكذلك لو أصيب بألم معنوي كأن مات له حبيب أو قريب، فعلمه بألمه يكون حضورياً كذلك. ولكن هذا العلم الحضوري بالألم يقبل الانكماش. عندما يزور الأقارب والأصدقاء هذا المصاب، ينشغل بكلامهم، فيقل التفاته لألمه، ويرجع هذا الالتفات مجدداً عندما يصبح وحده. هكذا هي معرفتنا بالله تعالى. فنحن، لكثرة الانشغال بالدنيا، لا نتلفت إلى معرفته تعالى المبثوثة في أعماقنا. ولكن عند الشدائد والمحن والمصائب، نتوجه إليه. يقال ان رجلاً سأل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن الله تعالى، فقال له الإمام عليه السلام : «هل سبق أن ركبت البحر، وتعرضت سفينتك للغرق بفعل الرياح العاتية؟» فقال: «نعم». سأله الإمام مجدداً: «وهل تعلق قلبك، هناك في ذلك الوقت المهيب، بمنقذ؟ بأمل للنجاة؟» فرد بالإيجاب، عند ذلك قال له الإمام عليه السلام «إن ذلك الأمل هو الذي سألتني عنه». إن الشرائع الدينية، تقدم تربية روحية، تجعل من المعرفة الحضورية بالله تعالى تشتد وتتوهج حتى

يصل الأمر بالإنسان أن يقول: «ألغيرك من الظهور ما ليس لك حتى تكون الآثار هي الدالة عليك؟ متى غبت حتى نحتاج إلى دليل يدل عليك؟».

- يا لها من حقيقة عجيبة ومذهلة. أكاد لا أصدق ذلك. كنا نبحث عن أدلة تدلنا عليه ـ تعالى ـ ، فإذا بنا نتحدث عن وجود معرفة فينا تجاهه سبحانه. علق يقظان.

- فعلاً الأمر مذهل جداً. ردت إيمان.

- سيد ماهر، قلت إن لهذا البرهان جذورا في القرآن؟ هلا دللتنا عليها؟ سأله يقظان.

- تأملا هذه الآية: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[1]. إن الجميع شهد بربوبية الله ـ تعالى ـ لهم.

- كيف يشهدهم بأنه ربهم عبر أنفسهم؟ يقظان.

- هنا مكمن المسألة يا يقظان. بشهود النفس، شهدوا بأن لهم رباً. شهود النفس يساوق شهود الرب كما عرفتما إذ النفس محض فقر إلى الرب. ثمة علاقة متداخلة مذهلة بين معرفة النفس ومعرفة الرب. يقول القرآن: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[2].

- فعلا. علاقة مذهلة وعجيبة. يقظان.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٩.

- ومن هنا كانت معرفة النفس تؤدي قطعاً إلى معرفة الرب. قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في هذا الصدد: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[1]، وقال عليه السلام: «عجبت لمن يجهل نفسه كيف يعرف ربه»[2]، وقال عليه السلام: «من عرف نفسه فقد انتهى إلى غاية كل معرفة وعلم»[3].

- سيد ماهر، ما معنى ربوبيته لنا؟ سألته إيمان.

- يعني أنه هو المربي لشؤوننا. لقد شهد الجميع على هذا. إن لدى الجميع معرفة بوجوده، وبالدور الذي يقوم به ـ تعالى ـ تجاههم. تأملا قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[4]. الآية تؤكد بمنتهى الوضوح أن الدين أمر فطري في الإنسان.

- سيد ماهر، بالطبع إن الدين هنا في الآية يقصد به معرفته ـ تعالى ـ وليس تفاصيل التشريع. أليس كذلك؟ إيمان.

- بلى يا إيمان.

---

(١) الريشهري، محمدي: ميزان الحكمة ج٦ص١٤٢.

(٢) المصدر السابق ج٦ص١٤٢.

(٣) االمصدر السابق ج٦ص١٤٢.

(٤) سورة الروم، الآية: ٣٠.

ـ ٣ ـ

الإمكان والوجوب

ـ يعد برهان واجب الوجود، أو برهان الإمكان، من أشهر البراهين على الإطلاق. الفارابي هو أول من صاغه، ثم قام الشيخ الرئيس ابن سينا بتطويره، وعرضه في العديد من كتبه. قبل أن اشرحه لكما، لأعرفكما بالمصطلحات الواردة فيهما:

١ ـ الإمكان: يطلق على الكائن الذي ليس في ذاته مانع يمنعه من الوجود، إذا توفر السبب الموجد له، وإلا فيبقى في كتمان العدم. وبعبارة أخرى: كل موجود ممكن الوجود إذا كانت ذاته متساوية النسبة إلى الوجود وإلى العدم.

٢ ـ الوجوب: يطلق على ما هو ضروري الوجود. لقد علمتما في مباحث العلية، أن العلة إذا وجدت، فإن وجود معلولها لضروري. يعني أن المعلول يصبح واجب الوجود بالغير، وذلك الغير هو علته.

ـ واضح. قال يقظان.

- والآن، لنفترض هذا الفرض العقلي الذي لا محيص عنه.

- وما هو؟ سألته إيمان.

- إن الموجود، إما أن يكون وجوده من ذاته، وإما أن يكون وجوده من غيره. هل توجد قسمة ثالثة يمكن فرضها هنا؟

- إما أن يكون الوجود من نفسه، وإما من غيره، وإما.. كلا. لا أجد لهذا التقسيم طرفا ثالثا. قال يقظان متأملاً.

- فإذا كان الموجود من نفس ذاته، نكون قد أثبتنا واجب الوجود بالضرورة. وإن كان وجوده من غيره، فيجب أن ننتهي إلى واجب الوجود بالذات لأن التسلسل مستحيل عقلاً كما تعلمان. والنتيجة: وجود ممكن الوجود، يستلزم بالضرورة وجود واجب الوجود. صاغ نصير الدين الطوسي هذا البرهان في سطر واحد، قال: الموجود، إن كان واجباً فهو المطلوب، وإلا استلزمه، لاستحالة الدور والتسلسل. وبالطبع، فأنتما تعلمان جيداً أن الكون، بسائر ما فيه، لا يصلح لأن يكون واجب الوجود بالذات. إنه واجب الوجود بالغير.

- نعم مر علينا ذلك. حركة الكون، وانتقاله من فقد وكسب دليل قوي على أن وجوده ليس عين ذاته وإلا لما فقد منه شيئا ولا كسب عليه شيئا. علقت إيمان.

- رائع. ثمة أحكام لواجب الوجود بالذات، لنلتفت جيداً لها.

١ ـ من المستحيل أن لا يكون واجب **الوجود** بالذات موجوداً. إذ أن سلسلة الممكنات لا يمكن أن تتصاعد نحو اللانهائية.

٢ ـ ليس لواجب **الوجود** بالذات علة وسبب خارج ذاته. وإلا أضحى ممكناً للوجود .

٣ ـ واجب **الوجود** بالذات، لا يمكن أن يكون واجباً للوجود بالغير، في الوقت الذي يكون واجباً للوجود بالذات. إن ذلك مؤداه تناقض شنيع.

٤ ـ واجب **الوجود** بالذات، سيغدو السبب الأول والنهائي لوجود كافة الممكنات .

هل يوجد غموض ما في هذه الأحكام؟

ـ كلا. واضحة جداً.

ـ إنه برهان سديد جداً ومتين يا سيد ماهر. علقت إيمان مسرورة.

ـ الحق، يوجد ما هو أقوى وأروع منه.

ـ ما هو؟ سألته إيمان بكل شغف.

ـ إنه برهان الصديقين.

ـ ٤ ـ

نظرة واحدة تكفي

- اعتبر ابن سينا برهانه، من أجود البراهين لإثبات وجود الله تعالى. وكان يفتخر به كثيراً، ويراه مناسباً جداً لان يطلق عليه برهان الصديقين.

- ومن هم الصديقون؟ سأله يقظان.

- إنهم فئة من الناس الذين اكتشفوا وجوده تعالى بنظرة عرفانية عميقة. الصديقون عندما ينظرون إلى الوجود، أول ما يرون فيه هو وجود الحق المتعالي تبارك وتعالى. يقول الإمام الشهيد الحسين بن علي عليه السلام: «**كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ عميت عين لا تراك عليها رقيبا، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً**»[1].

---

(١) القمي، محمد رضا: مفاتيح الجنان ص ٣٣١.

- ما أعظمها من كلمات. إيمان.

- ويقول ولده الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام: «**بك عرفتك وأنت دللتني عليك**»[1]. وكان والدهما الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قد قال من قبل: «**يا من دل على ذاته بذاته وتنزه عن مجانسة مخلوقاته**»[2]. برهان الصديقين، يريد ترجمة نظرة أولئك العظماء للوجود. وابن سينا يرى أن برهان واجب الوجود كفيل بتحقيق ذلك.

- أظنه على صواب. قال يقظان.

- كلا.

- لماذا؟ سألته إيمان متعجبة.

- العقل، بموجب برهان واجب الوجود، لا يصل إلى اكتشاف ذات الحق تعالى من النظرة الأولى. إنه يقوم بتقسيم الكائنات إلى واجب وإلى ممكن، ثم يبحث في الممكن ليؤكد أن وجوده مستلزم لوجود الواجب .صدر الدين الشيرازي رفض أن يكون برهان الإمكان ترجماناً صحيحاً لنظرة الصديقين للوجود. الصديقون، من أول وهلة، يكتشفون وجوده تعالى، ومن خلال وجوده تعالى يكتشفون غيره.

- وكيف يكون ذلك ممكناً عقلاً؟ سألته إيمان.

---

(١) مفاتيح الجنان ص٢٣٦.

(٢) المصدر السابق ص ٩٧.

- بإثبات **أصالة الوجود**، يصبح ذلك ممكناً جداً. بل لازماً من اللوازم العقلية التي لا محيص عنها.

- كيف؟ سأله يقظان.

- تذكران جيداً، أن صدر المتألهين، نهض بمسؤولية إثبات **أصالة الوجود**. يعني أن **الوجود** ليس مفهوماً اعتبارياً لا واقعية له .**الوجود** حقيقة عينية في الخارج.

- نعم نذكر. قال يقظان.

- أذكر أدلته أيضاً. علقت إيمان.

- رائع. فإذا كان **الوجود** حقيقة واقعية. فسوف تكون عين الغنى والاستقلالية. ستكون حقيقة **الوجود** حقيقة إطلاقية. حقيقة لا متناهية. كمالا صرفا لا يشوبه عدم من أي جانب وجهة.

- هذا صحيح ولقد مر علينا في مبحث **الوجود**. قالت إيمان.

- وإذن؟ نظرة على متن الواقع تكفي لاكتشاف حقيقة **الوجود** المساوية للغنى. لقد جاء تقرير هذا البرهان في كتب عدة، أروعها موسوعة أصول الفلسفة والمذهب الواقعي، قال شارح الموسوعة وهو يقرر برهان الصديقين (وهنا أخرج السيد ماهر كتابا وبدأ يقرأ منه): «**الفيلسوف حينما يتأمل الوجود، يتفحصه بنظرة فلسفية دقيقة، يكتشف من الخطوة الأولى الحقيقة الوجوبية. وإذا أراد المضي في رحلته الفلسفية، فمن المحتم عليه أن يتخذ الواجب سلماً لإثبات**

وجود الممكنات. على أن وجود الممكنات ليس مرحلة ثانية بعد وجود الواجب، بل تجليات لذات الواجب. لهذا البرهان ميزتان، الأولى، أن البرهان لا يتكئ على استحالة التسلسل والدور. والميزة الأخرى، لم يتم في هذا البرهان استخدام مخلوق لإثبات وجود الواجب. هذا البرهان يطابق الكلمة المشهورة القائلة: يا من دل على ذاته بذاته»[1].

- كلام رائع ومتين جداً. علقت إيمان.
- لا توجد لهذا البرهان مقدمات. أليس كذلك؟ سأله يقظان.
- مقدمته الوحيدة هي إثبات أصالة الوجود.
- فعلا يا سيد ماهر، وكما قلت سابقاً، ها نحن نستغني أخيراً عن مساعدة قاعدة استحالة تسلسل العلل. علقت إيمان.
- نعم يا إيمان. يمكننا الآن أن ننتقل إلى الحديث عن توحيد واجب الوجود.

---

(١) الطباطبائي، محمد حسين: أصول الفلسفة والمذهب الواقعي. ج٣ص٣٣٧. تعليق: مرتضى المطهري.

ـ ٥ ـ

درجات التوحيد العقلية والعرفانية

ـ تعلمان، أننا نقصد بالتوحيد، وحدة واجب الوجود وأنه لا شريك له على الإطلاق.

ـ نعم. علقت إيمان.

ـ ولكن، هذا التوحيد له أنحاء عدة ومراتب كثيرة، أشهرها على الإطلاق أربعة؛ التوحيد في الذات، والتوحيد في الصفات، والتوحيد في الأفعال، والتوحيد في العبادة.

ـ ما معنى ذلك؟ قال يقظان.

ـ التوحيد في الذات، معناه أن واجب الوجود ليس له مثيل، ولا يوجد شبيه لذاته على الإطلاق. يعني أن شبيه الباري تعالى ممتنع الوجود أساساً. بينما التوحيد في الصفات معناه، أن صفات ذات الحق تعالى ليست محدودة ولا متناهية. ومعنى التوحيد في الأفعال، أنه سبحانه، غير محتاج إلى غيره لكي يتمم له فاعليته. يعني لا يوجد له شريك يعينه في فعله. وأخيراً، فإن التوحيد في العبادة يعني أن المستحق الوحيد للعبادة، وبلا شريك، هو ذات واجب الوجود.

- هل هذه المراتب إلزامية؟ أعني أنه هل على الموحد أن يعتقد بها؟ سألته إيمان.

- هذه المراتب التوحيدية من مستلزمات القول بعدم وجود شريك لذات الله تعالى. سوف تتأكدان من ذلك تماماً عندما ندخل في كل واحدة منها. الترتيب الذي ذكرته لمراتب التوحيد الأربعة، هو ترتيب عقلي. يعني أن الفيلسوف، عندما يتأمل الوجود، يكتشف الحق تعالى الذي لا شريك له. وبعد ذلك، يتأكد من كمال ولا محدودية صفاته تعالى، وبعد ذلك يصل إلى التوحيد في الأفعال، ويستبين له تماماً أن الوسائط التي تتم أفعال الخالق بها، كلها واقعة في قبضته، ومفتقرة إليه، وليست بمعينة له لإتمام فعله.

- لم أفهم؟ سأله يقظان.

- نحن نعلم جميعاً، وبحسب النصوص القرإيمان، أن للملائكة دورا في إدارة بعض شؤون هذا العالم، ولكن، هل هي بذلك تعين ذات الواجب تعالى لكي يتمم أفعاله؟ هذا الاعتقاد يخالف التوحيد، لأنه يثبت شريكا له على مستوى الأفعال. في الوقت الذي أكدت بحوثنا، أن الوجود الإطلاقي لذات الحق تعالى يحوي الكمال ذاتياً بنحو لا نهائي، وتصور احتياجه إلى غيره، في أي جهة من الجهات مستحيل قطعاً.

- فهمت جيداً. رد يقظان.

- وأخيراً، يستبين للعقل بجلاء، أن واجب الوجود هو المستحق دون غيره لأن يعبده الإنسان ويطلب قربه. تلك هي مسيرة العقل. وهناك مسيرة القلب باتجاه مراتب التوحيد الأربع المشار لها.

- هل تعني بمسيرة القلب، المسيرة العرفانية؟ سألته إيمان.

- بالضبط. العارفون قوم يريدون أن يصلوا إلى حقائق الوجود عبر تصفية الباطن، ومن خلال المجاهدات التي تؤدي إلى هذه التصفية والطهارة المعنوية.

- وهل يصلون؟ سأله يقظان.

- بالتأكيد. لقد عرفنا أن ضمن أجهزة الإدراك المتوفرة لدى الإنسان، جهاز القلب. والقلب يعني القدرة على الإدراك الحضوري الذي يتم عبر تمام كيان الإنسان الباطني. كما وقد عرفنا أن الإنسان يحمل في جنبات قلبه، معرفة بالله تعالى. وأن هذه المعرفة تقبل الاشتداد والتوهج. العرفان نمط من الإدراك وأسلوب في المعرفة لا يمر عبر البحث العقلي. كل ذلك قد مر علينا كما تعلمان .

- نعم يا سيد ماهر. أذكر كل تلك المطالب. ردت إيمان.

- أشكرك يا إيمان. العارفون تبدأ رحلتهم باتجاه مراتب التوحيد من التوحيد الأفعالي، وتنتهي إلى التوحيد الذاتي.

- كيف؟ سأله يقظان.

- العارف عندما يصفو قلبه، يدرك جيداً أن وراء عالم الأسباب والمسببات، يدا واحدة تعمل، وتوجد الأسباب، وتصنع المسببات، إنها يده تعالى الحاضرة في كل مكان. ومن المستحيل أن يقع شيء في دار الوجود، دون إذنه تعالى ومشيئته. فهو مالك الملك بنحو الحقيقة، وكل شيء في قبضته. نحن نرى الغيوم الكثيفة في السماء تتحرك، ونرى الأمطار تهطل، ونكاد لا نلتفت إلى الفعل الإلهي في هذا العمل، ولكن العارف يرى في حركة الغيوم، يده تعالى التي تحركه، ويرى يده تعالى التي تنزل قطر السماء إلى الأرض. أريد القول أن العارف يشهد، أن الفاعل الحقيقي في دار الوجود، هو واجب الوجود لا غير، وسائر الفواعل الأخرى، إنما تستمد طاقة الفعل، منه تعالى. هذا هو التوحيد في الأفعال عند العارفين.

- أمر مذهل. علق يقظان مندهشاً.

- وبعد ذلك، تتحرك ذات العارف باتجاه اكتشاف وشهود التوحيد في الصفات. فيرى أن سائر صفات الكمال هي لله تعالى. الموجود الحقيقي الوحيد هو ذات الواجب، والكل غيره قد استعار الوجود منه، فكل موجود غيره، لا يتمتع بأي صفة من صفات الكمال بنحو الأصالة والمالكية أبداً.

- بالتأكيد. ردت إيمان.

- إذن، الصفات الكمالية كلها صفاته. نحن نحسب أن ما عندنا من القدرة العلمية، هي قدرتنا، وهكذا نظن أن سائر

الصفات الوجودية التي تتواجد فينا، هي صفاتنا. لكن الأمر على خلافه. إنها ليست لنا أبداً. إذا كان الوجود فينا مستعارا، فمن الطبيعي أن تكون صفات الوجود أيضاً مستعارة. العارف يشهد أن كل صفة كمالية، هي لذات واجب الوجود، وما العالم إلا فراغ في ذاته، ومملوء بواسطة غيره.

- هذه نتيجة القول بفقر العالم من جهة الوجود. استوضحت منه تماماً في مبحث الوجود والعلية. علقت إيمان.

- رائع جداً. وأخيراً، يشهد العارف بأن الموجود الذي يوجد بنحو الحقيقة، هو الله وحده. وسائر الكائنات، مرايا تعكس وجوده. الكل يستعير الوجود منه. الكون فقر تام في ذات نفسه، ومعبأ بالحياة من خلال ترشحها من واجب الوجود. وهكذا يتحقق وجداناً، بأنه لا موجود بحسب الحقيقة إلا واجب الوجود.

- أمر عظيم جداً أن يتأكد الإنسان من هذه الحقائق بروحه وكيانه لا بعقله فقط. قال يقظان.

- نحن أيضاً نعرف هذه الأمور، ولكن بالبحث العقلي. بينما العارف يتأكد من كل ذلك شهوداً. هنالك قصة يرويها البعض عن الحوار العلمي الذي جمع بين الشيخ الرئيس ابن سينا وبين العارف أبي سعيد أبي الخير، فبعد أن تحاورا الرجلان بانفراد، سأل ابنَ سينا تلامذتُه عن نتيجة الحوار فقال: ما نثبته نحن بالدليل، يراه هو بالوجدان.

وأجاب أبو الخير تلامذته عن السؤال نفسه قائلا: ما نراه نحن، يدركه ابن سينا بالدليل.

- إنها قصة تبين تماماً الفروق بين الاتجاه العقلي والاتجاه العرفاني. علق يقظان.

- مثل هذه القصة وقعت بين العارف الشهير ابن عربي، وبين الفيلسوف ابن رشد. لقد التقيا ذات يوم وكانت نتيجة المحاورة تشبه تلك التي جرت بين أبي الخير وابن سينا. بالطبع، هذا لا يعني أن ننفض اليد عن البحث العقلي بحجة أن الإدراك العرفاني أسمى منه. إن ما لا يدرك كله لا يترك كله. لنبدأ الآن بالحديث عن التوحيد في الذات بحسب البحث العقلي.

- سيد ماهر، لنتوقف قليلاً. لقد وصلنا بيت الزبير. قال يقظان.

- بيت من؟ سأله السيد ماهر مندهشاً.

- بيت الزبير. في الواقع إنه متحف جميل جداً. سترى فيه صوراً عديدة جداً لعمان القديمة، وعمان الجديدة كذلك. تفضل. نزل الجميع وتوجهوا داخل البيت. لاحظ السيد ماهر وجود فوج من الأجانب تقودهم مرشدة سياحية. انضم الثلاثة مسرعين للفوج لكي يستمعوا لشرح المرشدة السياحية. أذهل السيد ماهر طلاقة لسان المرشدة في التحدث بالانجليزية رغم أن ملابسها المتمثلة في العباءة

السوداء، ورداء رأسها الأسود الذي يغطي تمام شعرها وذقنها يدل على أن المرأة عمانية. هنا بادرها بالسؤال:

- هل أنت عمانية؟

- بلى. ١٠٠٪ عمانية. ردت المرشدة وهي تنظر إلى السيد ماهر باستغراب شديد .

- أتأسف إن ضايقتك بالسؤال. لأنك بارعة جداً في اللغة الإنجليزية، كما أن شرحك يدل على تعمقك في فن الخطاب والشرح، ظننتُ..

- أنني قد لا أكون عمانية. ابتسمت الفتاة ثم قالت: فرص التعليم كثيرة جداً في السلطنة للنساء والرجال. شتى التخصصات متوفرة. لم أفعل شيئا سوى انني استغللت الفرصة.

- حسناً فعلت. أدعو الله أن يوفقك للنجاح الدائم. رد السيد ماهر.

- شكراً يا سيدي.

ـ ٦ ـ

بين الواحد والأحد

خرج الجميع من بيت الزبير مذهولين. لقد كانت أول زيارة لإيمان ويقظان أيضاً لهذا المتحف البديع. أما السيد ماهر، فقد كان مسروراً جداً.

ـ كم هو رائع أن يعيش المرء مرحلة يرى فيها بأم عينيه، بلده ينتقل من عصر الظلام، إلى آفاق النور. إن هذه الصور ستلعب دور الذاكرة لأجيال عمان تذكرهم كيف كان بلدهم وكيف أصبح.

ـ إذن، أنت مسرور حقاً؟ سألته إيمان مبتسمة.

ـ جداً. ولكما الشكر.

ـ لا شكر على واجب. لكنني أتمنى الآن أن أرجع للدرس. علقت إيمان مبتسمة.

ـ طيب يا إيمان. بكل سرور. التوحيد مأخوذ من الوحدة. يعني أن واجب الوجود واحد. فما معنى واحد؟

ـ وهل للواحد معنى نجهله؟ سأله يقظان ضاحكاً.

- في المعارف التوحيدية، نعم ربما يكون للواحد معنى نجهله. الوحدة، تارة تكون وحدة عددية، وأخرى تكون وحدة حقيقية. كما وأن هناك ما هو أرفع حتى من الوحدة، وهي الأحدية.

- ما هذه الألغاز يا سيد ماهر. نرجو التوضيح. علق يقظان ضاحكا.

- الوحدة العددية تقبل الثاني والثالث. أي تقبل الكثرة. فلو اعتقدنا أن واجب الوجود بالذات واحد بالوحدة العددية، كان معناه، أن واجب الوجود بالذات يمكن أن يكون له ثان وثالث. ولكن في واقع الأمر، ذات واجب الوجود بالذات لا تقبل أن يكون لها ثان. لأن الثاني يبدأ من حيث ينتهي الأول. ولكن إذا كان الأول غير محدود من جميع الجهات، فكيف يكون له ثان؟

- إذن الوحدة العددية لا تنطبق على الله ـ تعالى ـ ، واجب الوجود بالذات؟ سألته إيمان.

- نعم لا تنطبق عليه تعالى. وحدته ليست بوحدة عددية. هذه نتيجة قولنا إن ذاته إطلاقية. أثناء حرب صفين، سأل أحد الأشخاص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قائلا: «يا أمير المؤمنين أتقول أن الله واحد؟» فنهر الناس الرجل وعاتبوه إذ كيف يسأل في مثل هذا الوقت العصيب مثل ذلك السؤال، ولكن أمير المؤمنين عليه السلام قال لهم: «دعوه، فإن الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم». ثم

أجابه الإمام عليه السلام قائلا: «**يا أعرابي، إن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام، فوجهان منها لا يجوزان على الله ـ عز وجل ـ، ووجهان يثبتان فيه. فأما اللذان لا يجوزان عليه، فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز، لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد**»[١] إلى آخر كلامه عليه السلام.

- يا إلهي.. مذهل هذا الجواب. في ذلك الزمن أيضا كان الناس يسألون مثل هذه الأسئلة. إيمان.

- هذه أسئلة فطرية يا إيمان. منذ فجر البشرية والناس يفكرون في شؤون الخلق والخالق.

- ولكن.. أن يتلقوا مثل هذا الجواب فهذا أمر غير متوقع دائما يا سيد ماهر. إيمان.

- سيد ماهر، في البداية يبرهن أنه تعالى موجود، وبعد ذلك تثبت إطلاقيته، وعلى هذه الإطلاقية واللامحدودية، تأتي الوحدة الحقيقية التي تخالف الوحدة العددية. هل هذا الترتيب صحيح؟ سأله يقظان.

- صحيح إذا قمنا بإثبات وجوده تعالى ببرهان الإمكان. ولكن إن قمنا بإثبات وجوده سبحانه عبر برهان الصديقين، فالبرهان سيتضمن القول بإطلاق وجوده، ولن نحتاج إلى تخطي هذه الدرجات.

---

(١) الصدوق، محمد بن علي: التوحيد ص ٨٣.

- فعلا يا سيد ماهر. يقظان.

- وما يلزم من الوحدة الحقيقية، أن شريك الباري ممتنع الوجود، وليس غير موجود فحسب.

- ما الفرق بين القولين؟ سألته إيمان.

- ما ليس بموجود قد يتواجد، ولكن ممتنع الوجود لا يوجد له طريق إلى التواجد.

- فهمت جيداً. علقت إيمان فرحة وهي تسجل كل ذلك في دفترها الأنيق.

- ذكرت لكما أن هنالك مفهوما أرفع من مفهوم الوحدة.

- نعم. قلت بأنه مفهوم الأحدية. علق يقظان.

- أحسنت. الواحدية كانت تنفي الكثرة خارج ذات واجب الوجود. أما الأحدية فتنفي الكثرة في ذات واجب الوجود.

- كيف؟ سأله يقظان متعجباً.

- الأحدية تعني، أن ذات واجب الوجود ليست فيها كثرة على الإطلاق.

- هذا أمر طبيعي يا سيد ماهر. الكثرة تدل على المحدودية، لأن الثاني يبدأ من حيث ينتهي الأول. علقت إيمان.

- بالضبط إيمان. إن البحث العقلي لا يسمح بقبول الكثرة في ذات واجب الوجود. وهذا هو معنى الأحدية.

ـ ٧ ـ

دليل الوحدة.. ومستلزماته

- لنتعرف إلى الدليل الذي نستدل به على أن ذات واجب الوجود واحد لا شريك له.
- لقد مر الدليل يا سيد ماهر. علقت إيمان.
- وما هو يا إيمان؟
- ذكرنا أن وجود الشريك يستلزم المحدودية. لأن ما يكون له ثان، لا بد أن يكون محدود الوجود. فحيثما ينتهي وجوده، يبدأ وجود الثاني. وفيه إثبات للمحدودية. أجابت إيمان بكل ثبات.
- رائع. كل ما له ثان، فوجوده محدود. وواجب الوجود ذاته عين الوجود، فكيف يكون محدوداً من جهة الوجود؟ ولكن انتبها جيداً، هذا الدليل يصبح صحيحاً وفقاً لقاعدة أصالة الوجود فقط.
- كيف؟ سألته إيمان بكل شغف.
- ظهر في إحدى الأزمنة، وربما ما بعد السهروردي المقتول، رجل يدعى بابن كمونة....

- ابن كمونة؟ اسم غريب. صاح يقظان مقاطعاً السيد ماهر.

- يقظان يستحسن ألا تقاطع كلام السيد ماهر. وجهت إيمان كلامها إلى يقظان بكل هدوء.

- آسف يا سيد ماهر. رد يقظان مبتسماً.

- لا بأس يا يقظان. إنه اسم غريب فعلاً. قيل إن الرجل كان يهودي الديانة، وقيل بأنه كان مسلماً شديد الورع والتقوى. المهم أن الرجل صاغ شبهة عرفت فيما بعد بشبهة ابن كمونة، وسماها البعض بشبهة افتخار الشياطين.

- افتخار الشياطين؟ سألته إيمان بكل تعجب.

- خلاصة شبهته هي أننا نجهل حقيقة واجب الوجود، فليس لنا إذن أن نقول بأن مقتضى وجود الشريك مؤداه المحدودية. من منا يعرف حقيقة وجود واجب الوجود؟ لا أحد. وبالتالي، لعل حقيقته هي بالنحو الذي تقبل الشريك. يعني أن حقيقته لا تصبح محدودة الوجود بوجود الشريك. هذه الشبهة أعيت كبار العلماء آنذاك في ردها، لأن قاعدة أصالة الوجود لم تكن واضحة بعد. لقد نقحها وبرهن على صحتها صدر المتألهين كما تعلمان.

- وكيف تسقط الشبهة وفق القاعدة؟ سأله يقظان بكل انتباه.

- الشبهة تكون صحيحة إذا اعتبرنا أن الوجود فكرة اعتبارية وليست حقيقة واقعية. ولكن بعد ثبوت واقعية الوجود وحقيقته، نصبح على علم تام بأن ذات واجب الوجود

حقيقتها تكمن في الوجود الذي لا حد له. يعني الوجود الإطلاقي. وعليه، لا يستقيم القول بوجود الشريك إلا على أساس محدودية الوجود. هل هذا مفهوم؟

- مفهوم جداً يا سيد ماهر. الشبهة كانت ذكية جداً ولكن الرد أذكى وأروع. علقت إيمان.

- سيد ماهر، وفقاً لكلامك، ستغدو حقيقة واجب الوجود معروفة لنا. علق يقظان مستفهماً.

- نحن نعلم أن حقيقة واجب الوجود هي الوجود الإطلاقي. لكن كيف يكون الموجود الإطلاقي في ذاته، فهذا مما لا سبيل لنا لمعرفته يا يقظان.

- نعم فهمت. علق يقظان.

- سوف تتأكد أكثر من ذلك بعد قليل. لعل ابن كمونة كان قد استفاد من بعض معالجات شيخ الإشراق التي كانت مؤداها إثبات وهمية فكرة الوجود واعتباريتها. المهم أن ردها سهل يسير بناء على أصالة الوجود. إن ثبوت كونه تعالى واحدا لا شريك له، يستلزم مجموعة من الحقائق التي ترافق هذه النتيجة مرافقة إلزامية مؤكدة.

- وما هي تلك المستلزمات يا سيد ماهر؟ سأله يقظان.

- المستلزم الأول هو عدم تناهي واجب الوجود.

- هذا أصبح واضحاً جداً الآن. علقت إيمان.

- المستلزم الثاني هو أن واجب الوجود ليس لوجوده ابتداء ولا انتهاء. يعني أنه موجود أزلي وسرمدي. هل يمكنك عرض الدليل على ذلك يا يقظان؟

فوجئ يقظان بالسؤال، لكنه تمالك نفسه، وأدار بعض صفحات دفتره ثم قال:

- نعم. لو كانت له بداية لكان محدوداً. يعني أن الوجود ليس عين ذاته، بل قد استعاره من غيره، لأنه كان عدماً، وهذا خلاف حقيقة واجب الوجود. وبالتالي، لا يمكن فرض زواله، لأنه لم يستعير الوجود عن غيره حتى يمكن أخذه عنه وتجريده منه.

- أحسنت. هذا هو الجواب. والآن، لنبرهن على التوحيد الأحدي.

- لا نحتاج إلى ذلك يا سيد ماهر، فلقد مر البرهان سابقاً. علقت إيمان.

- هل يمكنك إعادته يا إيمان.

- بكل سرور. لو كانت حقيقة واجب الوجود تتألف من كثرة، لكانت محدودة، لأن الكثرة عبارة عن مجموعة من الأشياء كلها محدودة، كل واحدة منها تنتهي من حيث تبدأ الأخرى. أجابت إيمان.

- نعم. ونتيجة ذلك أن ذات واجب الوجود بسيطة.

- ماذا؟ بسيطة؟ سأل يقظان مندهشاً.

- أي خالية من التركيب يا يقظان. لقد مر ذلك علينا فهل نسيته؟

- ولكن كيف تكون ذاته تعالى بسيطة وهو يتصف بالعديد من الصفات الكمالية؟ سأل يقظان.

- هذا الذي سننظر فيه تحت عنوان التوحيد في الصفات.

ـ ٨ ـ

الصلة بين الذات والصفات

ـ ليس من شك في أن ذات واجب الوجود تتمتع بالكمال اللامتناهي. الحياة كمال، والعلم كمال، والقدرة والقوة كمال، والعزة والكبرياء والعظمة كلها كمال. ومن المستحيل أن تكون ذات واجب الوجود خالية من الكمال. الكمال مصدره الوجود والتحقق، بينما الزوال والفناء توأمان للعدم والبطلان. ولأن ذاته غير محدودة من جهة الواحدية ومن جهة الأحدية، ليس ثمة سبيل لدى العقل لوصفه تعالى بكل هذه الأوصاف، إلا عبر إرجاع كل صفة إلى أخرى، وإرجاع الكل إلى الذات بنحو الوحدة الحقيقية التامة.

ـ ماذا؟ إرجاع كل صفة إلى أخرى؟ صاح يقظان غير مصدق.

ـ وإرجاعها كلها إلى الذات؟ سألته إيمان مندهشة.

ـ أليس في ذلك انتفاء لكل الصفات؟ سأله يقظان مجدداً.

ـ كلا. قال السيد ماهر بحزم واستطرد: إن الكثرة في

الصفات تسكن عقولنا فقط. الإنسان عندما يشاهد الكون الفسيح العظيم، يقول إن خالق الكون يتصف بالعلم، لأنه ليس للجاهل أن يوجد هذا العالم المنظم المعقد. ثم يصف الخالق بالقدرة، لأن الإيجاد والصنع يستلزم القدرة في الصانع، ثم يشاهد آثار الجمال في المصنوعات فيحكم بأن الخالق جميل، لأنه لا يصدر الجمال إلا من الجميل حسب قانون التناسب، وعلى أساس أن فاقد الشيء لا يعطيه. ثم يلحظ العقل الإبداع والإتقان في الصنع، فيقول إن الصانع مبدع، ومتقن لفعله. وهكذا يبدأ العقل تدريجياً يكتشف صفات الخالق من خلال مشاهدته لصنعه. ويساعده عقله على وصف الخالق بصفات أخر ربما لا يشاهد آثارها بالضرورة. هذه الكثرة في الصفات تقيم في أذهاننا نحن أفراد البشر، ولكنها في الحقيقة غير موجودة بهذا النحو. إنها موجودة في ذات الواجب بنحو يلائم وجود الواجب. وما يلائم وجود الواجب هو الأحدية. إذا كانت ذات الواجب تتمتع بصفات كثيرة، وبالنحو الذي لا يكون العلم هو نفسه القدرة، ولا تكون القدرة هي نفسها العزة، ولا تكون العزة هي نفسها الإرادة، لكان الوضع مريعاً. كانت كل صفة تنتهي من حيث تبدأ الأخرى. وبالتالي نسقط في بئر المحدودية التي نفيناها بالبراهين الصحيحة سابقاً.

- لقد فهمت تماماً يا سيد ماهر. علقت إيمان بفرح واضح.
- لنرجع إلى سؤالك السابق يا يقظان. سألتني ما إذا كانت

حقيقة واجب الوجود تصبح معروفة لنا عندما نقول بأن حقيقته إطلاقية؟

- نعم يا سيد ماهر سألتك. رد يقظان.

- قل لي يقظان، هل يستطيع عقلنا أن يفهم طبيعة الموجود الإطلاقي، الذي ذاته بسيطة الحقيقة، وصفاته كلها عين الأخرى، وكلها عين ذاته؟

- لا على الإطلاق. نعم فهمت. رد يقظان مبتسماً.

- الواقع إن ما مر يؤسس لقاعدة هامة وهي: استحالة معرفة واجب الوجود بكنهه.

- ما معنى بكنهه؟ سألته إيمان.

- يعني بحقيقته. نحن بمعونة العقل، نقبل أن حقيقته تعالى إطلاقية. ولكن كيف تكون تلك الحقيقة، فمما لا سبيل لنا لمعرفته. عقلنا يقول انه تعالى بسيط الحقيقة، ولكن كيف تكون البساطة؟ عقلنا يؤكد أنه يحوي كل كمال، وبنحو لا نهائي، ولكن كيف يكون ذلك الموجود الذي كماله غير متناهي؟ لا نستطيع إدراك ذلك على الإطلاق.

- سيد ماهر، هل يمكن أن أقول إن سبب عجزنا عن معرفته الحقيقية هو محدوديتنا؟

- نعم. نحن كائنات محدودة وناقصة، وما هو ناقص لا يستطيع الإحاطة بالكامل. المحدود لا يستطيع إدراك المطلق إدراكاً تاماً، وإلا لوقعنا في تناقض واضح.

- ٩ -

العلم الفعلي والعلم الانفعالي

- عقلنا يملك القدرة على وصف ذات واجب الوجود بصفات معينة، على أساس أنها من مستلزمات مقام وجوب الوجود. خذ صفة الحياة مثلا: من المؤكد أن ذات واجب الوجود، الذي يمنح لكل شيء وجوده وحياته، لا يخلو من هذه الصفة. في القرآن آية تقول: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[1].

- بالتأكيد. رد يقظان.

- ومن هذه الصفات التي يستقل العقل بإثباتها وفقاً لتأمله في مقام وجوب الوجود، صفة العلم.

- كيف نبرهن على وجود صفة العلم وأن مقام وجوب الوجود يستلزمها؟ سألته إيمان.

- لنثبت أولاً، أن لدى واجب الوجود علما بذاته. يمكننا إثبات ذلك بعدة طرق، منها، أن معطي الشيء لا يكون فاقداً له. هذا

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥٨.

القاعدة العقلية تستند على بدهية استحالة اجتماع النقيضين. يثبت القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾[1].

- صحيح. علق يقظان.

- وبالنتيجة: لقد منح واجب الوجود للكائنات القدرة العلمية، فكيف يكون فاقداً لما منح؟

- واضح جداً. علقت إيمان.

- إذن، واجب الوجود يتصف بالعالِمية. فهو عالِم. وعلمه يتعلق بذاته المتعالية، وبمخلوقاته قبل أن يوجدها، وبعد أن يوجدها. البرهان السابق أثبت كونه عالما بذاته. وعلمه بذاته يساوي علمه ـ تعالى ـ بسائر الكائنات، هذا قبل الإيجاد.

- كيف؟ سألته إيمان.

- لأنه ـ سبحانه ـ هو العلة العليا والسبب الأول والسبب الأخير لوجود كل شيء. فعلمه بذاته سيؤدي إلى علمه بكافة معلولاته، لأنها ترجع إليه.

- هل يمكنك تقديم مزيد من التوضيح يا سيد ماهر؟ سأله يقظان.

- ممكن. نحن نعلم جميعاً بأنه ـ تعالى ـ موجد الكل ومانح

---

(1) سورة الرعد، الآية: ٩.

الجميع وجوده. والسؤال هنا هو: هل أن منحه تعالى للكائنات وجودها، راجع إلى عامل خارج عن ذاته، أثر فيها وسبَّب في إيجاده هذه الكائنات على تنوعها، أم أن ذاته تقتضي هذا الإيجاد بطبيعتها المتعالية؟.

- إيمان: إذا قلنا بأن عاملاً آخر هو المؤثر لكان مؤداه...

سكتت إيمان ولم تكمل.

- مؤداه، سريان تأثير غيره فيه تعالى إلى الحد الذي جعله موجداً للأشياء، ومؤداه أن ذات الواجب بنفس ذاتها لا تقتضي الإيجاد، ومؤداه كذلك حاجته إلى عامل أجنبي عنه لكي يؤثر فيه ويجعله موجداً بعد أن لم يكن كذلك، وتالي كل تلك الأشياء، ضعفه، ونقصه، وتأثير غيره فيه، وحاجته إلى الغير، فهل تلك هي صفات واجب الوجود بالذات، الكبير المتعال، ذي الكمال الإطلاقي الذي لا حد له؟.

- بالطبع لا. علقت إيمان.

- إذن، إيجاد الأشياء من صنع ذاته، وهذا ما تقتضيه ذاته. يعني أن ذاته لا تخضع لعامل قاهر يؤدي بها إلى إيجاد العالم. فإذا كانت ذاته هي التي تقتضي وجود العالم، فمعرفته بذاته ستكون توأماً لمعرفته بمقتضى ذاته، وهو إيجاد العالم.

- بكل تفاصيل العالم؟ سألت إيمان.

- بلى بكل تفاصيل العالم مادامت هذه التفاصيل من صنعه تعالى.

- أريد المزيد من التوضيح لو سمحت يا سيد ماهر. طلب يقظان منه ذلك.

- مؤكد. اسمع يقظان: إن لدينا هٰهنا احتمالين، الأول: إن ما يجهله من تفاصيل الأشياء لم يكن هو علة وسبب لوجودها، وبالتالي فإن ثمة من هو المسؤول عن تلك التي ليس هو سببا لوجودها. وبالتالي فله شريك. وهذا أمر باطل مر البرهان المؤكد لبطلانه. والاحتمال الآخر هو، أن علمه محدود، يطاول بعض التفاصيل، ويجهل الأخرى. والمحدودية توأم الحاجة والنقص والعدم.

- واضح جداً. علقت إيمان فرحة.

- ولكن، الأشياء تتبدل وتتغير، وسيؤدي ذلك إلى التغير في ذاته. وهذا أمر غير مسموح بالنسبة إلى واجب الوجود، لأن التغير فقد وحدوث، وواجب الوجود واجب للوجود من جميع الجهات. علق يقظان متسائلاً.

- أولاً: علمه التفصيلي بسائر الأشياء، وبسائر تفاصيلها، لما كان مساوياً لعلمه بذاته المتعالية، فهو عين ذاته، وبالتالي، فهو علم بسيط ببساطة ذات واجب الوجود، بالرغم من تفصيله الشديد. إن صدر المتألهين سمى مرحلة البساطة هنا «الإجمال»، ومرحلة الإحاطة بأدق التفاصيل «التفصيل»، وصاغ نظريته الرائعة في العلم الإلهي تحت

عنوان: **العلم الإجمالي في عين الكشف التفصيلي**، وهو يريد بذلك، أن الكثرة التفصيلية تحت قهر البساطة الذاتية. سوف نطلق على هذا العلم اسم **العلم الفعلي**. وثانياً: العلم الذي يتغير ويتبدل بتغير المعلومات هو العلم الانفعالي. نحن لا نعلم بالشمس من علمنا بذاتنا، وإنما نعلم بوجودها من خلال النظر إلى السماء. مشاهدتنا توجد في أنفسنا انفعالا، فنحن ننفعل عند كل تغيير يقع لقرص الشمس. ولكن من علمه فعلي يجعل الشيء يتواجد طبقا له لا يتغير ولا يتبدل.

- إذن، واجب الوجود علمه بسائر الحقائق علم فعلي لذلك لا يكون عرضة للتغير. علق يقظان.

- تقصد بالعلم الفعلي، العلم الذي يكون السبب في وجود الشيء؟ علقت إيمان مستفهمة.

- نعم. هنالك إذن علم فعلي وعلم انفعالي. وثالثاً، علينا أن نفرق بين العلم بالمتغير وبين العلم الذي يتغير.

- كيف يا سيد ماهر؟ سألته إيمان.

- لنفترض أننا قرأنا في الأخبار أن زيداً من الأشخاص قد توفي. ولكن وجدنا في يوم غد، أنهم ارتكبوا خطأ في الإعلان، وأن المتوفى لم يكن زيدا، بل شخص آخر. ما الذي حدث لعلمنا بموت زيد؟

- تغير حتماً. علق يقظان.

- ولكن ولنفترض أننا ركبنا في ساعة حائط منزلنا بطارية لا يتجاوز عمرها أكثر عن ١٠ أيام، وأن الساعة، بعد مرور الأيام العشرة، ستتوقف حتماً. وفعلاً توقفت الساعة عن العمل بعد مضي الأيام العشرة، هنا ما الذي حدث لعلمنا؟

- لم يتغير. ردت إيمان مبتسمة.

- بالضبط. واجب الوجود عالم بسائر الأشياء وتفاصيل هذه الأشياء. إن ما يجري عليها لا يؤدي إلى وقوع تغيير في علمه على الإطلاق. هذا هو العلم بالمتغير، وليس العلم المتغير.

- مفهوم تماماً. علق يقظان.

- وأخيراً، فإن لواجب الوجود علما بالأشياء، بعد أن أوجدها. علينا أن نلتفت جيداً إلى الفوارق بين علمه تعالى بالأشياء قبل وجودها وعلمه بها بعد وجودها.

- ما هي هذه الفوارق يا سيد ماهر؟ سألته إيمان.

- علمه بالأشياء قبل الإيجاد هو نفس ذاته، لأنه نفس علمه بذاته. وبالتالي فهو مطلق غير محدود ولا سبيل إلى تغيره وتبدله. بينما علمه بالأشياء بعد الإيجاد ليس نفس ذاته. هذه الأشياء في الخارج ليست واجبة الوجود. إنها حادثة. وهي محدودة.

- وهل يؤدي علمه بها بعد الإيجاد أي تغيير في ذاته؟ سألته إيمان.

- كلا يا إيمان. قبل قليل تأكدنا من أن علمه تعالى بالأشياء علم تفصيلي جداً. إنه علم بالمتغير لا علم يتغير. لو حدث أنك شاهدت فيلما ما، قبل أن يعرض في صالات السينما، شاهدتيه بالكامل، فهل سوف يتبدل علمك لمشاهدتك الثانية له في صالة العرض؟

- كلا. ردت إيمان. نعم فهمت جيداً الآن.

- إلى هذا المعنى يشير الإمام علي عليه السلام بقوله: **«حاط بالأشياء علما قبل كونها، فلم يزدد بكونها علماً، علمه بها قبل أن يكونها كعلمه بها بعد تكوينها»**[1].

(١) الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين: التوحيد ص٤٣.

ـ ١٠ ـ

القدرة الإطلاقية والممتنعات الذاتية

بلغت سيارة يقظان منتجع بندر الروضة البحري.

ـ ما هذا المكان الجميل يا يقظان؟ سأله السيد ماهر.

ـ إنه نادٍ بحريٌّ اسمه بندر الروضة. سنأخذ جولة في البحر، ثم نطلب غداءنا في مطعمه الجميل.

ـ ما أجمل ألوان هذا البحر. إنه أخضر وأزرق فاتح. علقت إيمان. انطلق المركب بهم باتجاه البحر، ولف الصخور الضخمة العائمة، ثم عاد الجميع مسرورين. طلبوا مكاناً للصلاة، وبعدها، جلسوا في المطعم المطل على مرفأ للقوارب، وطلبوا الغداء. وفي طريق العودة، بدأ السيد ماهر بتكملة الدرس، فقال:

ـ الصفة الثالثة التي يثبتها العقل لذات واجب الوجود، كما يفرضه المقام الوجوبي، هي صفة القدرة. هل القدرة صفة وجودية أم صفة عدمية؟

ـ إنها صفة وجودية. ردت إيمان.

- إذن، الوجود المطلق، هل سيكون متصفا بها؟

- بالتأكيد. سيكون متصفاً بها بصورة إطلاقية. القرآن أيضاً يقول: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]. علق يقظان.

- ولكن، هل يستطيع واجب الوجود إيجاد كل شيء؟ هل يستطيع فعل كل شيء؟ سألته إيمان.

- عادة يضربون مثالاً شهيراً فيقولون: هل يستطيع إدخال العالم في بيضة صغيرة دون أن يكبر البيضة أو أن يصغر العالم؟ علق يقظان مستفهماً.

- لنعرف أولاً، أن لدينا ثلاثة أنواع من المستحيلات: النوع الأول هو المستحيل الذاتي، ومعناه: أن الفرض نفسه يتضمن تناقضاً.

- ما معنى ذلك؟ سألته إيمان.

- لنفرض وجود ذرة ولكن بحجم قمة أفرست. أو لنفترض وجود ضياء ولكن أشد من الظلمة الحالكة. هل لاحظتما أن الفرضين يتضمنان تناقضاً؟

- نعم. رد يقظان.

- هكذا يا يقظان كان الفرض في مثالك؛ بيضة بحجمها المعروف، لكنها تستطيع ضم الكون بحجمه المعلوم. هذا هو الفرض الذي يحوي في ذاته تناقضاً. إذن مثل هذه

---

(١) سورة هود، الآية: ٤.

الفروض باطلة لأنها تأسست على إمكانية تحقق التناقض. فهل يجب أن نعطيها قيمة؟.

- كلا. يجب ألا نلتفت لها. علقت إيمان وهي تنظر إلى يقظان.

- هنالك نوع آخر من المستحيلات، إنها المستحيلات الوقوعية.

- وما هي هذه الوقوعيات الممنوعة. قال يقظان مبتسماً.

- إنها افتراضات لا تحوي تناقضاً، ولكن تحقق الفرض يؤدي إلى وقوع التناقض. فلو أردنا أن نوجد ناراً، ولكن من الماء. إن فرض إيجاد النار ممكن، ولكن وجوده من الماء مستحيل، لأن الماء لا يكون علة لوجود النار، وهكذا فنحن نريد إيجاد أمر معلول وحادث، ولكن ليس من علته. فلو سأل أحدهم: هل يستطيع واجب الوجود أن يُفني نفسه؟ وهل يستطيع أن يُوجد شريكاً له؟ وهل يفعل الله - تعالى - القبائح؟ الحظا أن التساؤل الأول ينصب حول ما إذا كان ممكناً أن يتحول عين الوجود إلى العدم الخالص. بينما الثاني حول ما إذا كان ممكناً تواجد وحدوث واجب الوجود.

- كلا الفرضان مستحيلان. صاح يقظان.

- لماذا؟

- تحول ما ذاته وجود إلى عدم تناقض لأن العدم والوجود

يتناقضان، وحدوث واجب الوجود غير ممكن، لأن واجب الوجود عين الوجود ودائم الوجود فكيف يكون عدماً ثم يتحقق؟ أجابت إيمان بسرعة.

- الإجابة ممتازة جداً. فهما إذن فرضان يشتملان على التناقض. فهما من المستحيلات الذاتية، بينما التساؤل الثالث يشير إلى المستحيل الوقوعي.

- كيف؟ سألته إيمان

- لأن فعل القبيح مقدور لله ـ تعالى ـ . واجب الوجود قدرته إطلاقية، يمكنه أن يفعل القبيح بقدرته التامة، يقول القرآن: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[1]. ولكنه لا يفعل ذلك، لأنه ليس علة للقبيح. فصدور القبيح من واجب الوجود مستحيل وقوعي وليس مستحيلا ذاتيا.

- اشرح لنا يا سيد ماهر كيف لا يكون الله تعالى علة للقبيح؟ سأله يقظان.

- طيب. هل فكرت يوما يا يقظان، أن تغادر كوكب الأرض وتسكن في المريخ؟

- كلا. ضحك يقظان وهو يجيب.

- لماذا؟ سأجيب عنك. لأن إرادتك سوف تتعلق بما يناسب

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٧.

شأنك. وليس من شأنك أن تترك الأرض بما فيها من أهل وأقارب وأصدقاء، وسائر الظروف المهيأة للحياة، إلى وجهة مجهولة، تعيش فيها غريبا مشرداً، ولا تجد أدنى سبل العيش متحققة. أليس كذلك؟

- نعم. هكذا هو الأمر فعلاً. قال يقظان مبتسماً.

- إذن إرادتك تتناسب مع طبيعة حياتك. إرادته تعالى أيضاً، تتناسب مع علو قدسه. فهو محض الكمال، ومطلق الجمال، وما هكذا شأنه، لا يوجد القبيح، لا لضعف في قدرته، ولكن لأن إرادته تتعلق بما يتناسب مع علو شأنه وعظمة صفاته وأسماءه.

- واضح جداً يا سيد ماهر. أشكرك. علق يقظان فرحاً.

- سيد ماهر، إن قاعدة التناسب بين العلة والمعلول تفي بغرض إثبات هذا الموضوع. أليس كذلك؟ سألته إيمان.

- نعم تماماً يا إيمان. المعلول يتناسب مع علته. وذاته تعالى خير تام، فمعلوله خير، ولا تناسب بينه وبين فعل القبائح، تعالى عن ذلك.

- ولكن، الكون مملوء بالمشكلات؛ الفقر، العجز، الحروب، المجاعة، الكوارث الطبيعية، لماذا تحدث هذه الأزمات في الوقت الذي يجب أن لا تصدر لأن الله لا يريد القبيح؟ سأله يقظان مستفهماً.

- سيأتيك الجواب عند الحديث عن التوحيد في الأفعال يا

يقظان، وذلك في يوم غد إن شاء الله. إليكما الملخص:

- √ البراهين على وجود الله تعالى عديدة، أحسنها برهان الفطرة، وبرهان واجب الوجود، وبرهان الصديقين.
- √ للتوحيد مراتب أشهرها مرتبة التوحيد في الذات، والتوحيد في الصفات، والتوحيد في الأفعال، والتوحيد في العبادة.
- √ لا تجري على واجب الوجود الوحدة العددية، وإنما تنطبق عليه الوحدة الحقيقية.
- √ الأحدية تعني البساطة ونفي التركيب والكثرة.
- √ دليل التوحيد هو الإطلاق الوجودي، وهو يستقيم على قاعدة أصالة الوجود.
- √ من الصفات التي يستوجبها مقام وجوب الوجود العلم والقدرة.
- √ له تعالى علم بذاته، المساوي لعلمه بكائناته قبل الإيجاد، وهو علم فعلي وليس بانفعالي. كما أن له علم بكائناته بعد وجودها.
- √ قدرته لا توجد المستحيلات الذاتية لأنها فروض متناقضة، ولا تتعلق بالقبائح لأنها مستحيلات وقوعية لا تتعلق بها إرادته تعالى.

الفصل السابع

أهدافُ خَلْقِ العَالَمِ والنظامُ الأَحْسَنُ

ـ ١ ـ

الابتهاج الذاتيّ يضمن العناية

قام يقظان وإيمان صباح هذا اليوم، بأخذ السيد ماهر من فندقه وتوجها به إلى ولاية الرستاق.

ـ اليوم ستزور ولاية الرستاق يا سيد ماهر. إنها تبعد عن مسقط بحوالى ساعتين تقريباً. سنزور بعض مواقعها السياحية. وما هي إلا ربع ساعة، إلا وكانت سيارة يقظان قد غادرت مسقط.

ـ هذا الطريق يؤدي بنا إلى منطقة الباطنة. هذه المنطقة تضم ٨ ولايات. يقطن فيها حوالى ٢٦٧,١٤٠ نسمة.

ـ إسمح لي يا يقظان أن أسألك عن مجلس الشورى عندكم في عُمان. إن شهرته بلغت الآفاق.

ـ مجلس الشورى مؤسسة شورية منتخبة، تتمتع باستقلال إداري واستقلال مالي، ومقرها في مسقط.

ـ هل فعلاً أعضاؤها منتخبون؟ سأله السيد ماهر.

ـ بالتأكيد. الناخبون يقومون بالتصويت. هكذا يتم الانتخاب

وتتبع في ضمان نتائج الانتخاب أحدث الوسائل.

- وما اختصاصاته؟

- اختصاصاته واسعة جداً. تتعلق بالتشريع والاقتصاد والاجتماع.

- هل يتدخل المجلس في مثل هذه الأمور الحساسة؟

- يقوم مجلس الشورى بمراجعة القوانين التي تسنها الوزارات قبل أن تصبح نافذة. ويشارك المجلس في إعداد المشروعات والخطط التنموية في البلد. وتحال الموازنات العامة للدولة إلى المجلس قبل اعتمادها.

- إنه دور هائل.

- يراجع المجلس كل ذلك، ويبدي رأيه. وتوصياته تكون دائماً بعين الاعتبار .

- هناك شيء آخر. علقت إيمان.

- وما هو؟ سألها يقظان.

- المجلس له مناقشات علنية مع الوزراء تتعلق بالمسؤوليات المنوطة لوزاراتهم. المجلس يناقشهم بكل صراحة، والتلفزيون يبث المناقشة علناً ليشاهدها المواطنون. أحياناً يتعرض الوزير لبعض الإحراج بسبب شدة الشفافية في طرح الأسئلة والصراحة التامة التي يُناقش بها الوزير.

- وكيف يعرف مجلس الشورى تطلعات المواطن؟

- المجلس يمثل المواطنين يا سيد ماهر. هناك في المجلس من ممثلون لكل ولاية من ولايات السلطنة. هؤلاء الممثلون على اتصال مستمر بالناس، يطرحون تطلعاتهم واستفساراتهم على الوزراء علناً.
- أقسم إن هذا المجلس إن دل وجوده على أمر، فإنما يدل على حرص الحكومة على دمج دور المواطن مع دور الحكومة في تنمية البلد. أيها العمانيون، أنتم محظوظون.
- الحمد لله. والآن هل سنبدأ درسنا؟ إيمان.
- بكل سرور. نبدأ اليوم حديثنا عن التوحيد في الأفعال. وأمامنا جدول حافل بالأحاديث الهامة.
- ومن أين ستبدأ؟ سألته إيمان.
- سأبدأ بالحديث عن غرض الفاعل الإلهي في إيجادِهِ لفعله.
- وما معنى الفاعل الإلهي؟ سأله يقظان.
- الفاعل الإلهي مصطلح يطلق على واجب الوجود من حيث هو فاعل.
- فهمت. رد يقظان.
- هل تحبان نفسيكما؟ سألهما السيد ماهر.
- نعم. رد يقظان متردداً ومبتسماً.
- هذا حب فطري في الإنسان. علقت إيمان.
- وتحبان أفعالكما الجميلة؟ سألهما السيد ماهر مجدداً.

- بالتأكيد نعم. رد يقظان.

- إنكما تلحظان في عملكما الجميل نفسيكما، لأن العمل صنيع النفس ودليل يدل عليها.

- نعم صحيح. علقت إيمان.

- وهل واجب **الوجود** أيضاً يحب ذاته؟

- يا إلهي.. سؤال لم أفكر فيه من قبل. علقت إيمان.

- بالتأكيد نعم يا إيمان. أوليس هو حاضنا لكل جمال وكمال؟

- بلى. ردت إيمان.

- فلماذا إذن لا يكون لديه حب لذاته المقدسة؟ إن عدم حبه لذاته المقدسة لا يخلو أن يكون إما، لأن ذاته ليس فيها ما يدعو إلى المحبة والابتهاج، وإما، لأنه لا علم له بكمال ذاته الإطلاقي.

- الاحتمالان باطلان. صاح يقظان.

- أحسنت. الأول باطل، لأن واجب **الوجود**، يحوي كل كمال وكل جمال، لأن الكمال والجمال من مستلزمات **الوجود**، ويتقومان بـ **الوجود** وليس بالعدم. والاحتمال الآخر باطل كذلك، فهو تعالى عالم وهذه من أخص صفات الله تعالى الذاتية.

- ما معنى الذاتية؟ سألته إيمان.

- الصفات الذاتية هي التي يثبتها العقل لله تعالى لأنها من مستلزمات مقام وجوب الوجود.

- فهمت. ردت إيمان فرحة.

- إذن، واجب الوجود مبتهج بذاته، محب لها، لأنه عالم بها. الشيخ الرئيس ابن سينا صاغ ذلك في هذه الجملة: هو تعالى، أعظم عاشق، لأعظم معشوق، بأعظم عشق.

- فهمت مغزى كلامه، إنه يقصد أن ذات واجب الوجود، ولأنه أعظم موجود، فهو أعظم عاشق. ولأن ذاته أعظم ذات، فهي أعظم معشوق، ولأن صفاته عين ذاته، فهي صفات كمالية غير محدودة، فهو إذن، يعشق ذاته بأعظم عشق. علقت إيمان.

- رائع يا إيمان. أحسنت. وإذا كان الأمر كذلك، فسوف يسري هذا الحب إلى فعله.

- لماذا؟ سأله يقظان.

- لأن فعله تعالى فعل لذاته، وأثر لحقيقته المطلقة. إضافة إلى هذا، ففعله كامل، لأن أثر الكامل يكون كمالاً. من هنا، يستنتج المحققون مسألتين هامتين جداً، هما: العناية، والنظام الأحسن.

- هل يمكنك تقديم مزيد من التوضيح؟ سأله يقظان.

- بما أن فعله تعالى محبوب له، ففعله تحت عنايته تعالى. لنفترض أن الخالق غير محب لفعله، فإن ذلك سيكون

لأسباب منها: ان فعله لا يكون أثراً لذاته، ويفتقد إلى مواصفات الدقة والكمال. والاحتمال الآخر: ان علمه لا يحيط بجهات الخير والكمال والجمال في فعله. ما رأيكما بالفرضين المارين؟

- لا يمكن قبولهما. فعله صادر عن ذاته الكاملة، فهو يحوي سائر جهات الكمال والدقة والجمال والإبداع. وله تعالى علم تفصيلي به. علقت إيمان.

- فإذن، فعله تعالى محبوب له.

- حتماً. علق يقظان.

- فإذا كان فعله محبوبا إليه، ومع ذلك، لم يعتن بشأنه الفاعل الإلهي، بل أهمله، فهل ثمة سبب يجعله يفعل ذلك؟

- كلا. علق يقظان.

- إذن، عنايته تعالى بفعله ثابتة ولا مجال لنقضها وإنكارها.

ـ ٢ ـ

النظام الأحسن

- هذا على المستوى النظري. ولكن الذي نشاهده ليس كذلك يا سيد ماهر. هل نسيت سؤالي السابق؟ إننا نشاهد العديد من مظاهر البؤس والشقاء في العالم. فمن أين جاءت إذن؟

- الجواب على وشك الظهور. دعني يا يقظان أقم أولاً بتثبيت المقدمات حتى لا نغفل عنها. التفتا الآن إلى هذا الفرض: الفاعل الإلهي يريد إيجاد العالم، وأمامه عدة فروض، الأول: أن يوجد العالم على أحسن نظام، والثاني: أن يوجده على نظام حسن، ولكن ليس بالأحسن، والثالث: أن يوجده وفقاً لنظام يفقد كل حسن. فماذا سيختار ولماذا؟

- سيختار الأحسن. علق يقظان.

- لأنه كامل، وفعله مثله، ولأن إرادته تتناسب وكماله وعظمته. فليس صحيحاً أن يختار إلا الأحسن. علقت إيمان.

- أشكركما. هكذا هو الأمر فعلاً. عقلنا يعجز عن تفسير اختيار الفاعل الإلهي لغير الأحسن. إذن العالم مخلوق وفقاً للنظام الأحسن. يقول القرآن: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[1]، ويقول: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[2].

- ولكن الواقع الخارجي لا يقول ذلك يا سيد ماهر. علق يقظان.

- لنفهم أولاً مقصدنا من الأحسن. لو أن والداً أراد أن يكون ولده الصغير السن ذا علم جم. فهل سيقوم الوالد بتسجيل ابنه في إحدى كبرى جامعات العالم لأن العلوم بأعلى مستوياتها تدرس في الجامعات، أم إن ضعف مقدرة الولد العقلية لصغر سنه من جهة، وحرص والده على أن يتعلم ولده تدريجياً بحيث يتناسب وطبيعته البشرية، وكما تقتضيه إمكانيات الإنسان الطبيعية، من جهة أخرى، سيجعل الوالد يسجله في واحدة من أفضل وأحسن مدارس تعليم الأطفال؟

- بالطبع الخيار الثاني هو الأحسن. علق يقظان مجيباً.

- إذن مفهوم الأحسن هنا تغير وأصبح متوافقاً مع الغرض والغاية من دخول الولد إلى المدرسة. يعني أن الأحسن لم يكن المقصود به الأحسن مطلقاً، وإنما كان المقصود به

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٧.

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٨.

الأحسن بحسب احتياجات الطفل من التعليم. الأمر ذاته هنا وتماماً بلا فوارق. الفاعل الإلهي يوجد العالم وفقاً لأحسن نظام ممكن. ولكن هل هو الأحسن مطلقاً، أم الأحسن لتحقيق غاية العالم وغرض وجوده؟ إن على الفاعل الإلهي أن يراعي غرض خلقه للعالم، وبالتالي، فإن النظام الأحسن سيكون هو ذاك الذي سيجد العالم في ظله طريقه إلى غايته. لصدر المتألهين كلام في هذا الصدد يقول إن حكمته تعالى هي إيجاد الموجودات على أحكم وجه وأتقنه، بحيث يترتب عليها المنافع ويندفع عنها المضار. ولذلك قالوا بأنه ليس بالإمكان أحسن مما كان.

- مفهوم تماماً يا سيد ماهر. بيان رائع ومقنع للغاية. ولكن هل سنتحدث عن غرض وجود العالم؟ سأله يقظان.

- بالتأكيد سنفعل.

ـ ٣ ـ

غاية العالم وهدفه النهائي

ـ ترى لماذا أوجد الفاعل الإلهي هذا العالم؟ لدينا فرضان، أحدهما هو الصحيح، والآخر لا يمكن قبوله.

ـ وما هما؟ سأله يقظان بكل شغف.

ـ الأول، يتمثل في النظرية التي تقول بأن الله تعالى قد أوجد العالم، لأجل أن يسوقه إلى الخير، وأن يغدق عليه النعم المختلفة، ويوفر له سعادته التي تتحقق في ظل تأمين مصالح البشر وغير البشر من الكائنات.

ـ كلام معقول. علق يقظان.

ـ والفرض الآخر هو، أن العالم وجد لأجل واجب الوجود. يعني أن واجب الوجود قد أوجد العالم لأجل أن يعرف العالمُ الواجبَ، لأجل أن يعرف العالمُ خالقَه ومبدعه، ويسعى للتقرب منه والتشبه به، وفي ذلك تكمن سعادته. ما رأيكما؟.

بدت على إيمان ويقظان علامات الحيرة واستغرقا في تفكير عميق.

- وهنا قال السيد ماهر: لا بأس عليكما. لنقم بتحليل الفرضين المذكورين.

- نعم لنفعل. علقت إيمان.

- الفرض الأول يعبر عن وجهة نظر العديد من علماء الكلام، بينما يعبر الفرض الآخر عن وجهة نظر الفلاسفة. الفلاسفة يوجهون نقدهم إلى المتكلمين على أساس أن نظرية المتكلمين مؤداها، سريان تأثير الغير في ذات واجب الوجود. واجب الوجود، بحسب نظرية علماء الكلام، سيغدو تحت هيمنة غيره، إلى درجة سيفكر بها في إيجاده، وإغداق النعم المختلفة عليه. وما ذلك الغير إلا الكون بكائناته. يرى الفلاسفة إن هذا أمر مستحيل التحقق. لا يمكن أن يكون هناك موجود يمكنه أن يفرض هيمنته على واجب الوجود بهذه الطريقة.

- ولماذا الهيمنة؟ لا داعي لفرضها أصلاً يا سيد ماهر. يمكننا القول إن الله تعالى هو الذي أحب أن يوجد الكون ويسوقه إلى الكمال. ما المانع في ذلك؟ سألته إيمان متعجبة.

- هل أحب الكون، بوصفه كونا، وأحب الكائنات، بصفتها كائنات، أم أحبها بوصفها فعله الدال على كمال ذاته وعلو شأنه؟

- ترددت إيمان قليلاً ثم قالت: الفرض الثاني هو الصحيح.

- إذن لقد اخترت نظرية الفلاسفة يا إيمان.

- كيف؟ سألته مستغربة.

- لأنه أحب فعله، لحبه لذاته، على أساس أن الفعل فعل الذات. وبالتالي فلم يكن تحت تأثير غيره عندما أوجد ذلك الغير. هل فهمت ما أعني؟

- أه.. نعم. فهمت. ولكن لا يبدو لي الفرق بين الرأيين. علقت إيمان.

- الفرق موجود. الفلاسفة يقولون لعلماء الكلام: نعم يجوز أن يوجد الله الكون لكي يسوقه إلى الكمال، ولكن على أساس أن هذا الفعل محبوب له لا لأجل أن الكون محبوب له بنحو استقلالي. بل الكون محبوب له لأنه فعله، فهو تعالى أساساً محب لفعله لحبه لذاته. فذاته تعالى هي المنظور إليها أصلاً عندما أراد إيجاد الفعل.

- فإذن، لماذا خلق الله العالم، وما غرض العالم من وجوده؟ أعاد يقظان سؤاله مجدداً.

- الحكمة المتعالية ترى أن العلة الفاعلية والعلة الغائية للكون واحدة.

- ما معنى ذلك؟

- العلة الفاعلية، هي القوة الموجدة للكون، وهو الله. والعلة الغائية يعني الغرض الذي وجد لأجله الكون، والموجد والغاية واحد بحسب الحكمة المتعالية. المبدأ والمنتهى هو الله.

- كيف؟ سأله يقظان.

- أوجد الكون لأن الكون مظهر لذاته، باعتباره فعلَه. الفعل يُظهر كمال الذات، ويتناسب مع شأن الذات كما علمتما. لقد أحب إيجاد فعله الذي هو أثر لذاته المتعالية. حبه لذاته المتعالية هو العامل المحرك الوحيد للفاعل الإلهي لكي يوجد أثره، ومن المستحيل فرض أمر آخر غير هذا. فإذن، أوجد فعله، وهو يريد أن يسوقه إلى الكمال، ولا كمال إلا كماله هو، فالنتيجة هي أن الكون وجد للوصول إلى الله.

- ما معنى الوصول إلى الله؟

- معناه معرفته تعالى، والتقرب منه.

ـ ٤ ـ

المطلوب أساساً والمطلوب عرضاً

- ولكن، هل يستطيع الكون أن يصل إلى تلك الغاية؟

- لأوضح لكما أمرا غاية في الأهمية. لقد أرادت وزارة التربية والتعليم أن تعلم الشعب العماني وتثقفه، لكي يستطيع أفراد الشعب أن يحققوا خطط البلد وأهدافه. فالغاية القصوى هي جعل البلد في مصاف كبرى البلدان الحضارية. والغاية المتوسطة هي إيجاد المدارس والمعاهد والجامعات. ويعد جلب المعلمين والمعلمات من الخارج، أيضاً غاية متوسطة، لأنها تصب في تحقيق الغاية الكبرى .

- نعم صحيح. علق يقظان.

- ولكن ليس من الإمكان إيجاد المدارس والمعاهد إلا عبر توفير شروط هائلة عديدة جداً، من قبيل، شراء الأراضي التي ستقام عليها المعاهد، والتعاقد مع شركات البناء والمقاولات، ثم الاتفاق مع الموردين لجلب المعدات واللوازم التعليمية الضرورية.

- صحيح. علقت إيمان.

- فلو زرنا اليوم مدرسة، فسوف نلحظ عند تجوالنا فيها، العديد من الأشياء، من لوحات، ومقاعد الدراسة، وغرف التعليم، والمختبرات، وحتى الجرس الذي يعلن عن بداية الوقت ونهايته أيضاً موجود. ولنتساءل: هل هذه الأشياء العديدة مطلوبة للوزارة بالذات، أم كانت مطلوبة بالعرض؟

- ما معنى المطلوب بالذات والمطلوب بالعرض؟

- المطلوب بالذات هو الغاية القصوى والهدف النهائي، والمطلوب بالعرض هو الذي نريده لأجل الغاية الأساسية. يعني أن رغبتنا قد تعلقت به لأجل غاية أخرى. فهو وسيلة وليس مطلوباً لأجل ذاته.

- فهمت. علقت إيمان واستطردت: بالطبع، كل تلك اللوازم ليست هي بذاتها مطلوبة.

- لقد ذكرت في كلامك لفظ اللوازم. يعني أن هذه الأمور على كثرتها من لوازم التعليم. يعني أن صلتها بالهدف الأساسي صلة اللزوم، وإلا فإن التعليم لن يتحقق. أليس كذلك؟

- بلى. أجابت إيمان.

- وفي ختام المرحلة الدراسية المدرسية، حقق عدة أفراد فقط النسبة المؤهلة لدخول الجامعة، فلو مسكت بيد أحدهم وقلت: هذا الطالب هو الغاية التي أرادت وزارة

التربية والتعليم إيجاده، من خلال كل ما بذلته من جهود بناء المدارس وتوفير التعليم. هل سأكون مخطئاً أم أكون مصيباً فيما زعمت؟

سكتا قليلا.. ثم نطق يقظان قائلا:

- تكون مصيباً يا سيد ماهر.

- مصيبا جداً. علقت إيمان.

- وإذن، من هو الكائن الذي يستطيع الاستفادة من نعم الكون، ويصل إلى أقصى درجة من درجات معرفة الله والتقرب منه؟

- الإنسان؟ سأله يقظان متردداً.

- بالتأكيد. فالإنسان هو الغرض من وجود الكون، والكون من مستلزمات الغاية النهائية التي هي معرفة الله تعالى. إن قطيع الخرفان الذي يمشي في السهول، والعدد الهائل من الأحياء الساكنة أعماق البحار، والمجرات المذهلة في متاهات الفضاء، كل هذه الأشياء قد تعلقت بها الإرادة الإلهية بالعرض. أما متعلق الإرادة بالذات فهو الكائن الذي يستطيع تحقيق الغاية النهائية، وهي معرفته وكسب قربه تعالى.

- مذهل حقاً. قالت إيمان.

- كل هذا الكون على اتساعه، قد وجد لأجل الإنسان؟ سأل يقظان مندهشاً.

- نعم لكي يستطيع الإنسان أن يحقق الغرض النهائي. القرآن يؤيد ذلك أيضا.

- كيف؟ أين؟ سألته إيمان مندهشة.

- تـــأمـــلـــي الآيـــة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[1].

- يا إلهي.. فعلاً. مع أني قرأت هذه الآية مراراً، لكن يبدو وكأني أسمعها لأول مرة. إيمان.

- سنلقي مزيداً من الأضواء على هذه النقطة في موضوعنا الأخير عن الإنسان الكامل وحتمية الوحي.

- لقد قرأت أن ستيفن هوكنج كان قد صرح أن نظرية الانفجار العظيم، بالنتيجة تنتهي إلى تقوية نظرية المبدأ الإنساني، والذي تنص على أن غرض وجود الكون بهذه الطريقة هو انبثاق الكائن الواعي، والذي يتمثل في الإنسان. قالت إيمان.

- التحقيقات العلمية هذه الأيام أصبحت تتماشى مع التفكير الفلسفي. علق يقظان.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

\- ٥ -

كيف يتم وضع الشيء في موضعه المناسب؟

\- ولأجل أن تطمئن وتتأكد يا يقظان من أن الخطأ والاشتباه والفعل الجزافي لم يتمكن من أن يتسلل إلى الكون أبداً، لأعرفكما بمعنى الحكمة.

\- مهلاً يا سيد ماهر، هل لك الرجوع إلى نقطة النظام الأحسن مجدداً وتوضح المعنى منه؟ سألته إيمان.

\- طيب يا إيمان. لقد توضح الآن معنى النظام الأحسن. الكون وجد وفقاً للنظام الأحسن. والأحسن هنا سيكون ذلك النظام الذي سيؤهل الإنسان لبلوغ غايته وهي معرفته تعالى. وسوف أوضح موقع ظاهرة الشرور من خلق العالم. لأتحدث قليلاً عن الحكمة.

\- تفضل يا سيد ماهر. علقت إيمان.

\- الحكمة من صفات الخالق. قال تعالى ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]. فما معنى «الحكمة»؟.

- وضع الشيء في موضعه الصحيح؟ أجاب يقظان مستفهماً.

- حسن التصرف؟ أجابت إيمان كذلك.

- هما معاً. حسن التصرف ليس إلا وضع الشيء في موضعه الصحيح. هذه هي الحكمة. ولكنها تتطلب شروطاً. أعني أن الفاعل، لكي يتصف بالحكمة، فيحسن التصرف بوضع كل شيء في موضعه الصحيح، يجب أن يتزود بأمور معرفية ثلاثة. أولاً: أن يعرف الشيء المرادَ وضعُه في الموضع الصحيح. افترضي يا إيمان أن أحدهم وضع بين يديك شيئا لم تعرفيه، وطلب منك أن تضعيه في المكان المناسب في المنزل، فكيف ستتصرفين؟.

- سيكون ذلك صعباً جداً. علقت إيمان.

- لأنك تجهلين ما هو هذا الشيء. أهو مما يوضع في البراد، أم يوضع في المكتبة مع الكتب، أم أن مكانه المخزن، أم في غرفة النوم؟ إذن، تتألف الحكمة أولاً وقبل كل شيء من معرفة الشيء المرادِ وضعُه في الموضع الصحيح.

- فعلاً. علقت إيمان.

- الفاعل الإلهي يوجد الشيء عن علم تفصيلي بسائر

---

(١) سورة النمل، الآية: ٩.

مكنوناته، وله قدرة مطلقة لا حد ولا نهاية لها. فهل من المتوقع أن يجهل طريقة صنع ذلك الشيء، أو أن ينسى أمراً هاماً، أو أن يفلت من يده شيء من غير قصد؟

- مستحيل. علق يقظان.

- الأمر الآخر الذي تتألف منه الحكمة، هو معرفة مكان وضع الشيء بدقة. افترض يا يقظان أنك تود أن تساهم بمبلغ من المال لأجل عائلات ضحايا طوفان آسيا، ولكنك تجهل طريقة إيصاله لهم، فماذا سيحدث عندئذ؟ الذي سيحدث هو أن عملك لن يتم.

- فعلاً.

- الخالق خالق للمكان أيضاً، بل خالق لكل شيء على الإطلاق، بحيث إنه لا يوجد في الوجود ذرة تمكنت من الإفلات من صنع يده، وحتماً سيعرف ما يناسب كل شيء من موضع. لن يضع حوافر الخيول في أقدام البعوض، ولن يعطي للأسود أنامل الفتيات. لا سبيل إلى سريان الخطأ في فعله.

- واضح جداً.

- الأمر الأخير الذي تتألف منه الحكمة هو معرفة كيفية الوضع. لنفترض يا إيمان أنك رتبت مكتبة المنزل، ولكنك وضعت الكتب رأساً على عقب. هل سيتصف عملك هذا بالإتقان؟

- كلا. ابتسمت إيمان وهي ترد.

- وهل نتوقع أن هذا الشرط غير وارد في علم الخالق؟

- كلا. علق يقظان.

- من هنا يصف العقل صانع الكون بالحكيم، لأنه يعلم بالكون تفصيلاً، ويعلم أين وكيف ومتى يوجد كائنات هذا الوجود، فضلاً عن سعة سلطنته وشدة هيمنته القاهرة التي ذل تجاهها كل شيء. نريد بذلك أن نتأكد كلياً بأن تسلل الخطأ في فعل صانع الكون، أو في صنعه مستحيل.

ـ ٦ ـ

لنبحث عن الشرور بمنظار مكبر: أين هي؟

- أرجوك يا سيد ماهر، أوضح لي منشأ الشرور في الكون حتى لا أجد أن العلم النظري لا يتفق مع ما هو كائن في الواقع. سأله يقظان.

- عندما نريد أن نتحدث عن البلايا والمصائب التي نراها مبثوثة في أرجاء المعمورة، فإن حديثنا سيكون على صعيدين اثنين. أولها: تحديد مصدر الشرور، والثاني: تفسير وجود الشرور. ويلزمنا قبل التحدث عن الأمرين المارين، تحديد المعني به من كلمة الشرور.

- جيد. لنبدأ إذن. علقت إيمان.

- بكلمة موجزة، يبدو أن البشر والحيوان يطلقون على كل أمر يضرهم شرا. فالدجاج يحسب الإنسان شرا أيضاً لأن ضرراً يصل من يده إليها. منذ أول عهد الإنسان بالحياة، لحظ أن ثمة أمورا نافعة جداً له، تجلب له الخير

والمنفعة، وأموراً أخرى في المقابل تسلب منه هذا الخير، وتؤدي به إلى الضرر. فالأمطار تهطل لتحيي الأرض وتسقي الغرس، ولكنها قد تلحق ببعض الناس شيئا من الضرر، فتعد من وجهة نظرهم شراً. فالقاعدة التي نستطيع وفقها تفسير معنى الشر لدينا نحن البشر، هي هذه: كل ما يؤدي إلى تضررنا، بأن يسلب عنا نعمة، أو يزيل عنا خيراً، فهو شر بالنسبة لنا، وإن عده غيرنا نفعاً. هل أنتما متفقان معي؟

- إنني لا زلت أفكر في كلامك يا سيد ماهر. رد يقظان متأملاً.

- لنستمر، فربما تستوضح الأمور بعد قليل. علقت إيمان.

- جيد. من الذي يقول بأن وجود العقرب شر؟ الوجود خير. بنعمة الوجود ينال الموجود الحياة، والقدرة، واللذة. منحة الوجود أعطت العقرب الحياة، وأعطته القدرة، وأعطته اللذة. ولكن أصبح وجوده شراً، إذا بلغ ضرر العقرب الإنسان. لدغة العقرب، التي أساساً وجدت فيه لكي ينتفع منها ويدافع بها عن نفسه، إذا بلغت الإنسان، أفقدته حياته، وهكذا عد العقرب شراً للإنسان لهذا السبب، وإلا، فهو في وجوده، وباستقلال عن علاقته بالإنسان، يعد لنفسه خيراً.

- لم أفكر بهذه الطريقة من قبل. علق يقظان.

- هل يمكنكما أن تشيرا إلى موجود يمكن عده شرا محضا

لا خير فيه على الإطلاق؟ أعني باستقلال عن علاقته بالإنسان؟

- ربما لا يكون موجوداً بهذا الوصف.

- سوف نرجع إلى هذا الموضوع. لنتأمل الشر لأجل اكتشاف مصدره. ما الشر؟ أليس هو فقدا؟ فقد الحياة، أو إحدى نعم الحياة، كالصحة، كالأمن، كالمال، كالعائلة؟

- نعم. الشر فقدان النعم. أجابت إيمان.

- بعض النعم إذا زادت عن حدها أصبحت شراً، لأنها إما ستؤدي إلى إلحاق ضرر بصاحبها أو بغيره.

- كيف؟ سأله يقظان.

- إذا زادت نعمة المال لدى أحدهم إلى حد فاحش جداً، فسوف تثقل كاهله بمسؤوليات وتزيده تعباً ومشقة. وهذا الأمر بحد ذاته منغص للعيش ويجلب الضرر. المهم أن الشر توأم الفقد. والآن لنحقق في الفقد. سوف نجد أن حقيقته تكمن في العدم.

- كيف؟ سألته إيمان.

- الفقد هو زوال الشيء. زوال الشيء من مراتب عدم وجود الشيء. بالزوال لا يتحقق الوجود، وإنما يتحقق عدم الوجود.

- فعلاً. علق يقظان.

- والعدم، ليس بشيء. وما ليس بشيء لا يحتاج إلى مبدأ يوجده.

- كيف؟ سألت إيمان مجدداً.

- لأنه ليس بشيء يا إيمان. لو طلبت منك أن تقومي وتوجدي لي العدم، فهل تستطيعين؟ بالطبع كلا، لأن العدم لا يوجد، لا أحد يصنع العدم. العدم لا يحتاج إلى خالق يخلقه. العدم فناء وزوال ولا شيء. إن الذي يحتاج إلى صانع يصنعه هو الأمر المتحقق. فقد الحياة، أو فقد إحدى نعم الحياة، ليس أمورا وجودية، إنها أمور عدمية، وبالتالي لا تحتاج إلى موجد.

- فكيف تحدث إذن؟ سأله يقظان متعجباً.

- إننا نعيش في عالم التزاحم. عالم التزاحم يعني أن الأسباب والمسببات تزاحم بعضها البعض في الوجود. الجوع يتواجد لمدة محدودة، وما يلبث إلا أن يزول بمجرد أن نأكل شيئاً. الجراثيم تريد العيش، ولكن عيشها يضر بعيش الإنسان، لذا يعمل الإنسان لأجل القضاء عليها كلها. وهكذا هي الحياة في هذا العالم. علاقات الأشياء بعضها ببعض، كما تؤدي إلى تواجد نعمة، تؤدي إلى زوالها. غير أن التواجد محتاج إلى مبدأ وموجد، والزوال يقع بسبب تزاحم الأسباب والمسببات.

- هل تريد القول إن الله يوجد النعم، ولكن لا يزيلها؟ سأله يقظان.

- الله خالق الأشياء. العدم ليس بشيء، لذا لا يحتاج إلى خالق. ولكن الزوال، ولأنه يحدث بتواجد أسبابه، وتواجد الأسباب يرجع إلى خلقه، عاد الكل إلى الله تعالى.

- أضرب لنا مثالاً توضيحياً يا سيد ماهر لو سمحت؟ طلبت منه إيمان ذلك.

- منح الله شخصاً الصحة يعني أنه تعالى خلق فيه القوة، والقدرة على الإتيان بأعماله، واستخدام أجهزته البدنية. وخلق الله الجرثومة التي تسببت في إصابة ذلك الشخص السليم بعاهة ما في بدنه. بفعل العاهة، زال شيء من القدرة والصحة. الإزالة لم يكن فعله تعالى، وإنما فعله كان خلق الجرثومة التي أنتجت العاهة.

- هذه طريقة ذكية جداً للتملص من حمل مسؤولية الشرور يا سيد ماهر. اعترف بدهاء وذكاء المبتكر لهذا الحل. في الواقع إنه يغلف الشرور. إنه يريدنا أن نتعايش مع الشرور دون أن نحس بأنها شرور. علق يقظان ضاحكاً.

- هذا الذكاء هو ذكاء فلاسفة الإسلام. هم الذين ابتكروا هذا الحل، بعد أن شخصوا الشر فوجدوه أمراً عدمياً لا يحتاج إلى صنع صانع. إنهم بحلهم هذا نقضوا تماما الاعتقاد بأن الله تعالى خالق للشر. أو الاعتقاد بأن للوجود موجدين، أحدهما موجد خير، وهو الله، والآخر موجد شرير، وهو الشيطان، وسائر الشرور راجعة إلى الشيطان الذي يخلقها ويوجدها.

- الحل ناجع لرد مثل هذه الاعتقادات، ولكن، لا أراه يعالج اشكال الشرور كلياً يا سيد ماهر. لا يزال السؤال قائما، لماذا لم يخلق الله عالماً يخلو كلياً من الشرور؟ إيمان.

- أحسنت يا إيمان. ها أنت الآن تودين جر الحديث إلى مستواه الثاني. ذكرت في المقدمة بأننا سنتناول الحديث على صعيدين، وقد أنهينا الأول، إذ تبين لنا أن الوجود كله خير، ولا يوجد شر مخلوق ولا موجود. وتبين لنا أن الشرور نسبية جداً وظاهرة عدمية لا تحتاج إلى صانع يصنعها. وتبين لنا أن نظام هذا العالم نظام تزاحمي، ويؤدي إلى فقدان النعم لأن كل الموجودات تريد أن توجد، في الوقت الذي لا تسمح لها علاقاتها مع بعضها بالتواجد الدائم. وبقي الجانب الثاني من الموضوع، وهو: لم لا يصنع الخالق، عالماً لا أثر للشر النسبي فيه؟ لماذا لم يوجد عالم يستطيع الكل أن يعيش فيه مسالماً، دون أن تكون بينهم علاقات متبادلة تؤدي إلى زوال النعم؟ لماذا كان يتوجب من تحرك الأرض أسفل البحر، أن تثور المياه إلى الأعلى مسببة طوفاناً هائجاً؟ ولماذا كان يجب أن يبتلع هذا الطوفان الآلاف من البشر الأبرياء؟ لقد كان بإمكان الخالق أن يحرك الأرض، ويمنع ثوران المياه، أو أن يجعلها تثور دون أن تصل إلى البر فتؤذي البشر، ولكنه لم يفعل، فلماذا؟ هذا هو السؤال، أليس كذلك؟

- نعم بربك هذا هو السؤال. صاح يقظان.

- لنقم أولاً بتشخيص كمية الشر في الكون، وبعد ذلك لنشخص حجم تضرر الكون منه، وأخيراً، لنكتشف المنافع المترتبة عليه.

- المنافع المترتبة على وجود الشر؟ هل هذا معقول؟ سأل يقظان مندهشاً.

- وكيف نستطيع تشخيص حجم الشر في الكون؟ سألته إيمان مستغربة.

- لدي الطريقة. أجاب السيد ماهر مبتسماً.

- هات ما عندك يا سيد ماهر. لنرى مدى قوته في إزالة الإشكال. صاح يقظان.

ـ ٧ ـ

مرة أخرى... الشرور تحت المجهر

ـ النظام القائم أيها العزيزان، لا يخلو من أن يكون إما خيراً محضاً، أو خيراً كثيراً وشراً قليلاً، أو خيراً يعادل الشر، أو شراً كثيراً وخيراً قليلاً، أو شراً محضاً. إنني أدعي بأن الأخيرات الثلاثة لا وجود لها.

ـ على أي أساس؟ سأله يقظان.

ـ على أساس أن المرجح الذي يرجح اختيار الشر المحض، أو الشر الكثير، أو الشر المساوي للخير، لا وجود له.

ـ لماذا لا وجود له؟ سألته إيمان.

ـ هل نسيتما بهذه السرعة؟ الخالق خير محض وكمال لا نهائي، وإرادته تتناسب مع شأنه، فكيف سترجح الشر المحض أو الشر الكثير، أو حتى الشر المساوي للخير؟

ـ فعلاً. ولكنها لم تقم بترجيح الخير المحض أيضاً يا سيد ماهر، فلماذا؟ سألته إيمان.

ـ لا بد، أن ذلك لم يكن ليناسب غرض الخلق وهدف

الوجود. هل تتذكران موضوع النظام الأحسن؟ إن الأحسن هو ذاك النظام الذي يؤهلنا لبلوغ غايتنا.

- تقصد أن الله تعالى رجح الخير الكثير مع شر قليل، لأن ذلك هو ما يناسب غرض وجود الإنسان؟ ولكن الغرض هو معرفته وبلوغ الكمال فكيف سينفعنا نظام سرى فيه شيء من الشر؟

- إذن أنتما متفقان أن الشر المحض، أو الشر الكثير، مما لا سبيل له باتجاه العالم. هكذا نكون قد حددنا كمية الشر الموجود في أرجاء العالم. لنقم الآن بتشخيص حجم تضرر الكون من هذا الشر القليل.

- وكيف سنفعل ذلك؟ هل سنطلب لوائح ضحايا الأعاصير والزلازل والمنكوبين في البراكين والفيضانات؟ سأله يقظان.

- لسنا بحاجة إلى كل ذلك. إن لدينا افتراضات ثلاثة؛ الأول: إن هذا الكون متضرر من وجود نسبة الشر فيه، بالمستوى الذي تتعطل به الغاية من وجوده. والافتراض الثاني: إن الشر المبثوث في أرجاء الكون، وإن كان قليلاً بالمقارنة مع الخير، لكنه لا يؤدي إلى تضرر الغاية من وجوده، وإن كان لا يساعد على تحقيقها. والافتراض الأخير: إن الكون يحوي كمية قليلة من الشر ضرورية لتساعد الكون على بلوغ غاياته وأغراضه. الافتراض الأول غير مقبول عقلاً، ويمنعنا من قبوله إيماننا باستحالة اجتماع

النقيضين. إذ لو كان الفاعل الإلهي قد أوجد الكون لأجل غاية ما، ثم عبأه بكمية قليلة من الشر، ولكنها كافية لإلحاق الضرر في نظامه الأحسن، وتحويله إلى سيّىء، أو إلحاق الضرر بغرض الخلق وإبطالها، فيصبح الخلق بلا غاية، ويساوي وجوده وجود العبث، لكان هذا التصرف مخالفا لإرادته ـ تعالى ـ ، ولمحبته لفعله، ولقاعدة العناية التي تسري في كل الفعل الإلهي. لا سبيل للعبث لأن يتواجد في عمله. هلا تأملتما هذه الآية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾[1]، وهذه الآية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ﴾[2].

ـ فعلاً. لا يمكن فرض ذلك من الأساس. علقت إيمان.

ـ الفرض الآخر أيضاً غير مقبول عقلاً. لأن اختيار الشر الذي لا نفع فيه ترجيح بلا مرجح. إذ ما هو العامل الذي يستند عليه الفعل الإلهي لاختيار هذا الشر وجعله سارياً في الكون؟ إن مثل هذا العامل منتف كلياً.

ـ فعلا يا سيد ماهر. الأمر واضح جداً. علقت إيمان مجدداً.

ـ بقي الافتراض الأخير فقط، الذي لا يجد العقل مفراً من قبوله. إن هذه الكمية القليلة من الشر، تشبه حقن الأطفال ببعض الميكروبات المريضة والضعيفة، حتى يقوى جهاز

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٣.

المناعة فيهم بمحاولة التغلب عليها وطردها خارج الجسم. من الذي قال إن علمنا قد أحاط بكل شيء، حتى بتنا نعرف أنه لا توجد مصالح عظمى مترتبة على ثوران بركان ما في مكان ما في هذا العالم، وإن كان ذلك قد سبب في نزوح الناس من بيوتهم؟ ومن الذي يستطيع القول بكل تأكيد، عن علم ومعرفة، إن مأساة تسونامي فارغة تماماً من كل خير، وأنها شر محض ولا يحيط بها أي خير متصور؟ لعل التبادل الذي جرى بين قطعتي الأرض في ذلك البحر، مؤداه استقرار الأرض هناك لعدة ملايين أخرى من السنين؟ فما هو الأنسب في الاختيار؟ منح البلايين من البشر مكاناً للعيش، ولبضع ملايين من السنين، بإفناء عدة آلاف منهم لمرة واحدة، أم إبقاء هؤلاء، وتعطيل المنحة لحياة أجيال وأجيال من البشر في ذلك المكان؟

- ولكن، لماذا يجب أن يدور الأمر بين خير أو شر؟ سألته إيمان.

- لم يكن شراً لأحد. أولئك الذين ابتلعتهم الأمواج العارمة إلى أعماقها، لم يبلغوا العدم، وإنما بلغوا الحياة الأخروية التي تنتظرنا. ومن المحتم أنهم سيجدون تعويضاً لا يوصف، لأن الإرادة الإلهية توجد العالم للكمال وليس للشر أو العذاب. ثم، لا تنسيا دور المصائب والبلايا في ربطنا بغرض وجودنا. أعني توعيتنا بالله تعالى وبضرورة

تذكره والارتباط به وطلب العون منه. أكنا نذكره ونسأله العون، إن كان نظام هذا العالم خيراً محضاً؟ لو ولد الطفل من بطن أمه، مزوداً بعلم وقدرة كافيتين لأن يقوم بنفسه بكافة مستلزماته، أكان يبذل لوالديه شكراً؟

- إنك تعني أن الشر القليل، يساعدنا على الارتباط بالله، الذي هو الغاية النهائية من وجودنا. ولولا هذا الشر القليل، ما أمكننا أن نرتبط به؟ علقت إيمان مستفهمة.

- بلى مع العلم أن هذا الشر القليل، غير خال من الخير. عند البلية، إذا لجأنا إلى الله، فذلك الشر القليل منحنا الخير الكثير. وبالموت، لا نزول ونسقط في ظلمة العدم، وإنما نتحول إلى حياة أرحب.

- هل تمانع إن سألتك يا سيد ماهر، لماذا لم يزودنا عندما خلقنا، بمعرفته لا تخبو مع الأيام أبداً، ويعطينا غاياتنا لحظة وجودنا؟ سأله يقظان.

- ربما هذا العطاء لا يتناسب مع بعض أفراد البشر.

- كيف؟ سأله يقظان مندهشاً.

- أرادت عزته تعالى، أن يكون الإنسان مختاراً لطريقه في الحياة. إن عظمة الإنسان تتجلى في اختياره للكمال، لا أن يمنح الكمال عنوة. إن العدالة الإلهية تقتضي أن يمنح لكل كائن ما يتناسب مع إرادته ورغبته، ولا يفرض ذلك عليه فرضاً. إن هذا يتطلب تهيئة الكون بالنحو الذي يمنح

الإنسان فرصة للمعرفة، وللاختيار، وللسعي. وطبقاً لاختياره، وسعيه، ينال مطلوبه. إن وزارة التربية والتعليم، لا تمنح شهادات التفوق العلمي بالمجان. الكل يريد هذه المنحة، ولكن كم منهم يستحقونها فعلاً؟ لذلك وضعت الوزارة امتحانات، تتطلب من الطلبة الاستعداد الكبير لأجلها، ووفقاً لنسب التفوق التي ينالونها، يتم تكريمهم. هذا هو النظام عينه في الكون يا إيمان، وكما تقتضيه العدالة الإلهية.

- كلام منطقي جداً.

- هل قلت العدالة الإلهية؟ هلا أعطيتنا نبذة عنها؟ سأله يقظان.

- بالتأكيد يا يقظان ولتقر عيناً.

- أشكرك يا سيد ماهر. إنني مقدر ما تبذله من جهد. رد يقظان.

- إن هذا العمل متعة كبيرة لي يا يقظان.

ـ ٨ ـ

العدالة الإلهية

ـ من الضروري، أعني بحسب الضرورة العقلية، أن يتصف الفعل الإلهي بالعدالة .

ـ كيف تكون عدالة الله تعالى؟ سألته إيمان.

ـ سؤال وجيه. يعتقد البعض أن العدالة الإلهية تعني عدم صدور الظلم منه تعالى تجاه أفراد البشر، وغير البشر من الكائنات التي خلقها. ولكن هناك اعتراض على هذا المفهوم للعدالة الإلهية.

ـ اعتراض؟ مستحيل.. لا يظلم الله أحد. يقظان.

ـ بالتأكيد يا يقظان. القرآن يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾[1]، ومنشأ الاعتراض ليس على هذا. يعني حتما لا يصدر الظلم من الله تعالى. ولكن السؤال هنا هو: هل معنى العدالة الإلهية هو هذا؟ عندما يكون هناك أمر ما، وهو ملك شخص ما، فسلبه ذلك الأمر، أو التعدي عليه

---

(١) سورة يونس، الآية: ٤٤.

دون رضاه، يعد ظلماً. الظلم هو سلب حق من الحقوق. ولكن أي كائن هو ذاك الذي يملك أمراً ما، ملكية حقيقية، حتى يعد سلبه ظلماً؟ إن الكائنات، استعارت الوجود منه تعالى، بسائر خصوصيات الوجود. لا يوجد كائن يملك من ذات نفسه أمراً، حتى يعد ذلك الأمر حقاً له، وبالتالي سلبه منه سيكون ظلماً حقيقياً.

- فعلاً. الكون محض فقر إلى الله تعالى. علقت إيمان.

- فإذن، ليس صحيحاً أن نقول إن العدالة الإلهية تعني رعاية الحقوق. هٰهنا مفهوم آخر عنها، وهو أن لوازم الألوهية تتمثل في منح الفيض المناسب، لمن يستحقه من الكائنات، وفقاً لمؤهلاته المكتسبة، على أساس أنه لا يوجد كائن يملك أمراً يمكن عده استحقاقا ذاتيا له.

- هل يمكنك تقديم مزيد من التوضيح يا سيد ماهر؟ سأله يقظان.

- ممكن. صحيح أنه لا يملك أحد حقاً من ذات نفسه. ولكن الكائنات من الممكن أن تصبح مستحقة لبعض المنح الإلهية، لا استحقاقاً ذاتياً، وإنما استحقاقا مكتسبا. فالإنسان، عندما يخضع لعلاج حالة مرضية فيه، ويمتثل لأوامر أطبائه، تستعد ذاته لتقبل فيض الرحمة المتمثل في منح الصحة والعافية والشفاء له. السعي يوجد في النفس استعدادات شتى، وبموجب هذه الاستعدادات، تنال النفس المنح الإلهية المناسبة. الإنسان الذي يقضي ردحاً من عمره

يطلب العلم، فيجالس العلماء، ويقرأ المئات من الكتب، ويقوم بالعديد من التحقيقات، تكتسب نفسه استعداداً لنيل منحة الذكاء الخارق والفطنة الشديدة، فتتمكن من ابتكار نظريات جديدة، وآراء مفيدة. ذات الحق تعالى أفاضت هذه النعمة على ذلك الإنسان، ليس جزافاً، ولا بغياب المرجح، بل وفقاً للمرجح، وهو ذلك الاستعداد للتلقي، الذي نالته النفس بالسعي والاجتهاد.

- واضح جداً. علقت إيمان فرحة.

- العدالة الإلهية، بحسب هذا المفهوم، هي عدم منع الفيض المناسب، للشخص المناسب. علماً بأن المنع لن يكون ظلماً، لأن المنح ليس حقاً ذاتياً للكائن يجب على ذات الحق تعالى تنفيذه. كلا، وإنما لأن ذلك من لوازم الألوهية.

- ما معنى من لوازم الألوهية؟ سألته إيمان.

- يعني أن الحق تعالى يمنح الوجود عند توفر الأسباب. مقتضى ألوهيته تعالى ومقامه الذي هو إطلاق الوجود، وإطلاق الكمال، أن يعطي العطايا الوجودية للكائنات إذا توفرت أسباب هذا المنح. عندما تتوفر سائر أسباب اندلاع النار، يمنح واجب الوجود منحة وجود النار فتندلع.

- فهمت. علقت إيمان.

ـ ٩ ـ

النهر العظيم

وصلت سيارة يقظان ولاية الرستاق، جالت فيها، شاهد السيد ماهر نبع المياه الحارة، والتي تعرف بالثوارة. ثم انطلق إلى قلعة الحزم فدخلها وبقي فيها فترة يستمع إلى تاريخها، وأخيراً، صلى الجميع في إحدى زواياه، ثم انطلقوا إلى جهة وادي حوقين الرائع، وقد اشتروا غداءهم من إحدى المطاعم هناك، وقرروا البقاء فترة في الوادي. لم يتمالك يقظان مشاهدة اندفاع المياه في الوادي، فقرر الغطس فيها. بقي الجميع زهاء ساعتين، وكان في الوادي جمع من الزوار. وبعد ذلك، قرروا الرجوع إلى مسقط. وفي الطريق، تعرض السيد ماهر لآخر نقطة بقيت عنده من الدرس.

- بقي أن نتطرق إلى خلق العالم، من زاوية القدم والحدوث. إن ابن سينا، وفقاً لقاعدة إذا وجدت العلة فوجود معلولها محتوم، رأى أن العالم ليست له بداية زمانية.

- يعني قديم؟ سأله يقظان.

- كلا. لن يوافقك الشيخ الرئيس يا يقظان. الشيخ قسم القدم إلى قسمين: قديم بالزمان، وقديم بالذات. وهكذا فهناك حادث بالزمان، وحادث بالذات.

- فهمت. القديم الزماني حادث بالذات وليس حادثا بالزمان. بينما القديم الذاتي ليس بحادث أبداً، لا بالذات ولا بالزمان. علقت إيمان.

- أحسنت. يرى ابن سينا أن العالم ليس بقديم، إذ لا قديم إلا الله. العالم من وجهة نظره حادث، ولكن ليس زمانياً، بل ذاتياً.

- وكيف يكون كذلك؟ سأله يقظان.

- لأن العالم مسبوق الوجود بعلته، فذاته معلولة. والمعلول وإن كان غير حادث في زمان، لكن مقامه يتضمن لون من الحدوث والتأخر. هذا الذي أطلق الشيخ عليه بالحدوث الذاتي. هل تتذكران مثال اليد والمفتاح؟

- نعم جيداً. عبقري هذا الرجل فعلاً. علق يقظان.

- لكن حله هذا لم يعجب خصومه من المتكلمين، فلقد كفره على هذا الاعتقاد الإمام الغزالي.

- يا إلهي. هذا كثير. علقت إيمان مذهولة وقد بان التأثر الشديد على محياها.

- لم يكن ابن سينا بالذي سيتجاوز القواعد العقلية. إنه فيلسوف. علق السيد ماهر واسترسل:لكن صدر المتألهين، لم يوافقه على قدم العالم زماناً مع اتفاقه على أن العالم

حادث حدوثاً ذاتياً، ووافقه على صحة القاعدة العقلية الصارمة التي تقول بأن المعلول حتمي الوجود فيما إذا وجدت علته.

- كيف؟ سألت إيمان مذهولة.

- لقد أصر صدر المتألهين على الحدوث الزماني للعالم. وبرهن عليه كذلك. ولكن ليس على طريقة المتكلمين التي تخالف القواعد العقلية الصارمة. المتكلمون أوجدوا بين الله وبين العالم زماناً أزلياً ولم يعرفوا كيف يتخلصون من المشكلة.

- وكيف هي معالجة صاحب **الحكمة المتعالية**؟ سأله يقظان.

- لقد اكتشف صدر المتألهين الحركة الجوهرية في صميم الكون.

- جاء ذكر الحركة الجوهرية في كلامك أكثر من مرة يا سيد ماهر. هلا أوضحتها لنا؟ علقت إيمان.

- تذكرانِ كيف فسر أرسطو الحركة؟ لقد جعلها دفعية، فغدت أقرب إلى السكون منه إلى الحركة. كان أرسطو يعتقد بأن الحركة تقع في سطح العالم وليس في عمقه. عمق العالم ثابت، بينما سطحه يموج حركة. يطلقون على سطح العالم اسم: أعراض، بينما يطلقون على عمقه اسم: جواهر.

- جواهر؟ اسم مضحك. علق يقظان.

- الكون يتألف من الجواهر والأعراض. الجوهر هو الكائن

العميق الذي تستند عليه الأعراض. الروائح الزكية الصادرة من الورود، أعراض تستند على كيان جوهري غائص في عمق المادة الفيزيائية. المادة الفيزيائية لباس يلبسه الجوهر. اللباس يتطاير ويتحرك، بخلاف الجوهر الذي حسبه أرسطو وسائر الفلاسفة من بعده ثابتا ومستقراً لا يقبل الحركة. برهن صدر المتألهين لأول مرة على أن الجواهر في حركة دائمة وسيلان مستمر لا قرار له. الطبيعة الكونية بحر يموج حركة بجواهره وأعراضه.

- هلا أعطيتنا توضيحا عن الأدلة التي استندت عليها **الحكمة المتعالية** لتقرير الحركة الجوهرية؟ سألته إيمان مشغوفة.

- بكل أسف كلا يا إيمان. الموضوع يحتاج إلى مقدمات عدة. يجب أن اشرح لكما الزمان والمكان، والثبات والتغير، والجواهر والأعراض، وأنواع الحركات، والمادة والصورة، وغير ذلك. الأمر بالغ الصعوبة. لكن إليكما موجزاً فحسب.

- هات الموجز يا سيد ماهر. إن ما لا يدرك كله لا يترك كله. علق يقظان.

- أكد صدر المتألهين أن الحركات العرضية، لا بد أن تكون الحركة الجوهرية هي العلة لها. إن علة الحركة يجب أن تكون متحركة. هذا الذي تنص عليه قاعدة التناسب. في الواقع إن العرض ليس له وجود مستقل عن الجوهر، العرض ليس إلا شأنا من شؤون الجوهر. إن كل تغيير يقع

في شؤون الشيء يدل حتماً على وقوعه في عمقه. وهناك برهان آخر له استند فيه على حقيقة الزمان، إذ أن كل موجود زماني هو تدريجي الوجود، وبالتالي فهو متحرك، وبما أن الزمان متصل بالعالم وبعدله، يتحتم القول بأن الجواهر كائنات تدريجية الوجود.

- سيد ماهر، بما أنك لا تطرح ذلك كدرس، فليس لي أناقشك فيه إلى أن أتمكن من الموضوع. لكن يراودني سؤال أرجو أن تتفضل بالإجابة عنه. إيمان.

- تفضلي يا إيمان.

- الحركة الجوهرية تستند أيضاً على علل. أعني أن الجواهر تستند على علل أعلى. وبالتالي، أليس من الضروري أن تسري الحركة في العلل أيضاً وتصل إلى كل شيء، على أساس أن المعلولات في كل مرتبة مظاهر وشؤون لما هو أعلى منها من العلل؟

- سؤال هام جداً، ورده سهل يسير.

- ما هو؟ صاح يقظان.

- عندما يكون الشيء عين شيء آخر، عندئذ صانعه يوجده بما له من شؤون.

- لم أفهم ولا كلمة. علقت إيمان مبتسمة.

- الحركة الجوهرية عين الجوهر. إنها لا تحتاج إلى فاعل إلهي يوجدها. إيجاد الجوهر إيجاد لكل شؤونه بما فيها حركته يا إيمان. لقد تخيل البعض أن الجوهر كائن،

وحركته كينونة أخرى، وأن الفاعل الإلهي يوجدهما بصورة مستقلة ويربط أحدها بالأخرى. هذا التصور غير صحيح. عين الشيء يوجد مع الشيء بمنحة واحدة. الإنسان لا يخلق بعين مستقلة وأنف مستقل وأصابع في مكان والرأس في زمان، ثم يقوم الصانع بربطها كلها في كائن واحد.

- فهمت تماماً. علقت إيمان فرحة.

- الفاعل الإلهي فعله فعل واحد. إيجاد واحد. يشير القرآن أيضاً إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾[1] .الحكمة المتعالية، بدورها، أثبتت أن الفاعل الإلهي فعله بسيط، واحد، وليس فعله فعلا تأليفيا، يربط الكائنات ببعضها بعد إيجادها. إن الرتبة الوجودية التي تتعلق بالمادة، رتبة الحركة والسيلان، وجودها وحركتها عين ذاتها. لقد تعلق الجعل بوجود عالم المادة، يعني لقد تعلق الجعل بحركتها في وقت واحد.

- واضح جداً. علق يقظان.

- الكون، حركة هائلة لا قرار لها، إنه نهر عظيم يقذف باستمرار كائناته من ضفة الحياة الدنيا والحركة إلى ضفة الثبات والتجرد. الكائنات في هذا النهر العظيم، تتشبع تماماً مما يمنحها النهر من خواص، إلى أن تصل إلى عالم التجرد.

---

(١) سورة القمر، الآية: ٥٠.

- يا له من تشبيه جميل. علقت إيمان.

- الأمر هكذا يا إيمان. كنا أجزاء مشتتة في الطبيعة، كنا تمراً، لحم سمكة، تفاحاً، ثم تحولنا إلى دم، فنطفة، وشيئا فشيئا صرنا لحما وشحما وعظاماً وجلداً. وظللنا هكذا فترة، إلى أن اكتسب وجودنا بعداً غير مادي. بعداً روحياً. لقد أصبح لدينا إدراك ووعي وقدرة وإرادة. ولازلنا في النهر، نقترب شيئا فشيئا إلى ضفة التجرد، إلى أن نلقي ببعدنا المادي في الأرض، ليأكله التراب، فتنبت منه الأشجار والثمار، ويتغذى منه أحدهم، لتعود القصة معه من جديد، ويتكون فرد آخر، بينما نكون قد بلغنا عالم الأرواح، عالمنا الحقيقي.

- يا إلهي، يا له من أمر مذهل. علقت إيمان.

- إنه هائل. صاح يقظان.

- لنرجع إلى ما كنا فيه. العالم أضحى بهذا الاكتشاف حادثاً حدوثاً زمانياً أيضاً. هل تتذكران برهان الطباطبائي؟ لقد كانِ يشير إليه. بما أن حقيقة العالم حركة، فبموجب ذلك، العالم يحدث في كل آن. فكيف يمكن بعد ذلك أن ننسبه إلى القدم الزماني؟

- فهمت جيداً. تريد القول إن المعلول موجود دائما وفقا لوجود علته، لكن وجوده الدائم وجود حركي، وبالتالي فهو وجود حادث بصورة أبدية. علقت إيمان.

- لا بد أن أمنحك جائزة يا إيمان على هذا التركيز والانتباه.

هكذا هو الأمر فعلاً. العالم له نسبتان: نسبة إلى علته، ومن هذه النسبة يستمد الديمومة على صفحة الوجود، ونسبة إلى ذات نفسه، فهو من هنا يستمد حدوثه المستمر أبداً أزلاً.

- ما أروعه من إبداع فلسفي عظيم. علق يقظان.
- لقد زالت المشكلة بين الاتجاه الكلامي والاتجاه الفلسفي وفقاً لهذا الاكتشاف.

أنزل يقظان السيد ماهر في المعرض مباشرة، حيث إن الساعة كانت تشير إلى الرابعة والنصف مساء، بينما توجه هو ومعه أخته إلى مسقط وهما يراجعان الملخص:

- √ الابتهاج الذاتي يؤسس العناية الإلهية ويوجد النظام الأحسن.
- √ الأحسن هو المعين للعالم لكي يصل إلى غرض وجوده.
- √ غرض وجود العالم معرفته تعالى وبلوغ قربه.
- √ المطلوب الأساسي هو الذي يحقق الغرض من الوجود، وما سواه مطلوب عرضي.
- √ الحكمة الإلهية تضمن النظام الأحسن.
- √ العدالة الإلهية تضمن بلوغ كل واحد من الكائنات مداه الأقصى.
- √ الشرور عدميات ولا تحتاج إلى فاعل يوجدها، فضلا عن أن كل شر محفوف بخير أكبر منه ووجوده ضروري لنظام العالم الأحسن.

الفصل الثامن

طَرِيقُ الحُرِّيَّةِ

ـ ١ ـ

العلم الأزلي والجبر الأفعالي

ـ حديثنا، هذا الصباح، عن مسألة الجبر والاختيار. لكن أين نحن متجهان اليوم؟

ـ سنزور دار المخطوطات والوثائق العمانية.

ـ أيوجد هٰهنا دار للمخطوطات؟ سأله السيد ماهر؟

ـ بلى. إنها تضم حوالى ٤,٣٠٠ وثيقة ومخطوطة، أقدمها ترجع إلى عام ٦١٧هـ.

ـ هيا إذن.

ـ وموضوعنا؟ سألته إيمان.

ـ إنه عن الجبر والاختيارِ كما ذكرت. نبدأ فيه؟

ـ إنه موضوع خطير للغاية. علق يقظان.

ـ وربما يكون شديد التعقيد أيضاً. لنبدأ. علقت إيمان.

ـ الحديث سيكون ممتعاً، ومطالب البحث سهلة، وتخلو من التعقيد كما ستكتشفان. علينا أن نتحدث عن العوامل التي

تبدو أنها مسؤولة عن انبثاق فكرة الجبر في أذهاننا، وبعد ذلك نقوم بتحليلها ومناقشتها.

- ما الذي نعنيه بالجبر أولاً يا سيد ماهر؟ سألته إيمان.

- الجبر يعني أن الإنسان ليس له أن يختار، لا مصيره ولا مستقبله، وأفعاله اليومية التي يمارسها، خارجة عن دائرة اختياره. وتقابل هذه النظرية، نظرية الاختيار، التي تؤكد أن الإنسان مختار تماماً في كل ما يفعل، ولا توجد للإرادة الإلهية صلة بأفعال الإنسان. وبين النظريتين، نظرية ثالثة تعتقد بأن لأفعال الإنسان موقعا بين الجبر الكامل، والاختيار الكامل. يعني أن أفعال البشر، لا هي كلياً جبر، ولا هي تماماً اختيارية. يبدو أن العوامل التي تسبب في ذهاب أذهاننا بعيداً لاعتناق الجبر، ثلاثة؛ الأول: اعتقادنا بالعلم الإلهي الأزلي. والثاني: اعتقادنا بهيمنة الفعل الإلهي على فعل البشر هيمنة مطلقة، والثالث: اعتقادنا بالقضاء والقدر.

- لنبدأ في تحليل ومناقشة النقطة الأولى. صاح يقظان.

- نعم. ذهب بعض المفكرين في الإلهيات، أن اعتقادنا بالعلم الإلهي الأزلي مؤداه القول بالجبر الأفعالي. إذ أن علمه تعالى بكل شيء تفصيلاً، سيؤدي بالإنسان لأن يمشي في خط ذلك العلم ولا يحيد عنه قيد أنملة. والنتيجة، استحالة توفر إمكانية الاستقلال بالفعل عما هو معلوم لله تعالى. إذن، الإنسان مسيّر وليس بمخيّر.

- نتيجة منطقية جداً وفقاً للاعتقاد بالعلم الأزلي. قال يقظان.
- أخالفك الرأي يا يقظان. رد السيد ماهر مبتسما.
- كيف؟ هذا غريب؟ علقت إيمان.
- سيزول وجه الغرابة عن قريب يا إيمان.
- إنني أتوق لمعرفة كيفية ذلك يا سيد ماهر. علقت إيمان.
- إسمحا لي أن أوجه لكما هذا السؤال: هل يعلم الله منذ الأزل، عن أفعال البشر، ويعلم أسبابها المنشئة لها، أم أنه تعالى، يعلم بهذه الأفعال من غير أسبابها؟
- بالطبع يعلم بالأفعال وأسبابها يا سيد ماهر. أجاب يقظان.
- وإذن، أليس أحد أسباب أفعالنا، اختيارنا له؟ وعلى الأقل في الأفعال التي تكون إحدى أسباب وقوعها اختيارنا له؟
- لم أفهم. علقت إيمان.
- هل يعلم الله بوقوع الليل هكذا وكيفما كان، أم أنه يعلم بوقوعه وفقاً لغياب قرص الشمس، واختفاء ضياء الشمس المؤدي إلى حدوث الليل؟ بالتأكيد يعلم بهبوط الظلمة وأسبابها المؤدية إلى ذلك. عندما وضعت أمك البارحة على مائدة العشاء وجبتين مختلفتين، وقررت أن تتناولي الحساء فقط، فهل كان علمه تعالى قد تعلق بتناولك للحساء، من دون العلم بأسباب ذلك الفعل؟ كلا بالطبع، فهو عالم بالفعل وبأسبابه. وأحد تلك الأسباب، هو اختيارك للحساء دون غيرها .

- يا إلهي. لقد فهمت تماماً ما تعنيه يا سيد ماهر.

- إذا قلنا بأن الله تعالى عالم بسائر أفعالنا، دون أن يكون عالماً بأسبابها، سيجر هذا الاعتقاد إلى القول بقصور في علمه تعالى وهذا لا يصح طبقاً للبراهين التي أقمناها عن وجوده الإطلاقي، وعن صفاته التي ترجع إلى ذاته. إذن تحتم القول بأنه تعالى محيط علماً، بالفعل وأسبابه. وأحد أسباب الأفعال، على الأقل بعضها، اختيارنا لها. فقد تعلق علمه تعالى منذ الأزل بهذه الدروس، وانها ستقام، وفقاً لأسبابها. وأسبابها كثيرة. وجودي في مسقط راجع إلى فعاليات معرض الكتاب، والمعرض أقيم بقرار من وزارة التراث والثقافة، ووجودنا هنا يرجع إلى تلقينا للدعوة، وإلى قرار الدار بالمشاركة، وإلى قراري الشخصي بزيارة مسقط، وحتى عندما عرضت على إيمان فكرة إعطائها هذه الدروس، فذلك كان برغبة وقرار مني، ثم إن إيمان عرضت الفكرة على والدها، وفكر والدها أولاً ثم قرر أن يأذن لها بحضور هذه الدروس. هنالك العديد من العوامل التي تقف خلف وقوع هذا الفعل، منها ما لم يكن قراره بأيدينا. من قبيل إقامة فعاليات المعرض في مسقط، في هذا الوقت من السنة، ووصول الدعوة لدار النشر التي أعمل لها، وقرار إدارة الدار بالمشاركة. ومنها ما كان وقوعه راجعا إلى إرادتنا، من قبيل، إرادة إيمان لزيارة المعرض، إرادتي في إعطاء الدروس، إرادة والدها بالإذن. لماذا نقول بأنه تعالى علم بوقوع أفعالنا

فلذلك ستقع حتماً، ولا نقول بأنه تعالى علم بوقوع أفعالنا بأسبابها، وأحد تلك الأسباب، بالنسبة لبعض الأفعال، إرادتنا؟

- واضح جداً سيد ماهر. لقد زالت الشبهة من ذهني كلياً. علق يقظان.

- لنقرأ هذا النص لصدر المتألهين من حكمته المتعالية، يقول: **«إن علمه، وإن كان سبباً مقتضياً لوجود الفعل من العبد، لكنه إنما اقتضى وجوده وصدوره المسبوق بقدرة العبد واختياره، لكونها من جملة أسباب الفعل وعلله»**[1].

- ما أوضحه من نص. إيمان.

- إذن لننتقل إلى النقطة التالية. يقظان.

(١) الشيرازي، محمد بن إبراهيم: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة ج٦ص٣٨٥.

ـ ٢ ـ

في النظام الطولي يكمن الحل

- النقطة الأخرى، التي تلعب دورها في جر الذهن إلى الاعتقاد بالجبر، هي علاقة الفعل الإنساني بالفعل الإلهي.

- كيف؟ سألته إيمان.

- يتساءل البعض: كيف يكون للإنسان وحده، فعل ما من نتاج قدرته، مع أنه ـ الإنسان ـ مفتقر كلياً إلى واجب الوجود، ويستمد تمام وجوده، وكمال وجوده، من حياة وعلم وإرادة وقدرة وغير ذلك منه تعالى، ويستحيل أن ينفك في حياته وأفعاله عن قدرة الله تعالى وعن هيمنة فعله عليه.

إذن، كل الأفعال، حتى التي تصدر عن الإنسان، إنما هي أفعاله تعالى، ولكنها تبدو لنا وكأنها أفعالنا. لو أن شخصاً صنع جهاز الحاسوب، وبرمجه بحيث إن شاشته تتبدل عند كل ضغطة زر من صانعه، وزوده بالكهرباء وسائر ما يترتب عليه عمله، ثم قام بتشغيله، وبدأ بتغيير شاشته بضغطة على الزر المخصص، فكيف يمكن الادعاء، أن الحاسوب هو وحده

الذي قام بتغيير شاشته؟ إن الذي غيرها هو صانعها. هكذا هو حالنا إذا قورن بالفعل الإلهي.

- مثال جيد. علق يقظان.

- وما هو الجواب يا سيد ماهر؟ سألته إيمان.

- هنالك جوابان: الأول تم عرضه من قبل علماء الكلام، والآخر، عرضته **الحكمة المتعالية**. يرى علماء الكلام أن لكل فعل يصدر من الإنسان، نسبتين؛ نسبة إلى الإنسان، ونسبة إلى خالق الإنسان. فكلامي مثلا، من جهة احتياجه إلى الوجود وإلى القدرة لكي يظهر ويصل إلى أسماعكم، متصل بالإرادة الإلهية، التي إن شاءت حبست فيض الحياة وفيض الوجود عنه، فيغدو عدماً. ولهذا الفعل، أعني كلامي هذا، له نسبة تربطه بي، من خلالها ينتسب لي ويصبح فعلا من أفعالي، وذلك من خلال اختياري لكلماتي، وإرادتي للتحدث به. أي إن الإتيان بالفعل فعلي أنا، والقدرة على الإتيان به فعله هو ـ جل وعلا ـ . هو المانح للقدرة، وأنا الممارس للفعل بقدرته وحوله وقوته، وليس بقدرتي وحولي وقوتي.

- يبدو مقبولاً. علق يقظان.

- **الحكمة المتعالية** لم تقبل بهذا التخريج، واعتبرته ناقصاً جداً. إذ أن ما هو مفتقر الذات إلى الواجب، من جميع الجهات، ليس له نسبة إلى فعل إلا أن تكون هنالك نسبة ربطت الفعل ذاته بواجب الوجود.

- ما معنى ذلك؟ سألته إيمان.

- يعني أن تصور وجود نسبة يرتبط عبرها الفعل بالله تعالى، ونسبة أخرى يرتبط الفعل، محضاً، بالفاعل البشري، خطأ فادح جداً، إذ حتى تلك النسبة التي رأيناها تربط الفعل بالفاعل البشري، من المستحيل أن تكون قد انفكت عن الفعل الإلهي، وإلا فإن نسبة استقلال ضئيلة قد سرت في الفعل البشري، وهذا مستحيل، لأن تمام وجود الإنسان محض فقر وتعلق من جميع الجهات بموجده. إن فرض نسبة للفعل إلى الفاعل البشري يعارض التوحيد الأفعالي.

- فعلاً. علق يقظان.

- لأجل ذلك رفض صدر المتألهين أن يتبنى في حكمته المتعالية هذا التصور، وعرض تصوراً دقيقاً جداً لحل المسألة.

- أعرضه علينا يا سيد ماهر لو سمحت. سألته إيمان بكل شغف.

- طيب. التفتا جيداً. يوجد في الكون نظامان، تجري سائر الأفعال وفقاً لهما. إنهما النظام العرضي، والنظام الطولي.

- جاء ذكرهما سابقاً. لكن لا يمنع أن تذكرهما مجدداً. علق يقظان.

- النظام العرضي، يعني اجتماع عدة أسباب لإيجاد فعل ما، وبالنحو الذي يكون لكل تلك الأسباب دور ما في تحقق

الظاهرة المعينة. إن صدور الكتاب من المطبعة يرجع إلى توفر مجموعة من الأسباب، كل منها مارست دورا تجاه عملية صدور الكتاب. فهناك المؤلف، وهناك من قام بتصحيح الأخطاء اللغوية، وهناك من تولى تسجيل ملكية الكتاب الفكرية لمؤلفه، وهناك من كتبه في جهاز الكمبيوتر، وهناك من تولى تصميم الغلاف، وهناك من تولى طباعته للمرة الأولى، ثم للمرة الأخيرة. كل هؤلاء كان لهم دور تجاه صدور الكتاب. يعد اجتماع هذه العلل والأسباب لإصدار الكتاب اجتماعاً عرضياً. يعني أن صدور الكتاب كان وفقاً للنظام العرضي.

- وماذا عن النظام الطولي؟ سألته إيمان.

- في النظام الطولي، العلل والأسباب التي تجتمع لإيجاد ظاهرة ما، لا يقوم كل واحد منهم بدور في إبراز الظاهرة، وإنما الكل يقوم بإبراز تمام الظاهرة، بالنحو الذي يؤثر الكل في الكل بحسب نظام تصاعدي.

- لم أفهم. علق يقظان.

- لو أن شرطياً ألقى القبض على سارق وأودعه السجن، ثم قام مفتش الشرطة بمنح جائزة هذا العمل لضابط المركز، فهل يكون مخطئاً، لأن ضابط المركز ليس هو من قام بالقبض على السارق؟ بالطبع لن يكون مخطئاً، لأن الشرطي يتصرف وفقاً لأوامر ضابط المركز. لكل من الشرطي وضابط المركز تأثير في عملية إلقاء القبض على

السارق. كلاهما مارسا الدور ذاته في إبراز هذه الحادثة إلى الوجود، غير أن الشرطي هو الفاعل القريب، والمباشر، والضابط فاعل بعيد وغير مباشر.

- فهمت قصدك. إنك تريد القول، بأن الفعل الذي يصدر من الإنسان، ينتسب إلى واجب الوجود بالنسبة نفسها، وفقاً لهذا النظام، لأنه تعالى هو المؤثر الأول في ظهور الفعل. صحيح؟ سألته إيمان.

- نعم صحيح. ولكن عليكما الالتفات جيداً إلى هذه النقاط:

١ - توجد العوامل الطبيعية لتحقيق الظواهر، وتوجد الإرادة الإلهية كذلك. عمل العوامل الطبيعية، بالرغم من وجودها، ليس مستقلاً عن عمل الإرادة الإلهية وفقاً للنظام الطولي. الإرادة الإلهية هي المسؤولة كلياً عن وجود العوامل الطبيعية. هطول الأمطار بفعل الغيوم الكثيفة ينتسب إلى الغيمة، كما ينتسب إلى الإرادة الإلهية. ولكن الإرادة الإلهية هي التي توجد الغيمة والمطر معاً. إذن لم يعاون الغيم وواجب الوجود لإتمام عمله وإظهار فاعليته بالنسبة إلى المطر. كلا، إذ أن الغيم صنيع إرادة واجب الوجود. العوامل الطبيعية وغير الطبيعية كلها تستند في وجودها ووجود آثارها إلى الإرادة الإلهية.

٢ - ليس استناد الكل إلى الإرادة الإلهية بطلانا لإنتاجها، بحيث يكون الفعل كله نتاج الإرادة الإلهية. كلا. إن العوامل الأخرى موجودة بحسب الحقيقة والواقع، وتنتج

أثرها واقعياً، غير أنها مستندة في وجودها ووجود فعلها إلى الإرادة الإلهية. إن النظام الطولي لا يسقط فاعلية غيره تعالى عن الاعتبار ويحيلها إلى البطلان.

٣ ـ في النظام الطولي، الكل يحتفظ لنفسه بدوره في الفاعلية والتأثير، عن غير استقلال، بل بالاستناد التام إلى الإرادة الإلهية. وهكذا، فالفاعل البشري، يحتفظ بدوره في إيجاد الظاهرة، وفقاً لإرادته واختياره. وعليه، فإن فعله وإن توقف تماماً على منحة الوجود ومستلزمات الوجود التي يهبها خالق الكون، فإن من ضمن ما يهب، الإرادة والقدرة على الاختيار، الذي بموجبه، لا يصح نسبة الفعل إلى الله تعالى مباشرة. فلو أن رجلاً أصاب آخر بضرر، ليس صحيحاً أن يزعم بأن ما قام به لم يكن عمله، وإنما كان عمل واجب الوجود. لماذا لا يصح منه هذا الزعم؟

ـ لأن مقتضى منحة الاختيار الممنوحة له، يصبح هو المختار لفعله، بالرغم من أن فعله مستند كلياً، بما فيه القدرة على الاختيار، لإرادة واجب الوجود. لقد فهمت تماماً يا سيد ماهر. أجاب يقظان فرحاً.

ـ أحسنت. هذا هو الجواب فعلاً. قرر صدر المتألهين هذه الحقيقة في الحكمة المتعالية، وضرب عليها مثالاً حسياً، قال: «**معرفة النفس وقواها، أشد معين على فهم هذا المطلب. فإن فعل الحواس وفعل القوى الحيوانية والطبيعية كلها فعل النفس، كما هو التحقيق، مع أنها فعل تلك**

القوى أيضاً بالحقيقة لا بمعنى الشركة بين الفاعلين في فعل واحد»[1].

- العين تبصر حقيقة، ولكننا نقول: أبصرت. يعني أن النفس أبصرت. نسبنا بذلك نفس الفعل بنسبة ذاتها إلى كل من البصر والنفس. علقت إيمان.

- تماماً.

(١) المصدر السابق: ج٦ص٣٧٥.

ـ ٣ ـ

القدر يأتي قبل القضاء

بلغت سيارة يقظان دار المخطوطات. نزل الجميع، وقضوا قرابة ساعتين ونصف الساعة فيه، حيث شاهدوا أنواعاً من المخطوطات القيمة والوثائق الفريدة. وبعد ذلك قرروا التوجه إلى المنزل. وفي طريق العودة، باشر السيد ماهر الدرس قائلاً:

- وصلنا النقطة الثالثة حول أسباب اعتقاد البعض بأن الإنسان ليس له سلطة لاختيار أفعاله.
- إنها حول القضاء والقدر. علقت إيمان.
- نعم.
- ولكن القضاء والقدر موضوع ديني بحت، فلماذا تتناوله الفلسفة؟ سأله يقظان.
- سؤال وجيه. لا تنس أن الفلسفة الإسلامية غير منفصلة عن الفكر الديني، وأن مسائل الفكر الديني ضمن تحقيقاتها. ذكرنا ذلك كله في السابق. لأعرفكما الآن بمعنى القدر والقضاء.

- تعني القضاء والقدر؟ تبسمت إيمان وهي تقول ذلك.

- كلا. أعني القدر والقضاء. القدر هو الأسبق وجوداً من القضاء.

- لم أسمع بذلك من قبل. علق يقظان مندهشاً.

- لعلكما تعرفان الطريقة التي يعد بها مؤلفو القصص والروايات وكتاب السيناريوهات أعمالهم.

- كلا. علقت إيمان.

- هؤلاء يتصورون أعمالهم في أذهانهم قبل أن يكتبوها بتمام تفاصيلها. الممثلون، الأدوار، الأماكن، الأوقات، الكلمات، المحاورات، الملابس، المشاهد المرافقة للأحداث، وسائر التفاصيل، كلها تمر أولاً بمرحلة الذهن، قبل أن تتواجد في شكلها الكتابي، ومن بعده بشكله التمثيلي. تلك هي مرحلة تقدير الفعل. القدر يعني جعل ظاهرة ما محددة بحدود. تقدير الشيء يعني وضع حد له، وربطه بشروط تؤمن وجوده المحدد.

- هل هذا هو القدر؟ سألت إيمان مندهشة.

- بلى. كل الحوادث الواقعة تمر أولاً بمرحلة التقدير. الشروط التي توجب وجودها بقدر خاص كلها تقديرات الفعل. إن دوران الأرض حول الشمس، تسبب في حدوث الفصول الأربعة. هذه الفصول الأربعة مقدرة من جهة الزمان ومحددة بالوقت، وهذا التحديد تقدير لها.

- والقضاء؟ سألت إيمان.

- هو تحقق الظاهرة المقدرة.

- ماذا؟ هل هذا هو القضاء؟ سأل يقظان مذهولاً.

- هو هذا لا أكثر ولا أقل يا يقظان. إنك قبل أن تقوم بإغلاق باب سيارتك، تعلم جيداً أن إغلاقه سيؤدي إلى حدوث صوت. هذا الصوت، محدد الحجم والمدى، هذا التحديد هو تقديره. وعندما يتحقق سبب صدوره، بإغلاقك لباب السيارة، فإن الصوت سيظهر في الوجود بمقداره المحدد الثابت. فيكون التقدير قد مر من مرحلة القدر إلى القضاء. يعني مرحلة الحتمية والتحقق والإنجاز.

- إذن مرحلة السيناريو هي مرحلة تقدير الشيء، ومرحلة التصوير والتمثيل هي مرحلة إبرام التقدير وتحويله إلى الوجود وهذا هو القضاء؟ سألته إيمان.

- نعم. التفتا جيداً إلى أن كل قضاء مسبوق بتقدير. وفي الوقت ذاته، فإن كل قضاء يصبح تقديراً لقضاء لاحق.

- لم أفهم النقطة الثانية. سأل يقظان.

- أليس الجهد الذي يبذله الطالب في الصف، ويتعب نفسه في المذاكرة، نتيجته نجاحه؟

- بلى. رد يقظان.

- طيب. فإذن أضحى جهده تقديرا لنجاحه. بمقدار الجهد

يظهر النجاح. النجاح ظهور للجهد وتحقق عملي له.

- فهمت. إذن، الكون كله، بكافة حركاته وسكناته، غارق كلياً في القدر والقضاء. علق يقظان.

- أحسنت. هذا هو القدر والقضاء.

- وما علاقته بحرية الإنسان واختياره؟ سألت إيمان.

- لنستوضح علاقة القدر والقضاء بالفاعل الإلهي. الفاعل الإلهي يجعل الخلق ذا مقدار، وذا حد، ويعلق وجوده على شروطه. المطر قبل هطوله، يقدر الله تعالى كميته، وكيفية هطوله، وشدته، وزمانه، ومكانه، ويعلق تحقق الهطول بأسبابه الخاصة به. وعندما تتحقق الأسباب، يخرج التقدير الإلهي إلى فضاء الوجود، فيناله القضاء والتحقق والواقعية. وهذا القضاء أيضاً فعله تعالى كما استوضحنا في حديثنا عن النظام الطولي.

- الآن فهمت مكمن الشبهة. إذا كان الكون كله تحت قانون القدر والقضاء، وما من شاردة ولا واردة إلا وقد تعلق بها القدر والقضاء، فمن الطبيعي أن تكون الأعمال التي يؤديها البشر أيضاً، قد أدركتها يد القدر والقضاء. والنتيجة: يصبح الإنسان مجبوراً على فعل ما أثبته القدر والقضاء وليس له أن يختار بخلاف القدر الإلهي. صحيح؟ علقت إيمان مستفهمة.

- نعم هذا هو مكمن الشبهة فعلاً.

- والجواب؟ سأله يقظان.

- إنها شبهة واهية جداً. لنعرف أولاً: إن القدر والقضاء مؤشران يدلان على كيفية العلاقة القائمة بين الكون، بجميع ما فيه، وبين خالق الكون. خالق الكون، عالم بكل شيء مفصلاً، ومانح الوجود لكل شيء. علمه بالشيء وحدوده وسائر شروط تحقيقه نسميه القدر، ومنحه لموضوع التقدير الوجود بحسب تواجد شروطه أسميناه القضاء. ليس القدر والقضاء نظاما يربط بيني وبين فعلي، وإنما هو نظام يربط الكون بفاعل الكون.

- ما معنى نظام يربط الكون بفاعل الكون؟ سأله يقظان.

- عنيت بالنظام، الكيفية التي يوجد بها الخالق خلقه. هو تعالى يحيط بها علماً، ويحيط علماً بمقدارها، ووقتها، ومكانها، وشروط تحققها. ويوجدها بعد تواجد وتحقق شروطها. لا يوجد الخالق شيئا ما لم تتوفر شرائط وجوده. وإذا توفرت الشرائط، فإن وجود الشيء يصبح حتماً، فيمنحها الخالق الوجود.

- فهمت الآن جيداً. علق يقظان.

- من المستحيل أن نتوقع هطول الأمطار دون توفر الغيوم. وإذا توفرت الغيوم، فإنه من المستحيل أن نتوقع هطولها بلا حد ولا مقدار. هذا هو النظام الذي يوجد الله تعالى الأشياء وفقها. نظام القدر والقضاء. يقول القرآن: ﴿إِنَّا كُلَّ

شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[2]

- لنرجع إلى معالجة للشبهة. علقت إيمان.

- نعم. إذا كان القدر والقضاء مؤشرين يكشفان عن طبيعة العلاقة القائمة بين الكون وخالق الكون، وهما يتعلقان بكل شيء بحسب المقدار والشروط، لا كيفما كان، فإن أحد الأمور التي تصبح مورد تعلق القدر والقضاء بهما، هو اختيار الإنسان لأفعاله. الإرادة في البشر، نظام يكشف عن العلاقة القائمة بين الإنسان وفعل الإنسان. ودور القضاء هنا هو إيجاد هذا الاختيار بعد أن تعلق به القدر الإلهي.

- فهمت. تريد القول إن أحد الكائنات في هذا الكون هي قدرة الإرادة والاختيار في الإنسان، الذي يستخدمه الإنسان عند إتيانه لأفعاله. ودور القدر والقضاء هنا يشبه نفس دورهما تجاه بقية أشياء هذا الكون. إنهما يتعلقان به، ويحددانه، ثم يوجدانه. صاح يقظان فرحاً.

- أحسنت. هذه هي الإجابة. وتستحق عليها مكافأة يا يقظان. القدر والقضاء لا يلغيان الاختيار، وإنما على العكس تماماً، يوجدان الاختيار.

---

(١) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

- لقد فهمت جيداً. علقت إيمان مبتسمة.

- أريد أن أسألكما هذا السؤال: تعلمان أنه ليس من المتوقع قطعاً، سقوط المطر بلا سحب في الهواء. صحيح؟

- نعم. رد يقظان.

- وعندما تتكون السحب، فإن سقوط المطر محتم لا مفر عنه. صحيح؟

- بلى. ردت إيمان.

- كلا. ليس كذلك.

- كيف يا سيد ماهر؟ إذا وجدت العلة فوجود معلولها حتمي. وإذا توفرت الشرائط فإن القدر يصبح قضاء. سألته إيمان متعجبة.

- كل ذلك صحيح. ولكن سبب الأسباب، والذي يمنح لبقية الأسباب الوجود، هي إرادة الله تعالى.

- نعم صحيح. علقت إيمان.

- فإذا تجمعت السحب الكثيفة، وبات محتماً سقوط الأمطار، ولكن إرادة الله تعالى، والتي هي سبب الأسباب، لم تشأ هطوله، فهل سيهطل؟

- كلا. ولكن ألا يشاء الله وجود الشيء إذا ما وجدت شرائطه؟ سألته إيمان مندهشة.

- نعم يشاء، ولكن لعل ثمة سببا خفيا علينا لم نلحظ

وجوده، كان السبب في عدم سقوط الأمطار بالرغم من تجمع الغيوم بكثافة.

- أيكون لهطول الأمطار أسباب غير تجمع الغيوم الكثيفة؟ سأله يقظان مذهولاً؟

- بلى يوجد. وليس للأمطار فحسب، بل لكل شيء في هذا الكون.

- يا إلهي. وما هي؟ سألته إيمان مذهولة.

- إنه اتصال الإنسان بمنبع الوجود.

- اتصال الإنسان بماذا؟ سأله يقظان.

- بمنبع الوجود. أعني بواجب الوجود والقدرة الإلهية اللامحدودة.

- وهل بوسع الإنسان ذلك؟ طرح يقظان السؤال مذهولا.

- بوسعه مؤكداً. إن الصلاة والدعاء والذكر، ووجوه الخير المختلفة توجد هذا الاتصال. ويصبح طلب الإنسان أحد أسباب تحقق القضاء، أو رد القضاء. مع كل أسف، يبحث الإنسان عمن يوقظ في نفسه قدراته. وينسى بأنه كله محض فقر وتعلق بذات القيوم. الإنسان متصل كلياً بالقدرة الإطلاقية. فكيف يبحث عن غيره تعالى لكي يحقق له طلباته؟

- وهل يحقق الله تعالى طلبات البشر؟ سأله يقظان.

- بلى يفعل. إن الطلبات التي تتساوق مع أغراض الوجود، وتسبب في بلوغ الإنسان لغايته من الخلق، لا شك في أنها تتحقق. ولهذا الأمر إشارة في الكتاب المجيد.

- أين؟ سألته إيمان.

- تأملي آية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1].

- فعلاً. علق يقظان.

- وكأنك يا يقظان ما سبق وأن رفعت يديك داعيا المولى تعالى؟

- بلى فعلت مرارا وتكرارا يا سيد ماهر.

- وإذن؟ أكنت تفعل ذلك وأنت تعلم بأن الإجابة مستحيلة؟

- كلا. العكس يا سيد ماهر. كنت أعتقد بإمكان الإجابة لذلك دعوت ربي.

- إذن تعرف الموضوع تماما وكما ينبغي.

- فعلا. لقد ذهلت عنه. ربما لاستخدامك أسلوبا مختلفا في عرض الفكرة.

- الحمد لله. إليكما التلخيص:

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٨٦.

- √ علمه تعالى الأزلي لا يوجب الجبر، لأن علمه قد أحاط بأسباب الأفعال، والتي منها إرادتنا له.
- √ فعله تعالى يتعلق بفعل الإنسان عبر النظام الطولي. هذا النظام يحفظ لكل فاعل فعله في الوجود، ويكشف عن كيفية تعلق الفعل الإلهي بفعل الإنسان.
- √ القدر هو تقدير الفعل بوضع حدوده وترتيب علله، والقضاء هو إبرام الفعل بعد أن تحققت علل وجوده.
- √ كل قضاء مسبوق بقدر وكل قدر مسبوق بقضاء.
- √ القدر والقضاء نظام يكشف عن صلة الكون بالفعل الإلهي ولا علاقة له بجعل الفعل البشري اضطراريا.
- √ الاتصال بمنبع الوجود عبر الذكر والدعاء يؤثر في القضاء.

الفصل التاسع

الإنسانَ الكاملُ وحَتْمِيَّةُ الوَحْيِ

ـ ١ ـ

القرب والبعد

هذا اليوم، سيتلقى يقظان وإيمان آخر دروسهما في الفلسفة الإسلامية. إذ يسافر السيد ماهر مساء هذا اليوم إلى بيروت. ولذا فضل أن يكون الدرس الأخير في منزل السيد ناصر والد إيمان.

ـ كنا قد خططنا لأخذك إلى نزوى وبهلا. إنهما مدينتان ذاتا آثار تاريخية عديدة. كنا نريدك أن تشاهد قلعة بهلاء التاريخية يا سيد ماهر.

ـ أهي قلعة أثرية؟

ـ يرجع تاريخ بناؤها إلى قبل الإسلام. لقد ضمنتها يونسكو في قائمة التراث العالمي.

ـ كنت أتمنى ذلك. لكنني راجع إلى بيروت هذا المساء. لذا علي أن أحزم حقائبي واستعد. أشكركما كثيراً.

ـ لا شكر على واجب. لكن عدنا بأنك ستأتي مجدداً إلى مسقط. علقت إيمان.

- بالتأكيد. أفكر أن أحضر عائلتي كذلك.

- رائع. علق يقظان.

- بما أن الوقت ضيق عندك اليوم يا سيد ماهر، قد يكون من المستحسن أن نبدأ فوراً. ما رأيك؟ سألته إيمان.

- نعم. أريد أن أبدأ آخر الدروس بسؤال أطرحه عليكما.

- تفضل. نسأل الله أن يوفقنا للإجابة. علقت إيمان.

- هل يوجد لديكما من خلال ما مر الدروس، ما تستطيعان بالاعتماد عليه، أن تؤكدا لي أن وجود الإنسان الكامل ضرورة حتمية؟

- وما الذي نعني بالإنسان الكامل؟

- الإنسان الكامل، هو ذلك الفرد الذي حقق غرض الخلق، فتكامل وجوده، ويكون شديد الارتباط بمنبع العزة والقدرة اللامتناهيتين.

سكتا قليلا، ثم نطقت إيمان وهي تقول:

- بما أنه قد تقرر أن غاية الخلق وهدفه النهائي هو الله تعالى، وأن الإنسان، هو الوحيد الذي يستطيع بلوغ أسمى درجات معرفته تعالى، فإذن تغدو نظرية الإنسان الكامل ضرورية.

- أحسنت يا إيمان. لقد مر علينا موضوع غرض الخلق وأهدافه النهائية. وهناك تبين لنا، أن غير الله تعالى، لا

يمكن أن يكون غرض الوجود وغايته. ويتحقق هذا الغرض بالمعرفة. وإلا، فإن الخلق سيكون وجوده عبثاً، لأن غايته معطلة، ووصوله إلى هدفه لم يتحقق.

- هل تعني أنه إذا لم يكن هناك إنسان كامل فإن الخلق لا معنى له؟ سأله يقظان مندهشاً.

- بالتأكيد يا يقظان. لقد أوجد الفاعل الإلهي هذا الكون لغرض، وهذا الغرض هو معرفته تعالى، التي هي الخط الموصل للإنسان إلى الكمال. فلو أن هذا الإنسان الذي سيحقق غرض الخلق لم يتواجد، فماذا بقي للكون من غاية؟

- نعم. فهمت. علق يقظان.

- ولكن كيف بالمعرفة يتحقق الغرض؟ سألته إيمان.

- وهذا سؤال آخر مهم جداً. لقد علمتما أن هناك طريقين للمعرفة، أحدهما طريق البحث العقلي، والآخر طريق القلب والعرفان. إن الغاية تتحقق عبر سلوك ثاني الطرق.

- لماذا؟ سأله يقظان.

- البحث العقلي يعطي المعرفة، ولكنها ليست بالمعرفة الحضورية اليقينية بمشاهدة الحقائق. بينما العرفان يؤسس اليقين لأنه شهود للحقيقة.

- لقد مر علينا أن للإنسان معرفة حضورية بالله تعالى. يبدو أن طريق العرفان هو تقويتها. علقت إيمان.

- هكذا هو الأمر فعلاً. طريق العرفان يجعل المعرفة الحضورية المنكمشة تشتد وتتوهج.

- هلا شرحت لنا المنهج العرفاني ومستنده ومعطياته يا سيد ماهر؟ إيمان.

- نعم سأفعل. لقد تعمدت عدم طرحه ضمن مسائل المعرفة، وذلك لأن موقعه الأنسب في رأيي هو هٰهنا. لأن للموضوع صلة تامة بالإنسان الكامل.

- أتذكر إنك طلبت مني أن أذكرك بهذا. ولكنك تذكره يا سيد ماهر.

- أظن أنك كنت على وشك أن تذكريني به. حسنا، لنبدأ بمقدمة هامة جدا لا بد من التطرق إليها قبل الدخول في الموضوع.

- وما هي هذه المقدمة؟ سأله يقظان.

- إنه موضوع القرب والبعد من واجب الوجود. يظن البعض أن القرب والبعد من الله تعالى، قضية مجازية وليست حقيقية. إنهم يتصورون أن الله تعالى، ولأنه في كل مكان، فمن المستحيل أن يصبح شخص ما أقرب إليه من غيره من البشر. ولذلك، فهم يفسرون القرب الإلهي، بالعطاء الإلهي، والعناية الإلهية. وبذات الأسلوب يفسرون البعد من الله تعالى. فالإنسان، بحسب نظرتهم، إذا تمرد على التعليمات الإلهية، والإرشادات الأخلاقية، يطلقون عليه

مجازاً بعيد عن الله تعالى، بينما الأمر في الواقع ليس كذلك، لأنه تعالى قريب من الجميع بدرجة واحدة.

- سيد ماهر، لا أرى في هذا المنطق أدنى خطأ. كيف يمكن أن يقترب شخص من الله حقيقة أكثر عن بقية الناس؟ أليس هذا مستحيل؟ إنه قرب العناية لا غير. علق يقظان.

- لست أوافقك القول يا يقظان. إن القرب والبعد من واجب الوجود من الممكن أن يكون حقيقياً تماماً.

- ولكن كيف؟ سألته إيمان.

- دعاني أقوم بتوضيح ذلك.

- تفضل. علق يقظان مندهشاً.

- البعد والقرب تارة يكون زمانياً ومكانياً، وأخرى يكون وجودياً. أنتما الآن تجلسان بالقرب مني. قربكما مني زماني ومكاني، يعني أنه يقع في زمن محدد ومكان معين. ووالدتكما الآن بعيدة عنا بمكان، ونحتاج لكي نصل إليها إلى قطع زمن محدد. فهي تبعد عنا زماناً ومكاناً. أليس كذلك؟

- بلى. علقت إيمان.

- ولكنها، بالرغم من البعد الزماني والمكاني، أقرب إليكما مني من جهة التعلق والحب. لأنها والدتكما، ومن حقها الطبيعي أن تكون أقرب إليكما من الآخرين.

- ولكن هذا القرب مجازي. علق يقظان.

- ليس مجازياً على الإطلاق يا يقظان. هل تعني أن حبك لأمك ليس بحب حقيقي؟

- سيد ماهر إنه حقيقي. أجاب يقظان.

- فلماذا إذن تسميه حباً مجازياً؟ إنك تحصر القرب والبعد في الإطار الزماني والمكاني فقط، ولهذا لا تتصور وجود أنحاء أخر لهما. إن الحب أمر واقعي وحقيقي، وأنت تدركه وجداناً، ولما كان واقعياً، فمن المحتوم إذن أن العلاقة المترتبة على عامل الحب ستغدو واقعية وحقيقية جداً.

- نعم فهمت الآن جيداً. رد يقظان.

- الخادمة التي تقوم بتنظيف المنزل، الان هي موجودة في البيت مع والدتكما، فهل تعتقد أنها أقرب إلى والدتكما منكما؟ نعم إنها أقرب إليها منكما من جهة الزمان والمكان، ولكن أنتما هما الأقرب من جهة الحب والتعلق القلبي. وسوف أقول لكما الآن إن القرب من خلال الحب والرابطة الحبية أقوى من القرب عبر عامل الزمان والمكان.

- كيف؟ سألته إيمان.

- الزمان والمكان يحجبان البعد المادي منا فحسب، ويعجزان عن حجب محبتنا لبعضنا البعض، بينما نحن

نرتبط ببعضنا عبر عامل الحب، وإن كان الزمان والمكان يحجباننا عن بعضنا، فأيهما أشد وأقوى وجوداً؟ التفتا جيداً فلقد سألتكما عن الأقوى وجوداً.

- كيف يكون الأقوى وجوداً؟ سألته إيمان.

- إنه ذاك الذي يرتفع على الزمان والمكان. العامل الذي يتصف بالقوة والقدرة هو الذي يتخطى الحد. فأيهما تخطى الحد؟

- إنه الحب. أجاب يقظان.

- تأكد من ذلك تماماً يا يقظان. نحن البشر، نتربى بين المادة، ويحكمنا الزمان والمكان، لذلك لا نلتفت إلى الأبعاد الخفية الأخرى الموجودة فينا، والتي هي اشد وجوداً من عامل الزمان والمكان. لنأت مجدداً إلى مسألة القرب والبعد. واجب الوجود، وجود إطلاقي، وكمال لا حد له، فلو قدر لموجود ما، أن ينمو وجودياً، بحيث تتعالى قوته، وحياته، وبقية قدراته، من إدراك، وسمع، وبصر، وغيرها، فيرتفع عن المادة، ولا يوقف روحه الزمان والمكان، ثم قارناه بموجود ضئيل القدرات، ضعيف الوجود، فأيهما سيكون الأقرب من ناحية الوجود إلى واجب الوجود؟ هل الوهج الذي يسطع عن الشمس مباشرة، أقرب وجوداً من الوهج الذي يبلغ الأرض؟ بالطبع الأقوى سطوعاً أقرب من حقيقة الشمس عن الأضعف سطوعاً.

- لقد فهمتك يا سيد ماهر. علقت إيمان بفرح شديد.
- نعم لقد فهمت أنا كذلك. علق يقظان مبتسماً.
- إذن، حركة التكامل حركة تصاعدية باتجاه قلب الوجود وحقيقته العظمى. روح الإنسان تسلك طريقاً يقوى فيها وعيه بخالقه، ولأن خالقه في درجة من الوجود الإطلاقي، كلما اشتد وعي الإنسان به، اشتد وجوده، لأنه يرتفع في درجات الوجود من الأسفل إلى الأعلى، حتى يبلغ درجة لا يجد ما كان يصدر عنه من أفعال مستقلة عن فعله تعالى، وبعدها لا يجد لذاته أي صفة من نفس ذاتها، بل يجدها فقيرة إلى الله في كل ما كان يحسب أنها منها. وأخيراً يشاهد ذاته فقراً محضاً وتعلقاً صرفاً بواجب الوجود، حينذاك يكون قد وصل أعلى درجة من درجات المعرفة الوجدانية، وتكون روحه في أعلى درجات القرب الإلهي.
- يا إلهي. ما أعظم ذلك المقام. علقت إيمان بصوت خافت.
- سوف يتحقق تماماً من قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[1]. ويتأكد أيضاً من مضمون الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[2].
- إذن الإنسان الكامل سيكون ذا حياة ووجود هائل جداً يا سيد ماهر. علق يقظان.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٥.

- مؤكداً. هل تتذكران الأسفار الأربعة للإنسان تجاه الله تعالى كما بينتها **الحكمة المتعالية**؟

- بلى. ردت إيمان.

- في الواقع، إن بعض المحققين قال إن **الحكمة المتعالية**، تلك الموسوعة الفلسفية الكبيرة، وإن كانت تحقق في مسائل **الوجود**، ولكنها بالنتيجة، تحدثت عن الإنسان الكامل ومقامه الشامخ. إن لكل مسيرة يقطعها الإنسان في سفره صوب الحقيقة سفراً عقليا. والحكمة المتعالية، عندما تعرضت لبيان الأسفار العقلية الأربعة، قد تحدثت في الواقع عن الأسفار الروحية للإنسان الكامل إلى الله، وأرادت ترجمة تلك الأسفار العظيمة بلغة العقل.

- فعلاً. سبق أن طلبت مني أن أذكرك بالحديث عن القلب والوجدان وعلاقتهما بالعرفان يا سيد ماهر. إيمان.

- نعم صحيح يا إيمان.

- قلتُ أن أذكرك به الآن لما سمعتك تتحدث عن مراتب **الوجود** العرفانية، ظننا مني أن الوقت مناسب الآن لطرح هذا الحديث.

- تنقصه مقدمة أخيرة.

- ٣ -

التجلّي والظهور

- أريد أن أعرض البرهان الذي أقامته **الحكمة المتعالية** على حتمية وجود الإنسان الكامل، وارتباط حقيقته الدائم بالوحي الإلهي. بعد ذلك، سيكون بالمقدور التعرض لموضوع العرفان وصلته بوجدان النفس والعلم الحضوري.
- تفضل مشكورا. علقت إيمان.
- يلزمني لأجل ذلك أن أعيد بعض المسائل المارة علينا في مبحث **الوجود والعلية**.
- وما هي تلك المسائل؟ سأله يقظان.
- هل تتذكران التفسير الذي قدمته **الحكمة المتعالية** عن سبب حاجة الكائنات إلى موجد، وسبب استغناء الموجود عن الاحتياج؟
- حاجة الكائنات إلى موجد يكمن في فقرها **الوجودي**. أجاب يقظان.
- أما سر استغناء العلة الأولى عن الحاجة فيكمن في وجودها الإطلاقي. أكملت إيمان.

- فعلاً. بموجب ذلك، يصبح الكون مرآة يظهر الصفات الإلهية. لأن الفقر المحض من الوجود، يعني استعارته من واجب الوجود، وعليه، لا يوجد في الخارج كائن واحد، يملك وجوداً من ذات نفسه، الكون فراغ من الوجود من ذات نفسه، ومملوء بـ الوجود من غيره. إننا في الحقيقة لا نشاهد في الخارج إلا الوجود الإلهي الذي ملأ كل شيء. هل يمكنكما أن تشيرا إلى موجود واحد ليس فيه وجود إلهي؟

- لا نستطيع قطعاً. علق يقظان.

- لا نستطيع لأنه مثل ذلك الموجود لا وجود له. متن الواقع الخارجي، بما فيه نحن، معبأ بـ الوجود الإلهي. إذن صفحة الكون تجل وظهور لوجود ذات واجب الوجود.

- لا محيص عن قبول هذه النتيجة بموجب بحوث الحكمة المتعالية في الوجود والعلية. علق يقظان.

- إن في القرآن ما يؤكد أن الكون مرآة وآية تظهر الوجود الإلهي. تلا السيد ماهر الآية ٥٣ من سورة فصلت: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾. حقيقة الآية هي أنها تدل على ذي الآية، ولا تدل على ذاتها أبداً، لأنه ليس فيها شي منها ولها. هذا بخلاف السراب، فهو يدل على ذاته، في الوقت الذي ليس فيه شيء من ذاته إطلاقاً، لذا عندما يصل المرء إليه، لا يجد شيئاً أبداً.

- ما أروع هذا التشبيه بين السراب وبين الآية. علقت إيمان.

- إنه مذهل. علق يقظان.

- ذكره لأول مرة في تاريخ الألوهية الإمام علي بن موسى الرضاعليه السلام ضمن محاورته التوحيدية مع مجموعة من منكري الألوهية. جرى الحوار في مجلس الخليفة العباسي المأمون. لقد زارته جماعة من الصابئة ممن ينكرون وجود الله تعالى ويعتقدون بأن الدهر هو الله تعالى. طلب هؤلاء من المأمون أن يقيم لهم حواراً علمياً مع كبار علماء الإسلام، ليناقشوهم في أدلتهم على وجود الله وصدق الدين الإسلامي. فما كان من المأمون إلا أن طلب من ولي عهده آنذاك، الإمام الرضاعليه السلام أن يتولى الحوار معهم. وفعلا، دار الحوار بين الصابئة والإمام الرضاعليه السلام. وأثناء الحوار، عندما بلغ الحديث أوجه، سأله المحاور من طرف الصابئة، وكان اسمه «عمران الصابئ» قائلا: أخبرني هل هو في الأشياء أم الأشياء فيه؟ فرد عليه الإمام الرضاعليه السلام بالنفي، ثم أراد أن يقرب له فكرة كيف يكون في الأشياء دون أن يمتزج بها وتمتزج به، فذكر له أمر المرآة، وكيف عندما نقف أمامها ونظهر فيها، لا نكون قد امتزجنا في ذراتها، في عين ظهورنا فيها.
- لم أسمع عن هذه المحاورة من قبل. يقظان.
- وماذا كانت نتيجة الحوار؟
- لقد أفحم الرضاعليه السلام الصابئة ودحض أفكارهم وأقام حججا متينة جداً على التوحيد. أقترح عليكما أيها العزيزان مراجعته.
- سنفعل يا سيد ماهر. ردت إيمان وهي تسجل في دفترها ملاحظة حول ذلك.

ـ ٤ ـ

التجلي الأعظم

- أريد منكما يا إيمان ويا يقظان، أن تلتفتا إلى هذا المثال جيداً.

- تفضل يا سيد ماهر. علقت إيمان.

- لنتصور رجلاً ذا علم جم، في شتى أبعاد الحياة؛ في الطب والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع، وله دراية في علم الاقتصاد، والإدارة، وله إطلاع عميق جداً في الفيزياء، والفلك.

- تصورناه. يقظان.

- هذا العالم أظهر لنا علمه في شكل كتاب. والكتاب كله من تصميمه، حتى شكله الخارجي والغلاف كذلك. وعندما طالعناه، وجدنا العلم مبثوثا فيه، ووجدنا البلاغة، والإتقان في عرض الأفكار، ووجدنا الدقة في استخدام الألفاظ، ووجدناه مبدعاً في عرض الأمثلة. إذن، لقد تمكن كتابه هذا من أن يصف كاتبه بصورة جيدة جداً.

- نعم. علقت إيمان.

- لقد قلت إن كتابه وصف الكاتب. فإذن الكتاب، وهو عمل خارجي، أضحى كاشفاً لصفات كاتبه.

- نعم يا سيد ماهر. واضح جداً. علق يقظان.

- فصفات الصانع تكشفها مصنوعاته. الواقع أن صفاته ليست ألفاظاً ننطقها، وإنما حقائق في الخارج. عندما يكتب يقظان على الورق: «الله قادر»، فإن ما هو مكتوب على الورق ليس إلا لفظا يحكي عن صفة القدرة. ولكن صفة القدرة متجسدة في المصنوع الخارجي. وبما أن المصنوع ليس شيئاً يحمل وصفاً، بل كل حقيقته ذلك الوصف، لأنه آية، فالمصنوع الخارجي هو الصفة.

- فهمت. تريد القول إن أسماء الله تعالى، التي تدل على أوصافه، هي في الحقيقة مصنوعاته. أليس كذلك؟ سألته إيمان.

- أحسنت يا إيمان. كنت أريد أن ألفت ذهنكما إلى أن الأسماء الإلهية حقائق خارجية.

- هذا مذهل حقاً. قال يقظان.

- بموجب ذلك، الكائنات كلها علامات وأسماء وصفات. ولكن، هل يوجد في الكون كائن يصف الذات الإلهية بالنحو الذي يكشف عن صفاته كلها؟ هل يوجد في عالم الخلق موجود يجسد الاسم الأعظم؟

- وما الاسم الأعظم؟ سألته إيمان.

- الاسم علامة وآية، والاسم الأعظم هو ذلك الاسم الذي يكشف عن جميع الصفات الإلهية. وبما أننا تأكدنا من أن العلامات حقائق خارجية، أعني أن الأسماء الإلهية كائنات في الخارج، فإن فرض وجود الاسم الأعظم معناه وجود كائن يكشف عن الصفات الإلهية برمتها.

- لا يستطيع الكائن مهما كان من شأنه أن يظهر الصفات الإلهية كلها. الكائنات محدودة الوجود، وهو تعالى وجود إطلاقي. علق يقظان.

- ليس من مانع يمنع أن يكون هنالك موجود يظهر الصفات الإلهية كلها، بالنحو الذي عليه ذاته من المحدودية. الوجود مراتب، ومن الممكن أن تظهر المرتبة الدانية للمرتبة العليا بنحو محدود.

- فعلا يا يقظان. ما لا يمكن أن يفعله المحدود، هو أن يظهر الكمال الإلهي كما هو، بلا حدود، ولكن أن يظهره بنحو محدود فهذا أمر ممكن. علقت إيمان وهي توجه كلامها إلى يقظان.

- الصورة الفوتوغرافية تظهرنا وفق حجمها ومحدوديتها. نحن نظهر فيها كما نحن بالضبط، ولكن أحجامنا تتناسب وحجم الصورة. إننا نتساءل: الكائنات مظاهر التجلي الإلهي، فهل يوجد ضمنها ما يمثل التجلي الأعظم؟

- أظن أن ذلك ممكن جداً يا سيد ماهر. أجابت إيمان.

- ليس ممكناً فحسب، بل وجوده محتوم. هل تتذكران قاعدة الفقر الوجودي؟ بموجبه يغدو الكون كله فقرا محضا، ليس فيه إلا ظهور الذات الإلهية.

- نعم نتذكر.

- وهل تتذكران قاعدة غرض الخلق، الكون؟ بموجبه، الكون موجود لأجل ظهور الكائن الذي يحقق المعرفة التامة في أعماقه. ذلك الكائن هو الإنسان الكامل.

- نعم نتذكر جيداً. علق يقظان.

- وهل تتذكران كذلك ما قررناه من أن المعرفة لا تتحقق إلا بالسير التصاعدي إلى أعلى درجات الوجود؟

- نعم.

- وأخيراً، هل تتذكران أن مراتب الوجود تحتم أن تكون كل درجة من درجات الوجود تحوي الكمال بنحو أشد، إلى أن تنتهي إلى اللانهاية؟

- نعم. من خلال كل ما مر، تريد القول إن الإنسان الكامل، عندما يصل إلى أعلى درجات الوجود، فيكتشف الحقيقة الإلهية، تكون قواه الوجودية قد بلغت الذروة، ويصبح مظهراً للكمال الإلهي بحسب سعة وجوده وتحمل ذاته.

- ها أنت يا إيمان برهنت على ضرورة وجود الإنسان الكامل المظهر لكافة الأوصاف والأسماء الإلهية. هذا

الإنسان، يصبح متصلاً من جهة المعرفة بذات واجب الوجود بنحو مستمر. الإيحاء الإلهي سيكون كائناً في أعماق وجدانه لا يزول عنه بتاتاً.

- هل تعني أن الوحي إذن، اتصال إلهي بالإنسان الكامل؟ سأله يقظان.

- بلى هو اتصال. الوحي نمط من الإدراك والمعرفة وله طرفان، طرف إلهي وطرف إنساني، ولكن ليس كل إنسان يمكن أن يكون الطرف الإنساني في الوحي، بل الإنسان المظهر للاسم الأعظم فحسب. هذا الوحي قد يبث التعليمات الربانية المتعلقة بهداية البشر، وقد يبث علم الوجود وأسراره في قلب وروح الإنسان الكامل.

- تقصد أن الوحي نوعان؟ يقظان.

- بلى. فهنالك وحي التشريع، وهو الذي يتصل بالأنبياء ليحملهم التشريعات الإلهية للبشر. وهنالك وحي التعليم. ويتعلق بالأولياء حسب علو مراتبهم ومقاماتهم. يرشدهم إلى الحقائق. الوحي يصبح الأداة التي يقرأ الإنسان الكامل بها صفحة الوجود، وعبره يكتشف لغز الحياة، وسر القضية كلها. القرآن أيضا أكد ترافق الوحي وتلازمه للإنسان الكامل.

- أين؟

- تأملي يا إيمان هذه الآية: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[1]. فالآية تصرح أن الخيرات التي تصدر عن الأئمة الهادين بالأمر الإلهي، إنما هي بقوة الوحي وإرشاده.

- فعلا. وبمنتهى الوضوح. يقظان.
- هل تعلمان ما واجبنا تجاهه؟
- تجاه من؟ سألته إيمان مندهشة.
- تجاه الإنسان الكامل.
- وهل يوجد واجب علينا تجاه الإنسان الكامل أيضا؟ سأله يقظان مستفهماً.
- بالتأكيد. لقد انتهت معرفتنا إلى حتمية وجود التجلي الأعظم المتمثل في كيان إنساني. وعرفنا أن الوحي ضرورة ثابتة تتعلق بقلب الإنسان الكامل. إن هذا يدفعنا إلى البحث عن الكائن الأعظم. فإذا وجدناه، يلزمنا عندئذ المضي خلفه في رحلتنا نحو اللانهاية. سيصبح المشي خلفه وتتبع خطاه هو الطريق الوحيد بنحو الحصر، والذي سيوصلنا إلى ينبوع الوجود.
- أتعني أن الإنسان الكامل موجود الآن؟ هذا أمر غريب جداً. علق يقظان مذهولاً.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

- وما وجه الغرابة في ذلك يا يقظان؟ ألم نثبت بأن غرض الخلق هو بلوغ الإنسان أعلى درجة من درجات القرب الإلهي؟ فلو لم يكن الإنسان الكامل المتصل بالوحي التعليمي الإلهي موجوداً الآن لتعطل غرض الوجود.

- تعطل غرض الوجود يبث العبث في الحياة. علقت إيمان.

- تماماً. والعبث مستحيل لأنه لا يسري إلى فعل الواجب كما تعلمان.

- وإذن.. وجود الإنسان الكامل يصبح حتماً لا محيص عن قبوله. يقظان بكل دهشة وتأمل.

ـ ٥ ـ

السير والسلوك

ـ إليكما بيانا عن العرفان الإسلامي.

ـ نتوق إلى معرفته يا سيد ماهر. إيمان.

ـ إن أقوى دليل يمكن تقديمه على مدعى وجود قوة إدراك ثالثة في الإنسان، يتمثل في العلم الحضوري الذي بواسطته أمكن للإنسان أن يشهد ذاته، ومن خلال ذاته أدرك ربه تعالى، كما وأدرك شؤونه النفسية وقواه الإدراكية، ومن هذا الاكتشاف، صنع له ذهنه المعقولات الثانية الفلسفية.

ـ ولكن ما صلة العلم الحضوري بذات الإنسان بالعرفان؟ سألته إيمان.

ـ سيتضح بعد قليل. علينا أولا أن نفهم المسلك الذي عبره نثبت وجود نمط آخر من الإدراك، غير البرهان العقلي الصرف، وغير الإدراكات الحسية. إن علماء الغرب وفلاسفتهم الذين يؤمنون بالعقل، لا يعترفون بذلك العقل الذي يقول به فلاسفة الإسلام. إنهم يرون العقل أداة تتلقى

الإدراك من الحس، الذي يمونها بصور الكائنات، ومن ثم، يقوم العقل بتحليلها وتركيبها. لكنهم لا يقبلون وجود نمط من المعارف تم إبتكارها من قبل العقل دون معونة الحس.

- وكيف نرد عليهم إذن؟ يقظان.
- نرد عليهم بأن نشير إلى ما يبتكره العقل من إدراكات يستحيل أن تبتكرها الحواس.
- من قبيل؟ إيمان.
- أنتما تعرفان جيداً. من قبيل المعقولات الأولية. صحيح إن ابتكارها راجع إلى معونة الإدراكات الحسية، ولكن الحس ليس المبتكر لها. لا يوجد في الخارج كائن بإسم إنسان، أو حيوان، أو جماد، حتى نقول بأن الحس هو المزود للعقل بصورة عنه. هل نسيتما؟
- كلا. أتذكر جيدا عندما سألتني أن أشير لك بجماد ما. إيمان.
- رائع.
- المعقولات الثانوية هي الدليل الآخر على وجود الإدراكات العقلية الصرفة التي لم يستعن العقل بالحواس في ابتكارها. يقظان.
- أحسنت. فإذا كان دور العقل التعميم والتحليل والتركيب فحسب، فمن أين له أن يعتقد بالمعقولات الثانية؟ كيف نشأت في أذهاننا؟

- لقد درسنا أن العلم الحضوري بالنفس هو الذي أعان العقل على ابتكارها. إيمان.

- أحسنت. فإذن ثمة طريقا ثالثا للمعرفة، يمر عبر شهود النفس. العلم الحضوري بالنفس للنفس يغدو غير قابل للإنكار إطلاقا. وهنا حجر زاوية المنهج العرفاني.

- كيف؟

- بما أن النفس مجردة من المادة، ومرتبطة تماما بموجدها ومفتقرة كليا إليه، فشهودها لذاتها شهود لها لمتعلقها، ولرابطها، ولموجدها الغني.

- نعم نعرف. هذه تسمى المعرفة الفطرية بالله ـ تعالى ـ .

- وبما أن هذه المعرفة تقبل الاشتداد، والمرء بإمكانه أن يغوص في أعماق معرفته الحضورية بذاته، فالمسلك الذي يقودنا إلى الغوص في أعماق علمنا الحضوري بذواتنا هو الذي نسميه بالعرفان.

- ولماذا أسميناه بالعرفان؟

- العرفان من شدة المعرفة. ولأن هذه المعرفة شهودية، والشهود أقوى من البرهان، أطلقنا عليه بالعرفان.

- هل تعني يا سيد ماهر أن العرفان ليس إلا الغوص في النفس عبر العلم الحضوري؟ إيمان.

- بلى يا إيمان. ليس العرفان إلا هذا. إننا ندعي أن المنهج

الذي يربي في الإنسان قدرته على الغوص في اتجاه النفس موجود في الدين، بل إن الدين يدعو أتباعه إلى هذا الطريق، لأن الغاية التي تتمثل في معرفة الله تعالى والتقرب منه، تتحقق بصورة صحيحة عبر هذا المنهج.

- كيف؟ يقظان.

- مر ذلك أيضا يا يقظان. المعرفة الشهودية أقوى، فالمطلوب سوف نناله بالمنهج العرفاني بصورة أشد وأوضح.

- وما ذلك المسلك؟ إيمان.

- المسلك هو التربية الروحية. التوبة، المحاسبة، المراقبة، التفكر، الذكر الإلهي، التأدب بالأخلاق الفاضلة، والإتيان بالعبادات الواردة في الشرع، إخراج حب المظاهر الدنيوية ونعيمها الفاني والمؤقت من القلب، يقوي القلب تدريجيا ويوجه الإدراك داخل النفس.

- لقد فهمت كيف يمكن للمرء أن يصل إلى معرفة الله الشهودية بالغوص في عمق النفس بالعلم الحضوري. لكن لم أفهم كيف يعرف حقائق الوجود الأخرى من هذا الطريق؟ يقظان.

- مر ذلك أيضا يا يقظان. هل نسيت حديثنا عن مراتب الوجود؟ بلوغ مرتبة معرفة الله بالشهود العرفاني يتطلب طي سائر المقامات الموجودة في الوسط. فأولى المراتب التي من المحتوم تجاوزها لبلوغ النفس، مرتبة الجسد والظاهر.

وإذا كان السالك قوي الإدراك، فسوف يقطع سائر الوسائط الأخرى أيضاً. ولكن بلوغ قعر معرفة النفس ليس بالشرط الوحيد لمعرفة الله الشهودية. إنها معرفة تشكيكية وذات درجات. أولى درجات الشهود تبدأ بتجاوز المنحدر المادي المتمثل بالبدن العنصري هذا.

- فهمت الآن. تقصد أن هناك من العارفين من يستطيعون تجاوز الجسم فحسب، فيصلون إلى شهود النفس في أول درجاته، وهناك من يتجاوز سائر المراتب المتمثلة في درجات الوجود. إيمان.

- أحسنت يا إيمان. إن إنكار المنهج العرفاني يؤدي إلى إنكار إمكانية بلوغ معرفة الله الفطرية وشهود الحقيقة النهائية التي لأجلها خلقنا. في الواقع إن غرض الخلق يتعطل إن لم يكن الدين يسوق إلى شهود الربوبية عبر العلم الحضوري. إن الأنبياء يدعون أن الوحي الإلهي يتنزل عليهم. والسؤال هنا: بأي قوة من قوى الإدراك يعرفون الغيب ويتصلون بالوحي الإلهي؟ الحواس لا شأن لها خارج دائرة المادة، والعقل لا يشهد شيئا وليس بأداة للشهود أساساً.

- فعلا. كيف لم أنتبه إلى هذه النقطة؟ يقظان.

- ليس ثمة طريق آخر لبلوغ الوحي الإلهي إلا عبر العلم الحضوري بالنفس. أعني السير القلبي باتجاه حقيقة الحقائق.

- هل تعني أن الأنبياء يشهدون الوحي في ذواتهم؟ إيمان.
- وإذن أين يشهودنه يا إيمان؟ القرآن صريح بأن الوحي الإلهي يتخذ قلب النبي مدرجا لهبوطه. تأملي هذه الآية: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[1].
- إذن القلب هو النفس؟ يقظان.
- نعم. ذكرت لكما ذلك سابقاً.
- سؤال أخير يا سيد ماهر: ما الذي يضمن أن العارف يشهد حقائق وليس أوهاما من عنده؟ أعني كيف نثق بالمنهج العرفاني في إيصالنا للحقيقة؟ إيمان.
- سؤال وجيه جداً وهام أيضاً. علينا يا إيمان أن نفهم أولا الصلة العميقة الموجودة بين أدوات الإدراك في الإنسان. العقل، والحواس، مرتبطة كلها بنحو بسيط في النفس. أليست النفس مجردة من المادة؟
- بلى.
- فإذن لا أطراف فيها. ليس بالإمكان قلع العقل منها، وفك الحواس عن القلب، وزحزحة القلب عن العقل. كل قوى الإدرك تعيش بنحو من الوحدة والبساطة في النفس. النفس وحدة اتصال بحت كما عرفتما. فعندما تتوجه النفس نحو المادة لإدراكها، لا تتجه الحواس صوبها وحدها، بل

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣ ـ ١٩٤.

تصحب معها العقل أيضاً. والدليل على ذلك، دور العقل في جعل المدركات الحسية مقبولة لدى النفس.

- نعم نتذكر. سبق أن عرفنا كيف أن العقل يلعب الدور الأهم في إيماننا وتصديقنا بالوقائع الحسية. إيمان.

- هذا ما يفعله العقل مع الشهود القلبي أيضاً. لو سألنا أحدهم عن الدليل الذي بموجبه صدقنا حواسنا التي نقلت لنا صور ما حولنا من الأشياء، فسوف نلجأ إلى الدليل العقلي. هذا الدليل سيتمثل في حضور القدرة العقلية عند الحواس أثناء التقاطها لصور الوقائع الخارجية. العقل أشرف على الحضور، ولحظ التطابق بين الصورة الموجودة في الذهن وبين أصلها الخارجي. حضور العقل يعني حضور النفس. النفس تشاهد الخارج بالعلم الحضوري، وتشاهد تطابق الصورة الذهنية بموضوعها الخارجي، وهنا تأمر العقل بصناعة مفهوم لها في الذهن. هل أنتما ملتفتان؟

- جيدا يا سيد ماهر. القلب، أعني النفس، تلقي بالحواس على الخارج، ولأن الحواس منطوية فيها، فيكون علمها حضوريا، هي تحضر في موقع المعلوم، وتلقي بالحواس لجلب صورتها في الذهن، ويقوم العقل بابتكار المفاهيم التي من خلالها سنظل نعرف ما عرفناه بعد أن تنقطع صلة الحواس به. وهكذا النفس أو القلب يتحرك في عالم الشهود أيضاً. يعني يصاحب العقل معه دائما. هل هذا البيان سليم؟ إيمان.

- ما أروعه من بيان وأقواه وأوضحه. أحسنت يا ابنتي. عندما يغوص العارف في العلم الحضوري بنفسه، ترافقه كافة قوى الإدراك. كل ما يشاهده العارف من الحقائق، تقوم بقية قوى الإدراك بدورها التكويني تجاهه. الذهن يصنع الصور، العقل يوجد المفاهيم، الذاكرة تحتفظ بالمشاهدات، وهكذا. العارف يدعم مشاهداته بالبراهين والحجج العقلية، التي تصبح دليلا على صدق وصحة ما شاهد.

- إذن هو الأسلوب ذاته المتبع في مشاهداتنا الحسية بلا فرق. يقظان.

- بلى. السؤال عن مدى صدق المنهج العرفاني في بلوغ الحقيقة يشبه كليا السؤال عن مدى صدق الأدوات الحسية في نقل الخارج، ومدى صدق الدليل العقلي في استدلالاته. وكما أن هناك من يشك شكا بليغا في المنهج العرفاني ولا يثق به، هناك من شك في الإدراكات الحسية، بل وهناك من شك في الدليل العقلي وواقعيته.

- والحل؟ إيمان.

- الحل يكمن في نظرية المعرفة التي تثبت قيمة المعرفة، والأدوات التي تستخدم في عملية الإدراك، وحجم ووظيفة كل أداة. المهم أن العقل كما يصبح رفيق الحس لكي يضمن سلامة ما التقطنا من معارف عبره، يرافق القلب والوجدان في رحلة الغوص إلى أعماق النفس. وكما أن

الإنسان يلجأ إلى المعارف البدهية لأجل معرفة الخطأ من الصواب، يلجأ إليها هنا أيضا في المعارف الوجدانية، المعيار هو نفسه. إن حلول نظرية المعرفة، كما أجزم، تكمن في دراسة الأبستمولوجيا الإسلامية.

- ما معنى الأبستمولوجيا؟ يقظان.

- يعني علم المعرفة. تلك كانت قصة **الحكمة المتعالية** أيها العزيزان. لم يتبق عندي ما أقوله.

- الحمد لله الذي وفقنا لتلقي هذه الدروس من أستاذ قدير. علقت إيمان.

- لست هكذا. لكنني أرجو أن أكون كذلك مستقبلاً.

- في الواقع لقد تجاوز شرحك مستوى تقديم فكرة موجزة إلى شيء من التعمق أيضاً يا سيد ماهر. إيمان.

- لقد أحسنت كثيراً. يقظان.

- لقد أكملت لي **عالم صوفي** يا سيد ماهر. علقت إيمان مبتسمة.

- أرجو أن يسافر في هذا البعد أولئك الذين لا يؤمنون بوجود فلسفة إسلامية بهذا الحجم والضخامة والعمق والأصالة.

- فعلاً. نرجو ذلك.

- إليكما الملخص:

- √ الإنسان الكامل هو الذي يحقق غرض الوجود والغاية من الخلق، وهي معرفته تعالى وبلوغ قربه.
- √ وجوده حتمي وإلا تتعطل الغاية من الخلق. كما أن اتصاله بالوحي ضرورة تقتضيها مقامه التكويني.
- √ الإنسان الكامل يصل أعلى درجات القرب الإلهي. هذه الدرجات حقيقية، وهي بمثابة السير تصاعديا في مراتب الوجود.
- √ هذا السير يؤدي إلى تأجج القوة والقدرة والوعي ليصل إلى أوجه.
- √ الإنسان الكامل يمثل الاسم الأعظم عملياً، على أساس أن الكون محض فقر ومظهر للوجود المتعالي.

كان الوقت قد بلغ منتصف النهار، صلى الجميع في غرفة المكتبة، وعاد السيد ناصر باكراً هذا اليوم، إذ كان غداء السيد ماهر عندهم في المنزل. حرصت أم يقظان أن تقدم طبقين من الأطباق العمانية الأصيلة للسيد ماهر، بالإضافة إلى طبقين من الأطباق اللبنانية الشهيرة. لفتت السيد ماهر صورة ضخمة لمنظر طبيعي في غرفة الطعام مكتوب عليها : وادي دربات. صلالة. سلطنة عمان.

- هل هذه صورة لعمان يا سيد ناصر؟

- هذه صورة لواد جبلي في صلالة. إنها تبعد عن مسقط بحوالى ١١٠٠ كيلو متر. رد السيد ناصر.

- ما أجملها. إنها خضراء تماماً. أكاد لا أصدق أن تكون هذه عمان.

- الأمر صعب التصديق حتى بالنسبة لنا يا سيد ماهر. علق السيد ناصر والد يقظان واسترسل قائلاً: في شهر تموز، وآب، وأيلول، تلبس صلالة حلة خضراء، نحن نسمي هذا الموسم بموسم الخريف في صلالة. يتوافد الناس من مختلف الدول لقضاء بضعة أيام فيها في تلك الفترة. لا بد أن تزورها يوما يا سيد ماهر. الجو مذهل ولا يوجد له مثيل في الخليج كله.

- سأفعل حتماً إن شاء الله.

أنهى السيد ماهر غداءه، وودع الجميع، وانطلق في سيارة الفندق إلى غرفته. وكان السيد ناصر قد وعده أن يقوم باصطحابه إلى المطار مساء اليوم.

الفصل العاشر

الخَاتِمَةُ

ـ ١ ـ

التعديل النهائي لرسالة إيمان

كان الوقت قد شارف منتصف الليل، أعادت إيمان ملخصات دروسها في درج طاولتها، بعد أن وضعتها كلها في ملف أنيق. كانت تحس ببعض الإرهاق. فقد ذهبت هي ويقظان برفقة والدهما إلى المطار لتوديع السيد ماهر، ثم تعشوا في مطعم كارجين، قبل أن يعودوا إلى البيت. وبالرغم من تعبها، قررت إيمان أن تكتب شيئاً. أو بالأحرى، تعيد صياغة وتعديل ما سبق وأن كتبته. إنها رسالتها للسيد غاردر، مؤلف رواية **عالم صوفي**.

أخرجت إيمان رسالتها، وأعادت قراءتها، ثم أجرت تعديلات هامة فيها، ثم بدأت بقراءتها مجدداً:

حضرة السيد المايجور/ البرت كناغ المحترم

يسعدني سيدي المايجور ويشرفني أن أبلغك أحر التهاني القلبية للنجاح الساحق الذي حققه كتابك «**عالم صوفي**»، الذي أهديته لابنتك «هيلد موللر كناغ» يوم عيد ميلادها الخامس عشر

المصادفِ ليوم الجمعة الخامس عشر من حزيران عام ١٩٩٠ م. لقد نجحت سيدي المايجور بتقديم تاريخ مسل ورائع للفلسفة، إذ أنزلتها بذلك من برجها العاجي، وأزلت عنها غبار النسيان الذي التصق بها، جراء هجرة الشباب لها ومقتهم إياها. ولقد استطعت بمخيلتك الواسعة والخلاقة أن تتحدى الملل أن يتسرب في نفوس قراء كتابك الفذ بابتكارك «صوفي أمندسون» وأستاذها الفيلسوف «البرتو كنوكس» ضمن رواية مليئة بأحداث جميلة وجذابة. ولا عجب بعد ذلك أن يشهد عالم صوفي كل هذا الإقبال، ويترجم إلى كل تلك اللغات. هنيئاً لك سيدي المايجور، ببساطة فلقد نجحت.

وكما تعلم سيدي، من المحال أن تخلو أعمالنا، من ضعف ما، مادامت عقولنا تتسم بالمحدودية، لذا فمن القبيح للمرء أن يحاول تقنص الأخطاء، لاسيما إذا كان العمل ـ كعملكم ـ مبدعاً وفريداً في بابه، لأن ذلك سيدل على قلة ذوق ذلك الباحث عن العثرات، وقد أعماه البحث عن السلبيات، لحظ روعة العمل وشدة جاذبيته وجماله، ولهذا سيدي المايجور فسوف أمنع قلمي لأن يصاب بهذه الآفة، وتأكد أن جمال «عالم صوفي» الأخاذ سيمنعني من ذلك وإن حاولت.

ثمة موضوع، لا بد لي سيدي أن أناقشه معكم، لأنني أعتقد أن أهميته كبيرة للغاية، بحيث يبدو لي وكأن جزءاً غاية في الروعة والبهاء قد ضاع في «عالم صوفي» وذلك للسرعة

الهائلة التي بلغ إليها قلمكم في بعض فصول الكتاب، وكانت ضحية هذه السرعة الهائلة ابنتكم الغالية «هيلد» التي تلقت هدية عيد ميلادها ناقصاً! وبطلتكم المسكينة صوفي كذلك يا سيدي المايجور، إذ حجب عنها أستاذها الفيلسوف «ألبرتو» أروع جانب في تاريخ الفلسفة وهي في أوج مراحلها على الإطلاق، فلم يقدم لهما درساً واحداً عن ذلك الجانب الضائع. وهكذا فإن سائر قراء «عالم صوفي» قد وقعوا في نفس مشكلة «صوفي» و«هيلد»!.

دعني سيدي المايجور أشر لك بالتحديد أين وقع ذلك؛ إنه في فصل «القرون الوسطى». ففي الوقت الذي منحتَ لكل فيلسوف إغريقي وغربي، بين صفحة واحدة إلى ٥ صفحات، تسرد فيها دروسك عنهم وعن إنتاجهم الفلسفي، على لسان ألبرتو، فإن قلمك زاد من حدة سرعته حتى تمكن من أن يختزل إنتاج الفلاسفة المسلمين وتاريخهم في ٢١ سطراً فقط! هذا مع اعتراف ألبرتو بأن ابن رشد ترك الأثر الأكبر على الفلسفة الأوروبية، كما أن الحضارة الإنسانية بنت كل مفاهيمها عن أسس علم الاجتماع الحديث على مقدمة ابن خلدون الشهيرة. لكن قلمك شاء أن يختزل دور الفلسفة التي تركت أكبر الأثر على تفكير أوروبا في بضع سطور فحسب، وهكذا فوت لسانك الناطق «ألبرتو» على «صوفي» معرفة إنتاج فلسفي غزير، تطور ليصل إلى حكمة متعالية. الحق سيدي المايجور، إنكم باختزالكم أو لنقل تأجيلكم لدروس صوفي في الفلسفة

الإسلامية، وتاريخها، ودورها الكبير في رقي الفكر الفلسفي، قد ضيعتم على ابنتكم الغالية فرصة التعرف إلى أروع الحلول لأعتى المشكلات الفلسفية، التي ظلت عالقة قرونا من الزمن دون حل! نعم لقد فات «هيلد» و«صوفي» فرصة التعرف إلى أروع برهان تم ابتكاره لإثبات وجود الله تعالى، المعروف ببرهان واجب **الوجود**، الذي رسم معالمه الأولية الفيلسوف المسلم الفارابي، وطوره الشيخ الرئيس ابن سينا، ثم أتمه وفقاً لقاعدة **أصالة الوجود**، الفيلسوف الشيرازي محمد بن إبراهيم. وفات الفتاتين فرصة معرفة الحل الذي قدمته **الحكمة المتعالية** لمشكلة علاقة الأزلي بالحادث والمجرد بالمادي والروح بالجسد والقدم بالحدوث، عندما سنحت الفرصة لمدرسة أصفهان الفلسفية أن تبتكر على يدي صدر المتألهين الشيرازي نظرية الحركة الجوهرية.

الأرجح سيدي المايجور أن «هيلد» لم تسمع من قبل عن ابن سينا، وهذا سيدي لعمرك من أعجب الأمور. فالرجل الذي ملأ الشرق والغرب بنتاجه العبقري، كيف فات عليكم حث ألبرتو على تقديمه لصوفي؟ لقد حجب ألبرتو عن صوفي دروسا عن رجل سبق نيوتن بسبعة قرون إلا عشرة أعوام في اكتشاف قانون الجاذبية، إنه الرجل الذي افادت أوروبا برمتها من كتابه في الطب «القانون»، وكذلك كتابه الشفاء، الذي ترجمته أوروبا على مرحلتين: الأولى في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، والأخرى بعد الأولى بمائة عام ليساهم في النهضة العلمية

الحديثة أتم مساهمة. وبما أن الحديث هو عن الفلسفة، فلست أدري، سيدي، سبب إخفاء «البرتو» عن «صوفي» حلول ابن سينا حول علاقة النفس بالجسد وحقيقتها، وخلودها، وجانبي المعرفة الحسية والمعرفة الإشراقية منها، التي كانت قد غذت أمَس القضايا التي كانت الفلسفة المدرسية في مسيس الحاجة إليها. إن «ألبرتو»، سيدي المايجور، قد خصص مجموعة من الدروس عن القديس «توما الأكويني»، ولكنه، ويا للعجب، لم يخبر صوفي أن هذا القديس كان قد استشهد في خلاصته اللاهوتية بابن سينا ٢٦٠ مرة! ترى كم ستكون خيبة أمل «صوفي» كبيرة عندما ستدرك أن «ألبرتو» أخفى عنها، أيضاً، مدى انشغال كلية أصول الدين بباريس بمحاولات الشيخ الرئيس في التوفيق بين العقل والنقل فيما يتعلق بعلاقة الإله بالعالم؟.

وستكون خيبتها في أوجها عندما تعلم «صوفي»، وهي الوسيلة الوحيدة «لهيلد» لكي تدرك شيئا، أنه بين عام ١٥٧٢م وعام ١٧٠٣م ظهر فيلسوف من مدينة أصفهان ساق الفلسفة إلى ذروتها إذ أوجد الحلول النهائية لكبرى المسائل المعلقة، بالتوليفة العجيبة التي ابتكرها وهي المزج بين ما جاء في الكتب السماوية وأحاديث الأنبياء وبين الكشوف العرفانية وبين البراهين العقلية فكانت **الحكمة المتعالية**.

مسكينة «صوفي»! إنها تجهل أن مسائل من قبيل: من أين

جاء العالم، ولماذا يحتاج إلى موجد، ولماذا استغنى الإله عن الحاجة، وما سر الفقر في الكائنات، ومنشأ الغنى في الإله، تعد أسئلة قديمة قد أجيب عنها بمنتهى الدقة الفلسفية والاستحكام المنطقي في الجانب الإسلامي من تاريخ الفلسفة، في الوقت الذي لا يزال الغرب يجهل هذا الجانب! لهذا سيدي المايجور فإنني أعتقد أن «عالم صوفي» رغم كونه يقع على مساحة ٥٥٠ صفحة، إلا أنه ناقص! فقد ضاع فيه جزء هام للغاية، وينبغي سيدي أن يعود «ألبرتو» مجدداً في حياة «صوفي» ليقدم لها دروساً جديدة يخرجها نهائياً من حيرتها، بالتحدث عن الشيخ الرئيس وعن نظرية واجب الوجود، وعن أصالة الوجود، والحركة الجوهرية، عندها فحسب سيكتمل «عالم صوفي».

إنني، سيدي المايجور، لن ألوم «ألبرتو» كما ستفعل «صوفي»، ذلك لأن «ألبرتو» لا يعدو أن يكون إلا أنفاس المايجور، فاللوم إذن يجب أن يصدر من «هيلد»، لأنها الأولى بذلك لينال المايجور نفسه!

لنعد، سيدي المايجور، إلى القصة من الموقع الذي انتهت فيه، هناك حيث «ألبرتو» و«صوفي» يحاولان فك المراسي المربوطة بحلقات فولاذية، وتقول «صوفي» إن الفيلسوف الحقيقي لا يعترف بالفشل النهائي أبدا، لنعد إليها هناك، ماذا لو أن الأستاذ بدأ من جديد بتقديم درس عن

واجب الوجود وضرورة وجوده المنطقية طالما أن هناك ممكن الوجود؟ إن الدرس الأخير كان عن الانفجار العظيم الذي يشكل أرضية جيدة لإثبات حدوث الكون. والحدوث سيدل بالضرورة على إمكانه، والإمكان لا يمكن تصور تحققه إلا في ظل وجوب الوجود، ومعنى ذلك أن واجب الوجود موجود حتماً. وبعد ثبوت وجود واجب الوجود، سيكون سهلا جداً الدخول في سائر دروس الحكمة المتعالية.

سيدي المايجور، إن الأمانة العلمية تتطلب منكم عدم إخفاء الحقيقة مهما كان الثمن، هذا إن كنتم قد أحطتم علماً بتاريخ الفلسفة الإسلامية وثمارها، وإلا فسوف تجدون مرفقاً بهذه الرسالة دعوة مخصصة لكم ولابنتكم لحضور دروس عن التاريخ المكمل لعالمكم ...عالم صوفي أو عالم هيلد فلا فرق. وبانتظار ردكم.

وختاماً تقبلوا فائق الاحترام من عاشق لعالم صوفي.

إيمان ناصر

مسقط ـ سلطنة عمان

بدت على وجه إيمان علامات الرضا، عندها، ختمت الرسالة بتوقيع صغير منها أسفل الخطاب، ثم دسته بعناية في ظرف بنفسجي اللون، وكتبت على ظهره العنوان، وقررت أن تلقي به في البريد غداً صباحاً. كانت الساعة تشير إلى الرابعة فجراً بتوقيت مسقط، عندها استلت إيمان من فراشها بنشاط،

وصلت الفجر، وأعقبتها بتلاوة للكتاب المجيد، بعدها رمت بنفسها على فراشها منهكة. ولم تمض دقائق حتى جرها السبات من غرفتها إلى عالم أثيري مذهل!.

- ٢ -

محاكمة فلسفية في فضاء الأثير

هناك..

وجدت نفسها في مسجد ذات ١٠٠٠ منارة!

لم تنتبه إيمان كيف علمت أن عدد هذه المآذن يبلغ الألف. هكذا الحال في دنيا المنامات! فهناك الحدس يغني عن العد. وفي باحة المسجد، شاهدت ما ملأ كيانها رهبة وتوجس. قاعة هائلة، على نسق قاعات المحاكم، قد أعدت بشكل يمكن وصفه بأنه آية في الجمال. الأرضية من الكريستال المصقول، بدا وكأنه لجة من ماء، وقد اصطف فيها ألف كرسي من خشب مطعم بجوز فاخر، يجلس عليه جمهور لم يسعف إيمان حدسها العجيب التعرف عليهم. أما منصة التحكيم فكان من الذهب الخالص، وقد جلس عليه رجال منهم: أفلاطون، وأرسطو، والدكتور محمد عابد الجابري، والدكتور عبد الرحمن بدوي، والفارابي، والفخر الرازي، وعبد الكريم الشهرستاني، ومحمد حسين الطباطبائي، ومرتضى المطهري، وغير هؤلاء ممن عجزت إيمان عن التعرف عليهم. يا له من خليط جمع بين

الماضي والحاضر في صف واحد! وفي الزاوية شاهدت منصتين منفصلتين، الأولى: كانت لممثل المدعي العام والذي جلس عليها شيخ الإسلام الغزالي، بينما خصصت المنصة الأخرى لموكل الدفاع. وكم كانت دهشة إيمان كبيرة عندما رأت أن الذي يجلس عليها هو الفيلسوف المتكلم نصير الدين الطوسي. وفي وسط منصة التحكيم بدا قفص الاتهام من الذهب المطعم بالمينا، والمرصع بزمردات خضراء متوهجة، وفي وسطها وقف رجل متوسط القامة، نحيف المنكبين، كث اللحية.

لم تشك إيمان لحظة واحدة بأنه، الشيخ الرئيس ابن سينا. أما المفاجأة العظمى فكانت منصة قاضي المحكمة، أعلى المنصات في القاعة. حيث بدت فضية المنظر نقشت فيها زخارف تستصعب العين تأملها لشدة ميلان خطوط الزخرفة وكثرة ألوانه. لقد كانت فارغة! وهاهو حدس إيمان يمليها التوجه صوبه والجلوس عليه. هي إذن لقاضي هذه المحكمة الفلسفية الأثيرية!.

لم تدر إيمان كيف ارتقت المنصة، لكنها الآن تجلس عليها. وهو ذا المدعي العام، الإمام الغزالي يتقدم بكل ثبات وتواضع وخشوع وشفتاه ترددان آيات من الذكر الحكيم. وقف شيخ الإسلام وسط منصة التحكيم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر النبي وصلى عليه، وبعده ابتدر يقول:

- أيها السادة الكرام، كلكم تعرفون من هو هذا الرجل الذي يقف في وسط قفص الاتهام. إنه رئيس الفرقة المضلة من المتفلسفين الذين مرقوا من الدين الإلهي القويم، بترويجهم لأفكار حكماء اليونان، مسببين بذلك انتشار الأباطيل بين المسلمين. إنه الرجل الذي يستحق من الفكر الإسلامي أسوأ معاملة لأنه سود صحفه الكريمة بنظريات إلحادية عديدة، ومع الأسف فإن هذه المحكمة قد أعدت للنظر في مرافعة واحدة فقط، ألا وهي تثبيته للباري تعالى شريكاً لقوله بقدم العالم! إن الرجل الواقف أمامنا في قفص مرصع بالزمرد ينتظر لأن يبدل قفصه بآخر من نار عليها زبانية غلاظ شداد. إن التهمة التي نواجهه بها اليوم هي محاولته الدنيئة لإثبات قدم العالم، والتي تفضي إلى سد باب إثبات الصانع والقول بتعدد القديم، وإثبات الشريك، تعالى عما يقوله المتفلسفون علواً كبيراً. إنني أطلب من المحكمة أن تنزل بالمتهم المتفلسف المارق أقسى العقاب، ألا وهو طرده من الفكر الإسلامي واعتباره من المارقين. وقطع صلته كلياً بكل ما هو إسلامي.

صمت مطبق، وعينا إيمان لا تكفان عن النظر في وجوه أصحاب منصة التحكيم والجمهور بصورة مختلسة سريعة. لقد شاهدت ابتسامة رضا عريضة في بعض الوجوه من قبيل وجه الدكتور الجابري، ووجوم في أخرى.

- هل لموكل الدفاع من كلمة؟.

- نعم.

إنه «الطوسي». الفيلسوف الكلامي. نهض الرجل بكل وقار، ووقف بجانب قفص الاتهام ونظر نظرة عميقة المغزى إلى المآذن الشامخة والمطلة على بهو المسجد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر النبي وصلى عليه وآله، وابتدر يقول:

- إنه من المؤسف أن يجتمع دعاة الحضارة لأجل شنق مؤسسها. شنق رجل حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب وهو في العاشرة من عمره. رجل لشدة تحصيله العلمي الخارق قد استحصل كل ما ينبغي تحصيله قبل بلوغه سن العشرين فلم يزدد بعد ذلك بشيء. رجل عشق تراثه الغرب فنهلوا من علمه ما أمكنهم أن يؤسسوا أشد المناهج العلمية حضارة. إن سيدي الإمام الغزالي قد وقع في اشتباه عظيم إذ اتهم ابن سينا بالكفر، وإنني أيها الحضور الكريم مستعد للدفاع عن التهم المشار لها في كلام سيدي الإمام إن شاء الله تعالى.

- لست أظن أنك وأنت بهذه السعة من المعرفة بتاريخ هذا الرجل، تجرؤ على إنكار جموح صاحبك إلى القول بقدم العالم التي نادى بها جمهور الفلاسفة من قبله. وإن كنت قد ملأت وجدانك بآيات الذكر الحكيم فلست أظنك تنكر بأن القرآن يصرح بأن العالم صنعه تعالى. ألست ترى ان ما ذهب إليه صاحبك يخالف صريح القرآن العظيم؟

- لست بمنكر لما تقول يا سيدي الشيخ. وقبل أن ألفت

نظرك الكريم إلى ما ذهلت عنه، أودك أن تجيبني: ما هي القيمة التي منحها القرآن الكريم للعقل ونتائجه؟

- إنها لكبيرة أيها الرجل. فلقد ندب القرآن إلى التفكير والتعقل في أكثر من ٣٠٠ آية.

- إذن تتفق معي أن النتائج التي خلص العقل إليها ستكون مقبولة من وجهة نظر القرآن الكريم إذ أنى له أن يدعو إلى أداة لأجل التفكير ثم يتنكر لما أفضت إليه؟

- هذا صحيح وربي.

- فإذن ما انتهى البحث العقلي إلى نتيجة تبدو مخالفة لما دعا إليه الشرع فالحل كامن في واحدة من النقطتين التاليتين: إما أن ما ظنناه بحثاً عقلياً لم يكن كذلك، وإما أن ما ظنناه رأياً شرعياً فهو ليس كذلك.

- بلى.

- قل لي الآن سيدي الشيخ: أليس الحق تعالى موجد لكل شيء وهو علة ما سواه؟.

- نعم.

- فكيف توجد العلة ولا يوجد معلولها والعلة هي الموجدة له بغلقها لأبواب العدم عنها؟.

- إن هذا لا يجري في العلة المختارة أيها الرجل. فالفاعل الاختياري يشاء الوقت الذي يريد فيه إيجاد العالم. هو

سبحانه موجود أزلي، لكن العالم ليس كذلك، لأنه تعالى شاء أن يوجده فيما بعد.

- ولكن ما مرجح الاختيار والأزمنة كلها واحدة؟ والترجيح بلا مرجح دال على العبث.

- لا شأن لك بذلك. فليختر ما يشاء بلا اعتراض ولا تدخل منك ولا من صاحبك .

- أرجو من لجنة التحكيم الموقرة أن تلتفت إلى أن سيدي الشيخ لم يجب بشيء، وإني لا زلت أسأله عن المرجح الذي جعل الفاعل يختار لفعله زمن دون آخر والأزمان قبل العالم متشابه! أما موكلي فلم يرض بذلك بل جعل العالم موجوداً منذ أن تكون علته موجودة، لأنه آمن بالنتيجة التي تفضي إليه القاعدة العقلية الصريحة بأن العلة إذا تواجدت وجب وجود معلولها بلا تخلف، وكان الشيخ قد اتفق معي أن نتائج البحث العقلي ملزمة ومقبولة.

انهمكت لجنة التحكيم بتسجيل ملحوظاتها. عاد الإمام إلى الكلام وهو يقول:

- وما تقول في النتيجة القبيحة التي انتهيت إليها بتحليلك السابق الذي زعمته عقلياً. إنك قد سددت باب إثبات الصانع تماماً بقولك إن العالم قديم. وهذا مخالف لروح القرآن ومعطل لخالقية الله تعالى لما سواه.

- لكنك يا سيدي واقع فيها كذلك. إنك تقول بأن الله تعالى أوجد العالم في زمن ما. ولكن ماذا عن ذلك الزمان؟ هل أوجده في زمن غيره؟ فإن قلت نعم لتسلسلت الأزمنة إلى ما لا نهاية وهذا باطل فضلاً عن أن القول به إثبات لشريك للباري تعالى، ألا وهو الزمان. وهكذا فالقديم تعدد لديك أيضاً. وإن قلت لا فقد أثبت نوعا من الإيجاد غير الزماني للعالم. إنني أطلب من المحكمة أن تتأمل ملياً ذلك لأن الشيخ واقع فيما أراد اتهام موكلي به.

يحاول الغزالي أن يتحدث ولكن المحكمة تطلب منه التريث ريثما تكتب اللجنة ملحوظاتها.وهنا يطلب أحد أعضاء لجنة التحكيم تقديم إفادة فيقول موجها كلامه للطوسي:

- إنك يا سيدي في النقطة الثانية لم تستطع نفي التهمة الموجهة لابن سينا ولكنك فحسب أثبتها لغيره أيضاً ومعنى ذلك أن التهمة ثابتة في حق ابن سينا والغزالي كذلك.

وهنا يبتدر شيخ الإسلام قائلا:

- لهذا فإني أرى أن العقل البشري عاجز عن الفرار من هذا المأزق. عليه يجب أن يغلق باب الولوج بالعقل في هذه المسائل.

- إن الإمام بهذا يثبت للعقل عجزه عن حل المسألة علماً بأنه اتفق معي في البداية أن القرآن عول على العقل كثيرا في المعرفة واقتنى نتائجه. بينما لم يتنكر موكلي

للعقل ولم يثبت له العجز بل حل المسألة دون أن يقع في مأزق سد باب إثبات الصانع أو الوقوع في مأزق القول بتعدد القدماء. لقد ابتكر موكلي قاعدة «الحدوث الذاتي» عوضاً عن الحدوث الزماني. فسواء ثبت الحدوث الزماني أم عجز العقل عن إثباته للعالم، فالعالم حادث ذاتاً على كل حال. إن الحدوث الذاتي معناه أن كل كائن معلول متأخر في الوجود بالنظر إلى علته ومتوقف في وجوده على علته. وهذا التأخر يثبت له نمطاً من الحدوث على مستوى الذات وإن لم يثبت له الحدوث على مستوى الزمان.

- إن هذا إلا تخرص ولعب باللفظ وتحريف له. رد الغزالي.

- كلا سيدي الشيخ. تأمل حركة اليد التي تمسك بالمفتاح. ألست ترى بأنه عند حركة اليد تحرك المفتاح؟ لم يكن بين المفتاح واليد زمن بل تحرك مع حركة اليد ولكن حركته ترجع إلى حركة اليد. أليست حركتها حادثة بالنظر إلى سبق حركة اليد لها؟ إنني أطلب من المحكمة أن تتأمل مليا في الحدوث الذاتي. إنه باب ولج منه موكلي إلى القول بإثبات الصانع وعدم وجود قديم غيره تعالى.

- إن ما تطرحه لا يعدو أن يكون فذلكة كلامية تريد بها تحريف اللفظ عن مواضعه. إنني أطلب من المحكمة بضرس قاطع أن تصدر حكم الطرد وعدم انتساب آرائه إلى الإسلام.

مرة أخرى يجتاح القاعة صمت رهيب كالذي اجتاحها قبل بدء المرافعات. اللجنة أنهت ملحوظاتها ورفعتها في ورقة فضية إلى منصة قاضي المحكمة. أجالت إيمان النظر فيها فرأت آيات من الذكر الحكيم مما أدهشها ذلك كثيراً. الكل ينتظر الحكم..

صدر صوتها ثابتاً، قوي النبرات، ولطيفاً في الوقت ذاته:

- بعد التأمل في نتائج المرافعات، ووضع ما أبدته اللجنة الكريمة من ملحوظات بنظر الاعتبار..

لقد قررت هذه المحكمة...

- إيمان استيقظي! لقد قاربت الساعة الواحدة ظهراً. استيقظي..

مصادر الكتاب

■ القرآن المجيد

■ الإرشاد ـ محمد بن محمد المفيد

■ التوحيد ـ الشيخ الصدوق

■ نهج البلاغة: صفوة الشروح ـ أركان التميمي

■ ميزان الحكمة ـ محمد الري شهري

■ مفاتيح الجنان ـ الشيخ محمد رضا القمي

■ أصول الفلسفة والمذهب الواقعي ـ السيد محمد حسين الطباطبائي

■ الحكمة المتعالية ـ محمد بن إبراهيم الشيرازي

صدر للمؤلف

الكتب: ـ

١ ـ تعليقات فلسفية على رسالة الطلب والإرادة. دار المحجة البيضاء. بيروت. عام ١٩٩٣م.

٢ ـ تعليق وشرح مقالة: علم الإمام للعلامة الطباطبائي. دار المحجة البيضاء. بيروت. عام ١٩٩٣/م.

٣ ـ المعرفة والنفس والألوهية في الفلسفة الإسلامية والمدارس الفلسفية الأخرى. دار الساقي. بيروت. ١٩٩٤/م.

٤ ـ برهان الصديقين. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. ٢٠٠١/م.

٥ ـ موجز سيرتنا وسنتنا للعلامة الأميني. مطابع فائق الملونة. مسقط. ٢٠٠٤/م.

المقالات:

١ ـ علامات إستفهام إلى الدكتور محمد عابد الجابري. مجلة السراج. مسقط. يناير ١٩٩٣/م.

٢ ـ ويسألونك عن الروح. مجلة المشاهد السياسي. العدد ٣٦. سبتمبر ١٩٩٦/م.

٣ ـ التوسل وأبعاده النفسية والدينية والفلسفية. جريدة الخليج. دبي. العدد ٧٧٦٧ التاريخ ٤/٨/ ٢٠٠٠/ م.

٤ ـ ما الذي يرفع الثوب عن العقل ومتى؟ مجلة المرأة اليوم. العدد ٢٢١ ـ تاريخ ٢٠/ ٥/ ٢٠٠٥/م المقالات المنشورة في مجلة الرؤيا العمانية من العدد ٤٦ وما يليه.

٥ ـ نحروه أم انتحر..ما لها وما عليها.

٦ ـ نظرة في معضلات التعليم والتوظيف (حازت على المركز الأول مناصفة في مسابقة الإبداع الإعلامي ـ المقال الصحفي ـ الذي نظمته وزارة الإعلام العمانية بتاريخ ٥/ ١٢/ ٢٠٠٥/ م).

٧ ـ شهر الله تعالى.

٨ ـ مسقط بين عاصمة للثقافة وبين مدينة دائمة لها.

٩ ـ المكانة المرموقة ومشروع استباق الزمن.

١٠ ـ ميثاق الشرف الإعلامي.

١١ ـ نيوزويك العربية في دائرة ضوء النقد والتحليل.

١٢ ـ أضواء على عقبات أمام طموحات التعمين.

١٣ ـ الفكر بين المادة والتجرد.

١٤ ـ ماضي الحضارة العربية ومستقبلها.

تَمَّ بِحَمدِ اللّه

الفهرس

دعوة ٥
شكر وتقدير ٧
إهداء ٩
المقدِّمة ١١
الفصل الأوّل: أَسْئِلَةٌ مُحَيِّرَةٌ ١٣
١ ـ رسالة شكر وتقدير إلى السيد غاردر ١٥
٢ ـ كوارث العام... إلى أين تتّجه مسيرة الحياة؟ ٢٠
٣ ـ بين المشي على الجمر والنوم على الشوك ٢٩
الفصل الثاني: الفَلاسِفَةُ المُسْلِمُونَ ٣٧
١ ـ الحياةُ الفلسفيّة ٣٩
٢ ـ الرؤية الكونيَّة ٥٦
٣ ـ الإحاطة التامّة والأمانة التامّة والالتزام التامّ ٦٦
٤ ـ الفيلسوف الصوفيّ ٧٢
٥ ـ حُلم الحكمةِ المشرقيَّةِ الكاملةِ ٧٨
٦ ـ اثنان وخمسون رسالةً ورسالةٌ ٨٤
٧ ـ فلسفة الأنوار ٨٩
٨ ـ مزج شراب الفلسفة بمشروب الدين ٩٤
٩ ـ وحدة الوجود والإنسان الكامل ١٠١
١٠ ـ الفلسفة وعلم الكلام يتبادلان الأثواب ١١٠

١١ ـ الحكمة المتعالية وصلتها بـ نهج البلاغة ١١٦

الفصل الثالث: المَعْرِفَة ١٣١

١ ـ منضدة الأفكار ١٣٣

٢ ـ هل للذهن بذور؟ ١٤١

٣ ـ شعاع الإدراك ١٤٥

٤ ـ قيمة المعرفة ١٥٦

٥ ـ القوة السرية ١٦١

٦ ـ من يدير غرفة التحكم؟ ١٧٢

٧ ـ من المعلوم إلى المجهول ١٧٩

٨ ـ الأفكار...هل أستطيع لمسها؟ لنكتشف عالم التجرد ١٨٣

٩ ـ الكيان البشري.. وحدة اتصال علمي بحت ١٩٦

١٠ ـ مراتب المعرفة ٢٠٤

الفصل الرابع: العِلِّيَّة ٢١٥

١ ـ الأسباب والمسِّببات في الكون ٢١٧

٢ ـ من أين جاءت العلة الأولى؟ أكذوبة أنَّ لكل شيء بداية ٢٢٥

٣ ـ أنا موجود... فإذن أنا واجب ٢٣٠

٤ ـ تعقب السبب... إنها الرابطة الوجودية ٢٣٤

٥ ـ الحدوث، الإمكان، الفقر أيهم يحوي سر المعلولية؟ ٢٤١

٦ ـ الحب والرضا أم الجبر والاضطرار؟ ٢٥٠

٧ ـ لنلقِ بالأطراف بعيداً ٢٥٣

٨ ـ حجم الأثر ٢٥٦

الفصل الخامس: الوُجُود ٢٦١

١ ـ ما هو أوضح شيء في العالم؟ ٢٦٣

٢ ـ لفظ واحد يستوعب كل الكائنات ٢٦٨

٣ ـ هل يوجد فاصل بيننا وبين وجودنا؟ ٢٧٢
٤ ـ بلوغ الواقعية ٢٧٥
٥ ـ ينبوع الوجود ٢٨١
٦ ـ الأشكال الوجودية.. أم الأشباح الذهنية ٢٨٦
٧ ـ غرفة من معين الوجود ٢٩٠
٨ ـ الكثرة تطفو على سطح الوحدة لنغطس إذن... ٢٩٤
٩ ـ الحقيقة الواحدة والمرايا الكثيرة ٣٠٠
الفصل السادس: إثباتُ وُجُودِ اللهِ وتوحيده ٣٠٧
١ ـ القناديل التي تريد أن تدلنا على الشمس ٣٠٩
٢ ـ إلى أين تتجه بنا الميول؟ باتجاه محضر المطلق؟ ٣٣٣
٣ ـ الإمكان والوجوب ٣٤١
٤ ـ نظرة واحدة تكفي ٣٤٤
٥ ـ درجات التوحيد العقلية والعرفانية ٣٤٨
٦ ـ بين الواحد والأحد ٣٥٥
٧ ـ دليل الوحدة.. ومستلزماته ٣٥٩
٨ ـ الصلة بين الذات والصفات ٣٦٤
٩ ـ العلم الفعلي والعلم الانفعالي ٣٦٧
١٠ ـ القدرة الإطلاقية والممتنعات الذاتية ٣٧٤
الفصل السابع: أهدافُ خَلْقِ العَالَمِ والنظامُ الأحْسَنُ ٣٨١
١ ـ الابتهاج الذاتيّ يضمن العناية ٣٨٣
٢ ـ النظام الأحسن ٣٨٩
٣ ـ غاية العالم وهدفه النهائي ٣٩٢
٤ ـ المطلوب أساساً والمطلوب عرضاً ٣٩٦
٥ ـ كيف يتم وضع الشيء في موضعه المناسب؟ ٤٠٠

٦ ـ لنبحث عن الشرور بمنظار مكبر أين هي؟ ٤٠٤
٧ ـ مرة أخرى... الشرور تحت المجهر ٤١١
٨ ـ العدالة الإلهية ٤١٧
٩ ـ النهر العظيم ٤٢٠
الفصل الثامن: طَرِيقُ الحُـرِّيَّةِ ٤٢٩
١ ـ العلم الأزلي والجبر الأفعالي ٤٣١
٢ ـ في النظام الطولي يكمن الحل ٤٣٦
٣ ـ القدر يأتي قبل القضاء ٤٤٣
الفصل التاسع: الإنسانُ الكاملُ وحَتْمِيَّةُ الوَحْيِ ٤٥٣
١ ـ القرب والبعد ٤٥٥
٣ ـ التجلّي والظهور ٤٦٤
٤ ـ التجلي الأعظم ٤٦٧
٥ ـ السير والسلوك ٤٧٤
الفصل العاشر: الخَاتِمَةُ ٤٨٥
١ ـ التعديل النهائي لرسالة إيمان ٤٨٧
٢ ـ محاكمة فلسفية في فضاء الأثير ٤٩٥
مصادر الكتاب ٥٠٥
صدر للمؤلف ٥٠٦
الكتب ٥٠٦
المقالات ٥٠٦
الفهرس ٥٠٩